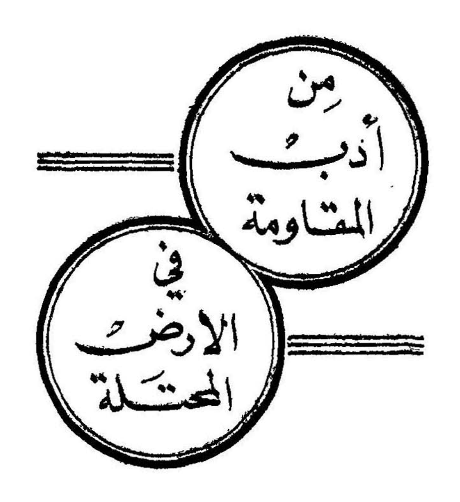


عودة عمر المختار

سميح القاسم

(المنشدون في الوادي)

في اسفل الوادي المعلق بالشموس المحرقه
نبكي وننشدُ
مائلين على الشفاه المطبقه
في اسفل الوادي ..
ودوّامات رملِ الموت تغلي
تغلي وتجذبنا
تماثيلا من الدم والعظام
تغلي وتجذبنا
تماثيلاً بلا شكل وظلّ
. . . .
في اسفل الوادي ،
تسيلُ بنادق اللغة الغريبه
في اسفل الوادي ،
وتجرفنا عصيِ الخيزران
في اسفل الوادي ،
تسيخ جلودنا ،
والقبعات ،
سُحب بلا مطرٍ
ونحن نشد اعقاب الحياة
في اسفل الوادي ،
وننشد في ظلال المشنقه !

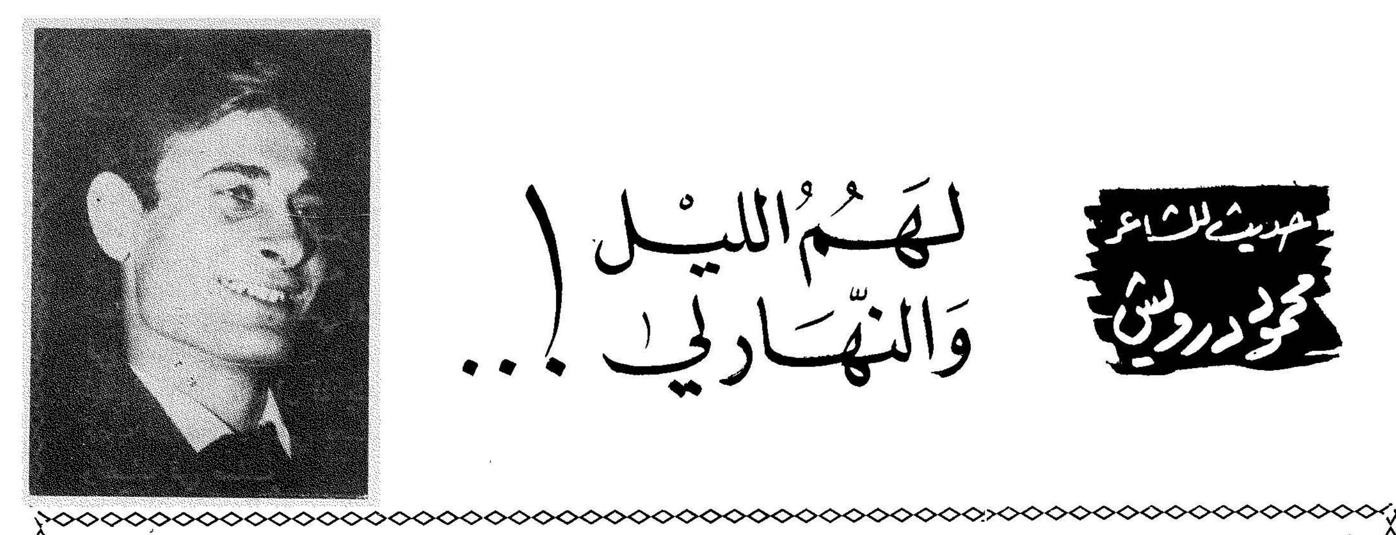
(المنشدون في السفح)

في السفح
في السفح المسمّر فوق اعناق الرجال
نبكي وننشدُ
مائلين على الشفاه المرهَقه
طعم المذلة في حناجِرنا
ورايات القتال

ظلت هنـاك ممزّقه
في السفح ننشدُ
في رمـاد المحرقه
تنسلُ في الابواق اشلاء من الوطن المهان
وتهز رايتنـا الطعينـه
حمّى الهزيمة والعصي الخيزران
في السفح ننشدُ
للقتيل وراء اسوار المدينه
كعب الحذاء الاجنبي يصك في صلفٍ جبينه
ونصكّ في صلفٍ
عقود النـار والـدم والدخان !
. . . .
في السفح ننشدُ ..
لا تزال فؤوسنا ورقاب روما ...

(المنشدون على القمة)

كانت ابراج النفط
أعلى الهامات الليبيّه
كانت فاكهة النفط
آخر فاكهة ليبيّه
كانت أسماءُ النفط
كل الاسماء الليبيّه
والملـك المقعـد
المتكوم فوق غبار العرش المستورد
والوزراء المشدودون بأوتاد الرشوه
والعلماء الصم البكم البرره
والسّحره
والقوّاد المتّكئون على الاسطول السادس
والسفراءُ الضباط التجار الوكلاء الخبراء
كانـوا ثقبـاً
تتسلل منه الجرذان الامريكيه
والسلـع الامريكيه
والنفاثات الامريكيه
وصواريخ الاطلنطي .. المعروفة والسريه !
. . . .
كـانت أبراج النفط
أعـلى الهامـات الليبيّه
كـان الملـك المقعـد
كـان الوزراء المشدودون
كـان العلمـاء الصم البكم
كـان السّحره
كـان القوّاد المتكئون
كـان السفراء التجـار
كـان الثقب الثقب
. . . .
في فجـر الفـاتح
من سبتمبر
في العام التاسع والستين
صارت هامات الشعب
اعلى الابـراج الليبيّه
صارت فاكهة الشعب
أول فاكهة ليبيّه
صارت أسماء الشعب
أحلى الاسماء الليبيّه
في فجـر الفاتـح
من سبتمبر
في العام التاسع والستين
صـار الشعب
صـار .. الشعب ..
فتعالوا ننشد في القمه
وتعالوا ننثر فوق عباءة فارسنا العائد
أزهار التاريخ الحاقد ..
الكاسح أسوار الظلمه ....





لهم الليل والنهار لي !..

● نشرت صحيفة « زو هديرخ » الاسبوعية، الناطقة بلسان الحزب الشيوعي الاسرائيلي باللغة العبرية، حديثا صحفيا طويلا مع الشاعر محمود درويش ، في عددها الصادر في ١٩ – ١١ – ١٩٦٩ . كان الحديث اول لقاء مباشر بين محمود درويش والقارىء العبري ، وقد تناول عدة جوانب من حياة الشاعر وقضيته ، وخاصة ما يتعلق بالعلاقات العربية ـ اليهودية .

اجرى الحديث الصحفي المحرر في « زو هديرخ » يوسي الفازي ، ونشره بطريقة « مونولوج » .

وفيما يلي ترجمة هذا الحديث كما نشرت في مجلة « الجديد » العربية التي تصدر في الارض المحتلة (حيفا)

تعرفت على محمود درويش ، لاول مرة ، عندما كان يلقي من شعره أمام الجمهور . آنئذ كان يلقي قصيدته التي تحولت ، في نظري،الى بطاقته الشخصية : « سجل : انا عربي » . لقد هز محمود النحيل جمهور المستمعين واثاره ، وحوله الى موجة عارمة تحطم السدود . اي تناقض بين الاثنين : القصيدة والمبدع !. لقد جاء التناقض من الكلمات التي خرجت من فم محمود . آنئذ أصبح محمود درويش شاعر الشعب العربي الفلسطيني . ترجمت قصائده الى اللغات : الفرنسية ، والانجليزية ، والروسية ، والايطالية ، والبلغارية . ولكنها لم تترجم الى اللغة العبرية . وأصبحت مجموعاته الشعرية من اكثر الكتب مبيعا ، لا في اسرائيل فحسب ، بل في البلدان العربية أيضا .

قبل عدة ايام ، اطلق سراحه من سجنه الرابع . لماذا اعتقل وسجن ؟ ان محمود درويش وشعره شوكة في عيون السلطة . لقد قررت تقديم محمود درويش الى القاريء العبري بكلماته . ولذلك ، فاني انشر بصورة مونولوج ، الاشياء التي قالها في حوار ليلي جرى بيننا بعد اطلاق سراحه من السجن بثلاثة ايام .

هذا هو محمود درويش :

اذكر نفسي عندما كان عمري ست سنوات . كنت اقيم في قرية جميلة وهادئة ، هي قرية البروة الواقعة على هضبة خضراء ، ينبسط امامها سهل عكا . وكنت ابنا لاسرة متوسطة الحال عاشت من الزراعة .

عندما بلغت السابعة ، توقفت العاب الطفولة . واني اذكر كيف حدث ذلك .. اذكر ذلك تماما : في احدى ليالي الصيف ، التي اعتاد فيها القرويون ان يناموا على سطوح المنازل ، ايقظتني امي من نومي فجاة ، فوجدت نفسي مع مئات سكان القرية اعدو في الغابة . كان الرصاص يتطاير من على رؤوسنا ، ولم افهم شيئا مما يجري . بعد ليلة من التشرد والهروب وصلت مع احد اقاربي الضائعين في كل الجهات ، الى قرية غريبة ذات اطفال آخرين . تساءلت بسذاجة : اين انا ؟ وسمعت للمرة الاولى كلمة « لبنان » .

يخيل لي ان تلك الليلة وضعت حدا لطفولتي بمنتهى العنف . فالطفولة الخالية من المتاعب ـ انتهت . واحسست فجاة أني انتمي الى الكبار . توقفت مطالبي وفرضت عليّ المتاعب . منذ تلك الايام التي عشت فيها في لبنان لم أنس ، ولن أنسى الى الابد ، تعرفي على كلمة الوطن . فلاول مرة ، وبدون استعداد سابق ، كنت اقف في طابور طويل لاحصل على الغذاء الذي توزعه وكالة الغوث . كان الوجبة الرئيسية هي الجبنة الصفراء . وهنا استمعت ، لاول مرة ، الى كلمات جديدة فتحت امامي نافذة الى عالم جديد : الوطن ، الحرب ، الاخبار ، اللاجئون ، الجيش ، الحدود ، وبواسطة هذه الكلمات بدأت ادرس وافهم واتعرف على عالم جديد ، على وضع جديد .. حرمني طفولتي .

بعد اكثر من سنة ، عشت خلالها حياة لاجيء ، ابلغوني ذات ليلة اننا سنعود غدا الى البيت . اذكر جيدا اني لم انم في تلك الليلة .. لم أنم من شدة الفرح . فالعودة الى البيت تعني ـ بالنسبة لي ـ نهاية الجبنة الصفراء ، نهاية تحرشات الاولاد اللبنانيين الذين كانوا يشتمونني بكلمة « لاجيء » المهينة .

.. وخرجت الى رحلة العودة . كان الظلام مخيما على كل شيء . وكنا ثلاثة : انا ، وعمي والدليل الذي كان يعرف مجاهل الدروب في الجبال وفي الوديان . اني اذكر الزحف على البطون لكي لا يرانا احد . وبعد رحلة مضنية ، وجدت نفسي في احدى القرى . ولكن ما اشد خيبة املي : لقد وصلنا الى قرية دير الاسد ، وهي ليست قريتي . لا بيتي هناك ولا زقاقي . سألت : متى نعود الى قريتنا .. الى منزلنا . ولم تكن الاجوبة مقنعة . ولم افهم شيئا .. لم افهم معنى ان تكون القرية مهدمة .. لم افهم .. معنى ان يكون عالمي الخاص قد انتهى الى غير رجعة . لم افهم لماذا هدموا هذا العالم .. ومن هم اولئك الذين هدموه !.

ورويدا رويدا اعتدت على حياة الكبار ، وقضايا الكبار . واتضح لي ـ بمنتهى خيبة الامل ـ اني لم اعد الى منبع الاحلام ، لم اعد الى زقاق الطفولة . كل ما في الامر هو ان اللاجيء قد استبدل عنوانه

بعنوان جديد . كنت لاجئا في لبنان ، وانا الان لاجيء في بلادي . والان ، عندما اتحدث اليك ، وانا في الثامنة والعشرين من العمر ، فانني قادر على تقويم تلك الفترة . اذا اجرينا مقارنة بين ان تكون لاجئا في المنفى وبين ان تكون لاجئا في الوطن ، وقد خبرت النوعين من اللجوء ، فاننا نجد ان اللجوء في الوطن اكثر وحشية . العذاب في المنفى ، والاشواق وانتظار يوم العودة الموعود – شيء له ما يبرره .. شيء طبيعي . ولكن ان تكون لاجئا في وطنك ، فلا مبرر لذلك ، ولا منطق فيه . وعندما نتقدم قليلا في السن نتخلص من الفصة ، ونشعر ان الوجود هنا اكثر تبريرا . عندها يتدخل عنصر التحدي ، وعامل الوعي والبحث عن حل . وقد عثرت على الحل في سن لاحقة ، عندما انتهى الصبا ، وادركت ان ثمة حاجة الى الانتماء ، لا الانتماء السلبي العادي ، بل الانتماء الفعال .. الانتماء الملموس والسياسي . ومن الطبيعي ، أن السياسة تقضي على الحساسية المفرطة وعلى التمسك المتواصل ببقايا الذكريات وبوسعي ان اقول الان ان وضعي الراهن إسهل . ولكن المواجهة النفسانية الداخلية تثور فيّ عندما اجلس لكتابة الشعر . عندها يجري الحوار بين احساس الفنان وبين الوعي السياسي . وانا اعتقد ان الفنان يجب ان يكون عاريا امام نفسه .

★★★

عندما عدت الى دير الاسد ، كنت في الصف الثاني . كان مدير المدرسة انسانا طيبا . وانا اذكر عندما كان يزور المدرسة مفتش وزارة المعارف ، كيف كان المدير يستدعيني ويخبئني في غرفة ضيقة . فقد كانت السلطات تعتبرني « متسللا » وكان المعلمون يرغبون في الدفاع عني . لقد اضاف ذلك الحادث كلمة اخرى الى قاموسي الخاص ، الى قاموس الحياة : كلمة « متسلل » . وكلما كانت الشرطة تاتي الى القرية ، كانوا يخبئونني في خزانة او في احدى الزوايا ، لانه من المحظور عليّ ان اعيش هنا .. في وطني . لقد منعوني من الادلاء بهذا الاعتراف : « كنت في لبنان » . وعلموني القول اني كنت لدى احدى القبائل البدوية في الشمال . وهكذا فعلت لكي احصل على بطاقة الهوية الاسرائيلية . ولكني لا ازال – حتى اليوم – محروما من الجنسية في وطني !.

واعتبرت تلميذا متفوقا . كنت اكثر من مطالعة الادب العربي . وقلدت الشعر الجاهلي في محاولاتي الشعرية الاولى .

واليوم ، يبدو من المستهجن ان اكشف النقا بلاول مرة : اني كنت موهوبا آنئذ في الرسم . ربما كنت في ظروف وملابسات اخرى اتطور كرسام لا كشاعر . وقد تضحك عندما تعرف لماذا توقفت عن الرسم . السبب في منتهى البساطة : لم يملك والدي قدراً من المال يتيح له امكانية ان يشتري ما احتاجه من ادوات الرسم . لقد زودني بدفاتر الكتابة بشق النفس . آلمني ذلك كثيرا ، فبكيت وتوقفت عن الرسم . وعندها حاولت التعويض عن الرسم بكتابة الشعر . وكتابة الشعر لا تتطلب نفقات مالية !

كانت مواضيع محاولاتي الشعرية الاولى وهي مشاعر الطفولة . وكنت احاول الكتابة ، احيانا ، عن مواضيع ذات وزن ، كانت اكبر من طاقتي في تلك السن . شجعني المعلمون على الكتابة . ولا ازال حتى اليوم مدينا لبعضهم – ومن بينهم معلم شيوعي هو نمر مرقس – قاموا بتوجيهي وساعدوا خطواتي الاولى في الشعر .

★★★

لقد خلق لي شعري المتاعب منذ البداية . ودفعني الى الصدام مع الحكم العسكري . واذا اردت مثلا على ذلك : كنت طالبا في الصف الثامن عندما احتفلوا بمناسبة اقامة دولة اسرائيل . وقد نظموا مهرجانات كبيرة في القرى العربية باشتراك تلامذة المدارس في هذه المناسبة . طلب مني مدير المدرسة أن اشترك في مهرجان عقد في قرية دير الاسد . وعندها ، ولاول مرة في حياتي ، وقفت امام الميكروفون وبالبنطلون القصير ، وقرأت قصيدة كانت صرخة من طفل عربي الى طفل يهودي . لا اذكر القصيدة ولكني اذكر فكرتها : يا صديقي ! بوسعك ان تلعب تحت الشمس كما تشاء . بوسعك ان تصنع العابا . ولكنني لا استطيع . انا لا املك ما تملكه . لك بيت ، وليس لي بيت ، فانا لاجيء . لك اعياد وافراح ، وانا بلا عيد وفرح . ولماذا لا نلعب معا ؟!.

وفي اليوم التالي استدعيت الى مكتب الحاكم العسكري في قرية مجد الكروم . هددني وشتمني ، فاحترت . لم اعرف كيف أرد عليه . وعندما خرجت من مكتبه بكيت بمرارة لانه انهى تهديده بقوله : اذا استمررت في كتابة مثل هذه الاشعار فلن نسمح لابيك بالعمل في المحجر !. يؤلمني ان اذكر الان ان تهديدات ذلك الحاكم العسكري اثرت عليّ تأثيرا سلبيا . وبمنطق الصبي قلت لنفسي : سأحصل على القصاص . ولن اكتب . وبالمنطق ذاته عجزت عن فهم السبب الذي يجعل مثل تلك القصيدة تثير حاكما عسكريا . واسجل الان ان ذلك الحاكم العسكري كان اول يهودي اقابله واتحدث اليه ! لقد ضايقني سلوكه : اذا كان الامر كذلك ، فلماذا اتحدث الى الطفل اليهودي ؟ لقد تحول الحاكم العسكري الى رمز الشر الذي يؤذي العلاقات بين الشعبين . ومن الواضح ، الان فقط استطيع الاجابة على الاسئلة التي ضايقتني آنئذ .

★★★

ومن حسن حظي ، ظهرت في حياتي صورة اخرى مناقضة للحاكم العسكري . بعد ذلك الحادث ببضعة شهور ، انتقلت الى الدراسة في مدرسة كفر ياسيف الثانوية . هناك التقيت بشخصية يهودية اخرى تختلف تمام الاختلاف ، هي المعلمة شوشنه التي لا امل الحديث عنها . لم تكن معلمة . كانت اما . لقد انقذتني من جحيم الكراهية . كانت – بالنسبة لي – رمزا للخدمة المخلصة التي يقدمها يهودي طيب لشعبه. لقد علمتني شوشنه ان افهم التوراة كعمل ادبي ، وعلمتني دراسة بياليك بعيدا عن التحمس لانتمائه السياسي ، وانما لحرارته الشعرية. لم تحاول ان تعبئنا بسموم البرامج الدراسية الرسمية التي ترمي الى دفعنا للتنكر لتراثنا . لقد انقذتني شوشنه من الحقد الذي ملأني به الحاكم العسكري . لقد حطمت الجدران التي اقامها ذلك الحاكم .

★★★

قبل عدة اسابيع ، عقدنا – نحن محرري الصحف الشيوعية العربية – مؤتمرا صحفيا في حيفا . تصرف بعض الصحفيين بدون لباقة اذ استخدمت الكلمة اللينة ، وبدون فهم لمشاعرنا وقضايانا . وفي مجرى الحديث قلت لاحد الصحفيين ان صحيفة « عل همشمار » نشرت في ذلك الصباح خبرا بارزا عن الاحتفالات بمرور عشرين سنة على انشاء كيبوتس « يسعور » . جاء في الخبر ان الفرح بهذه المناسبة لم يكن له مثيل . وقلت للصحفي : يؤسفني ان اقول لك الحقيقة – انا افهم فرحك ولكنني عاجز عن مشاركتك فيه . لماذا ؟ لان هذا الفرح قائم على اطلالي . فان كيبوتس « يسعور » ومستوطنة « احيهود » مبنيان على انقاض قريتي .. على انقاض حارتي وبيتي . ذلك ينتمي الى الماضي ؟ ولكنه محفور في اعماقي !.

عندما عدت من لبنان ، حذرني اهلي من «خطورة» رغبتي في زيارة المكان الذي ولدت فيه وقضيت طفولتي ، فاذا القي القبض عليّ هناك، ساطرد الى لبنان . وهكذا لم أزر المكان الا عام ١٩٦٣ . كانت زيارة سرية لان دخول تلك المنطقة ممنوع . ولم اجد من كل القرية الا مبنى الكنيسة الذي تحول الى اصطبل . ان ما رأيته في ذلك المكان المهجور يفسر لك لماذا كانت هذه هي زيارتي الاولى والاخيرة . فتشت عن مرتع طفولتي فلم اجد الا الاشواك ، لا منزل ولا شيء الا الشوك . لن اعود الى ذلك المكان . وكانت الزيارة بمثابة حج . قمت بتادية هذه الفريضة مع مجموعة من الاصدقاء ، من ابناء القرية . خلدنا الى الصمت التام طيلة تلك الزيارة وبعدها . التقينا هناك براعي اغنام من اليمن يقيم في مستوطنة « احيهود » . قلت له : لقد اصبحنا ابناء قرية واحدة !. لم يفهم ما اعنيه ، ولم تكن بي رغبة في التفسير .

★★★

انا افهم سوء فهم ذلك الراعي .. الشاب البسيط . ولكــن يشق عليّ ان افهم الاغلبية الساحقـة من المثقفين اليهـود المقيميـن فى اسرائيل . ويزيد من صعوبة فهمي كونهم شديدي الحساسية تجاه اي سوء يتعرض له أي مثقف يهودي في اية ناحية مــن انحاء المعمورة . ولكنهم لا يحاولون اجراء أي اتصال من الفهم مــع زملائهم العرب فـي اسرائيل . اني اذكر مشاعر الاحراج التي داهمتني في اوروبا ، عندما سألني عدد كبير من ادباء العالم عن التأثير المتبادل بين الشعر العربي والشعر العبري في اسرائيل . واولئك الادبـاء الذيـن سمعـوا عـن الملاحقات التي يتعرض لها الشاعر العربي في اسرائيل ، كانوا معنيين بمعرفة الجبهة المشتركة بيــن هؤلاء المضطهدين وبين اكثرية زملائهـم العبريين . أجد لزامـا عليّ ان اؤكد هنا أني واجهت ـ بهذه الاسئلة ـ قضية جادة جديرة بالاهتمام والملاحقة ، لم تطرح في اسرائيل من قبل . وكان جوابي : ((لا شيء)) . ويؤسفني ان امثـل الاديب المناضل مردخاي ابي شاؤول هم قلائل في اسرائيل . وبوحي مــن هـذه الاسئلة كتبت افتتاحية في مجلة ((الجديد)) طرحت فيها هذه القضية التـي تتطلب الاجابة . اريد ان اؤمن باننا سنحصل على الاجابة . انني لا اطمح الى التماثل والفهم التام من جانب زملائنا الشعراء والادباء اليهود . اننـى اعود ـ بكل بساطة ـ الى التعارف . ادعو الى آذان صاغية ، ولا أدعو الى الموافقة المسبقة . من المخجل اننا لا نعرف شيئا عن بعضنا البعض. ان ما جرى في مؤتمر للكتاب عقــد مؤخرا فــي فرنسا ، بين الوفد الاسرائيلي الرسمي (حاييم غوري واهرون ميغد) وبين كاتب لبناني قام بتوزيع بيان احتجاج على ملاحقة الشعراء العرب في اسرائيل ، هــو بمثابة دعوة جديدة وملحة الى النظر بجدية الى قضية العلاقات بيــن حملة الاقلام العبرية والعربية في اسرائيل . واني احتج هنـا علـى الحلول السهلة التي يقترحها قسم من الصحافـة الاسرائيلية باختراعها اسماء غير معروفة وعديمة القيمة لتمثل بها حركة الادب العربي فـى اسرائيل . واريد ان احتج ايضا على ظاهرة اخرى هي الطريقة التـى يقدمون بها الممثلين الحقيقيين للشعر العربي بصورة ((حملة شعارات)) و ((معادين لليهود)) !

ان الجهل التام بالادب العربي في اسرائيل ينبع مــن اعتبارات وحسابات سياسية بحتة ، مع انه ليس مــن المقبول الحديث عــن السياسة والشعر في سياق واحد !!. ان اولئك الذين يسيطرون على ادوات الدعاية والنشر لا يريدون ان يقدموا للقاريء العبري حقيقــة الادب العربي في البلاد . انهم يخافون مضمون هذا الادب . ويدركون ان وصول هذا الادب الى الجمهور اليهودي سيحطم حواجـز . فالادب العربي هنا هو ادب احتجاج على وضع غير عادل ، كاي ادب احتجـاج آخر في العالم . واذا كان مــن المتاح لـي ان استعير مثلا من أدب الاحتجاج العالمي المعاصر ، فسأذكر اسم ((جيمس بلودوين)) الزنجـي الامريكي ، صاحب الكتاب المثير ((لا احد يعرف اسمي)) ، واعرف أن رنين هذا الكتاب ليس عذبا للاذن الاسرائيلية بسبب تشابه الواقعين ، ولكن القلائل .. القلائل جدا في المجتمع الاسرائيلي هــم الذين يعرفون اسماءنا وقضايانا . بيد اني اريد ان افترض وجــود شعراء مبدعين ، مثل يهودا عميحاي وداليــة ريبكوفتش ، ذوي استعداد اولي لفهــم امثالنا . عندما التقي بالحيرة النفسية لدى هذين الشاعرين وغيرهما، احصل على حفنة من الامل ، وفي انه لا يزال فيهذه البلاد من يحافظ على حاسة فهم الآخرين !.

وينبغي عليّ ان اضيف انه بالاضافـة الى كل المتاعب والعقبات ، هناك عقبة اللغة . اني افهم لماذا يحصل عدد كبير من الادباء اليهـود على انطباع خاطيء عنا . انهم لا يعرفوننا . لا يقرأوننا بلغتنا الاصلية . وبهذا الصدد اجد نفسي عاجزا !. ولكن ، لماذا لا نتعارف علـى الاقل ؟ لا اطلب منهم ان يحكموا على انتاجنا ، فالشرط الاول لهذا الحكم هـو المعرفة ، وهم لا يعرفون . هذه القضية تشغل بالي . وانا لا امل تكرار دعوة الادباء اليهود الى التعرف على زملائهم العرب . وفــي هــذه المناسبة ، بودي ان الفت نظــر القاريء العبــري ـ وليس بدافــع السخرية ـ الى حقيقة ان الكثيرين في اسرائيل يعرفون اسم الشاعرة فدوى طوفان من نابلس الواقعة تحت الاحتلال الاسرائيلي منــذ عامين فقط، بينما لا يعرفون اسماء الشعراء العرب الذين يعيشون تحت الحكم الاسرائيلي منذ ما يزيد عن ٢١ سنة ! ان هذا السؤال موجع وخبيث . اعترف بذلك . ولكن حاولوا ان تفهموني . وانا لا اعاتب الادباء اليهود المتعصبين ، أني اعاتب الادباء الذين يريدون ان نسميهم أدباء تقدميين. من هؤلاء اطلب : تعالوا نتعارف ونتناقش !.

***

بدأ تعرفي على الادب الثوري والشيوعي ، خلال دراستي الثانويه. قرأت ((الاتحاد)) و((الجديد)) وغوركي ولينيـن . تحسست طريقـي وظهرت نقطة ضوء في حياتي . في سنوات دراستي الاخيرة شغلتنـي كثيرا الحيرة الادبية . كيف اعبر عن نفسي . انا شاب انتمي الــى قومية معينة ، ولي قضايا معينة . وفي الوقت ذاته اعيش فــي دولة اسرائيل . اريد العثور على حل لهذا السؤال : ((هل من حكم القــدر وجود تناقض بين هذين الانتمائين ؟)) . لا اخفي عليك ان هذا السؤال يتراءى ، امام النظرة السطحية ، بالغ السهولة . ولكنه سؤال شــاق وخاصة للشباب . وانا لم اعثر على الجواب بسهولة . حللته علــى النحو التالي : ((لا تناقض جوهري بين الشعوب ، اذا قامت العلاقـات بين الشعوب على اساس المساواة)) . انت مدعو لان تكون بطلا ، مــن ناحية نفسية ، لكي تتغلب على هذا السؤال في ظروف بلادنا . وانــا لا ادعي البطولة النفسية اذا قلت لك اني وجدت الحل ، فالتناقض ليسقدرا على الرغم من اننا يجب ان نفهم اولئك الذين يعتبرونه كذلك.

اني احاول ، رغـم الآلام والعذاب الناجمـة عن الظلم ، المحافظـة على اهم عناصر الانسان : ان اكون انسانا ، وان انجو من التعصــب القومي . لا اقول ذلك نفاقا ، ولا لاني اتحدث اليك ، والى القاريء العبري بواسطتك . لاتحدث بسذاجة : انا لا اعادي اليهود . واقــول لك بادراك تام ان الانسان ـ مهما كان لونه ومهما كانت قوميته ـ هــو كنــزي .

واريد ان اتباهى بانسانيتي ، بانني اول شاعر عربي عرض جنديا اسرائيليا ، حتى بعد حرب حزيران ، بجوهره الانساني . كيف حــدث ذلك ؟ بعد حرب حزيران التي أعادت قتلي حافظتعلى انتمائي الانساني. كتبت قصيدة ((جندي يحلم بالزنابق البيضاء)) . والقصيدة هي حوار مع جندي اسرائيلي عاد من الحرب خائبا لانه فقد انتماءه الانساني . شربت معه اربع كؤوس خلال حديثنا عن الحرب وعن حبه الاول وعــن همومه اليومية ، بدون ظل من الكراهية القومية . لقد وضع الجندي قلبه امامي ، وانا استقبله كصديق قبل الحرب . هاجمني اديب سوري بشدة ، على هذه القصيدة . اتهمني بانني اضلل الرأي العام العربي والعالمي . وقال ان هذا الجندي موهوم . ولكنني سررت عندما قرأت كتاب احد النقاد الشباب البارزين هو رجاء النقاش . في كتابه عنى رد على الكاتب السوري بان الصراع في المنطقة ليس مع اليهود كبشر ،

ولكنه صراع بين العرب والصهيونية . وقال رجاء النقاش أن العالم لم يفهم عداء العرب لاسرائيل ، ولمح الى أن العقبة بين تفاهم العرب واليهود هي الصهيونية والاستعمار . وأنا استغرب لماذا لا يستخلص الضمير اليهودي النتائج الحقيقية من تأثير الادب العربي الانساني في اسرائيل . اننا نشهد ، في الاونة الاخيرة ، ملاحقة ايجابية من العالم العربي للشعر العربي في اسرائيل . صحيح ، ان اغلبية الاسرائيليين تنظر الى هذه الحقيقة بريبة وترى فيها دليلا على موقف العرب السلبي. ولكنني انظر الى الامر من زاوية اخرى . ان هذا الاهتمام علامة على التغييرات الايجابية الجارية في النفسية العربية . العالم العربي يرى في الشعر العربي في اسرائيل رمزا للصمود ، رمزا لعدم الاستسلام، ورمزا للامل . وقد كنا شهودا على النقد الذي تعرض له شعر القضية الفلسطينية المكتوب في البلدان العربية . كان النقد يقول ان اغلبية هذا الشعر تتميز برفع الشعارات المتعصبة ، ولم تعرف كيف تجد السبيل الى القلب الاوروبي والى حاسة العدل الانساني . وقد وجد هؤلاء النقاد حلا لهذه المسألة في الشعر العربي المكتوب في اسرائيل. رأوا فيه شعرا انسانيا يسمو على مشاعر الحقد والمزاج النفسي البدائي . وعبر عن ذلك بمستوى فني عال . وانا ، كشاعر عربي يحافظ على طابعه القومي العربي والانساني ، ارى في هذه الظاهرة كسبا للعقل السليم والاحساس المعافى ، وانتصارا للانسانية . لا يعنى ذلك اني صرت عدميا قوميا ، ولا يعني ذلك اني اسلم باي شكل من اشكال الغبن والظلم ، ولكن ذلك يعني انني قادر على التمييز بين الانسان والسياسة .

يجري حوار بين الادباء والنقاد في العالم العربي حول تسمية حركة الشعر العربي في اسرائيل التي يمثلها بشكل بارز : سميح القاسم ، توفيق زياد ، وسالم جبران وانا . هناك من يسميها : شعر المقاومة . وكتب احد النقاد البارزين في القاهرة غالي شكري : يمكن ان نسمي هذا الشعر شعر مقاومة ، ولكن علينا أن نذكر ان نقطة انطلاق هؤلاء الشعراء هي الاعتراف بحق اليهود والعرب في العيش في فلسطين، ولذلك من الاصح ان نطلق عليهم اسم : شعراء الاحتجاج والمعارضة .

***

لا . انا لا اعتبر نفسي شاعرا ناضجا . لا اشعر بالرضا الفني . وانا احد الذين يعتقدون بان الفنان الذي يتوصل الى الرضا عن نفسه يفقد مبررات استمراره . صحيح انني نجحت في تحسين ادواتي الفنية ونجحت في قهر تناقضاتي ، ولكنني لا اشعر بالرضا الفني .

اذا كان يشغلني في كل تجاربي الادبية ؟ قضية الحقيقة والعدل في حياتنا . انها تصبح قضية اكثر تعقيدا وتركيبا في هذا العصر المركب . ولكنني اتشبث بكل نقطة ضوء وسعادة في بحثي عن الاشياء التي تبرر قدرة الانسان على الصمود امام العذاب .

ليس من حقي القول اني سعيد . من السخف ان ادعي بانني سعيد . ولكن مطاردتي للسعادة تمنحني السعادة . هذا هو - في رايي - مبرر وجود الشاعر منذ قام الانسان بالتعبير عن نفسه .

احاول المزج بين انتمائي القومي وانتمائي العالمي والانساني . واحاول ايضا ان اعمق حاضري بخيرة العناصر الكامنة في الماضي ، وبأجمل ما يظهر لي من المستقبل .

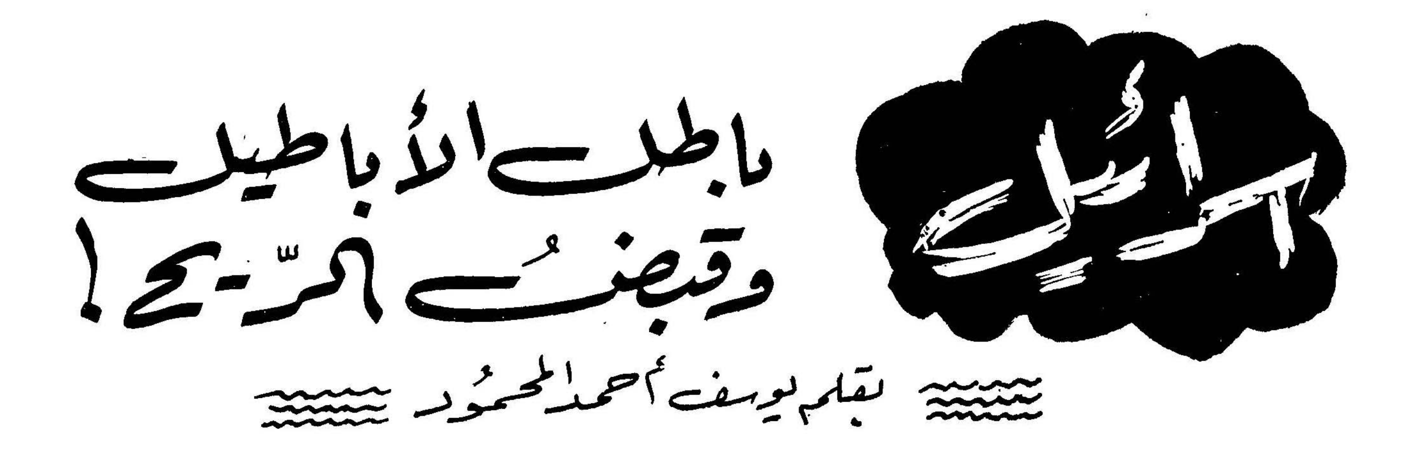
من الطبيعي ان تحترم شاعرا وتعجب بشاعر وتحب اخر . كلنا نقدر شيكسبير علىسبيل المثال . وكلنا نعجب بحكمت ونيرودا واودن. ولكن رغم اعجابي البالغ بالكثيرين من الشعراء ، الا انني احب لوركا. . نعم ، انا احب لوركا حبا . لا اعتبر لوركا شاعرا مبدعا فحسب ،ولكنني اعتبره ايضا صديقي .

***

● الكثيرون من اصدقائي يتألمون من اجلي . هذه الملاحقات .. الاعتقالات واوامر الاقامة الجبرية التي تحدد حرية تجولي في وطني ، اصبحت جزءا من حياتي اليومية . ولكنني انظر اليها باستهتار يكاد يكون خبيثا . لست متوترا ولست مندهشا . اجلس في غرفتي ، كل مساء ويطربني ان ارتبط بالشمس ، لاني امنع من مغادرة البيت بعد غروب الشمس . منحوني شرفا كبيرا عندما ربطوا خطواتي بالشمس. اجلس في الغرفة ، أقرأ ، اسمع موسيقى ، وانتظر البوليس . وفي الساعة الرابعة بعد كل يوم اثبت وجودي في محطة الشرطة بابتسامة حقيقية غير لئيمة دائما . وانا انظر الى ذلك برؤية شعرية : لقد تقاسمنا اليوم : لهم الليل ، والنهار لي . لا يحق لي الخروج في الليل، وهم دائمو التجوال في الليل . وكل واحد منا يعرف ان النهار اجمل من الليل ، وضوء الشمس احلى من الظلام . فمن انتصر .. انا ام البوليس ؟

***

● لا انام قبل الاستماع الى الحان ميكيس ثيودوراكيس . بيني وبينه حكاية : قبل ثلاثة اسابيعقرأت في الصحف الاسرائيلية ان ميكيس قد اعتقل . كتبت قصيدة من وحي هذا الاعتقال ، عنوانها « ريتا .. احبيني ».كتبت في مقدمة القصيدة انسبب اعتقال ميكيسثيودوراكيس هو انه « خطر على امن الجمهور » . اضحكني ان الصحف الاسرائيلية وضعت هذه الجملة ضمن اقواس تعبيرا عن سخريتها من هذا الادعاء : « خطر على أمن الجمهور » . ضحكت ، لان هذه الصحف تنظر الى هذا الادعاء كأمر بعيد عنها وبعيد عن حدود اسرائيل ! اني استمع الى الحان ميكيس كل مساء واحس اننا صديقان . انا ايضا « خطر على امن الجمهور » . ولكنني لم اتصور ان مصيري ، ذلك الاسبوع سيكون كمصيره . فعندما نشرت القصيدة في « الاتحاد » كنت انا في الاعتقال لانني « خطر على أمن الجمهور » !



« ويل لي ياأمي لانك ولدتني انسان خصام وانسان نزاع لكل الارض ... » صرخة يهودي قديم وجد متسعا ليلعن اليوم الذي ولد فيه . والصهيونية التي أخذت على نفسها ان تؤدي رسالة « الخصام والنزاع » بأشنع شكل في الوطن العربي ، تتخذ اليوم من حرب «الايام الستة » مناطق ضغط مرتفع ، تمطرنا منها بالمنطق والواقع والتعقل ، وترعد بالوعيد وتبرق بالتهديد .

منطق القوة !... وقديما حملته الينا أفيال الحبشة ، وطحون الفرس واجتاحتنا به سيول المغول وامواج الصليبيين ، واقتعد صدورنا بـه الاتـراك .

واقع الاحتلال !.. وحديثا داهمتنا به بريطانيا « العظمى »وفرنسا وايطاليـا .

والان ... يضاف اليهما تعقل الصهيونية ! « باطل الأباطيل » في عصر العلم وغزو الفضاء ، تحاول بمنطق القوة وواقع الاحتلال، أن تفرض علينا بالتعقل خرافة ظلمات التاريخ ، و « قبض الريح » !

وتوهم اسرائيل انها تعذر فيما تنذر . فما كانت اساءتنا الـى اليهود قبل أن تقتحمنا الصهيونية بهذا الغزو ؟ هل نحن الذين ولدتنا أمهاتنا انسان خصام ونزاع لكل الارض ؟ أي منطق ، أي واقع ، واي تعقل يدعو الصهيونية الى تركيب هذه المعادلة الشيطانية : العـرب والفنـاء واليهـود !

اسرائيل « توعي » الشباب الفلسطيني .. تحذرهم من تغرير المنظمات الفدائية بهم وتعريضهم للقتل . وتنسى هي تغريرها باليهود فتلملمهم من اقطار العالم ، وتزج بهم في فلسطين لتقتل بهم شعبـا في وطنه . وما من أحد في الدنيا يستنكر انيكون جزاء القاتـل الباغي القتـل .

اننا هنا لانحاول أن نرد على الاساليب اللاانسانية واللااخلقية التي ماتفتأ اسرائيل توجهها الينا كل يوم في صيغة احاديث خبيثة ماكرة وتعليقات ، خاطفة وغير خاطفة ، بل اننا خطوة خطوة مع : منطق وواقع وتعقل باطل الاباطيل وقبض الريح .

اسرائيل وسياسة سل الشعرة من العجين :

من « مرددات » اسرائيل اليومية محاولة الفصل بين الزعامـة العربية ـ الحكام ، كائنا نوع سلطتهم ماكان ، وبين الشعب الـذي لاتزال السلطات الوطنية تحتفظ بتقسيمه في أقطار حسب تخطيط الانتداب والاستعمار . انها لا تفتأ تظهر أنها لا تريد سوءلا بهـذا الشعب، بل ان حسابها ، كل حسابها مع الزعامة التي لاتزال تجر ، في زعمها ، الويل والثبور على محكوميها . انها تجهد نفسها بالاعلان ، تلويحـا وتصريحا ، أنها ضد الفساد ـ فساد غيرها ـ في هذه المنطقة . وهذا الفساد متمثل ، كما يطيب لها ان توهم ، في الحكام !

ولكن .. هل الشعب العربي ، الذي تقول أمثاله « أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب » ، من الغفلة بحيث يروق لاسرائيل ان تفترض ؟ هل هو من سوء الظن بنفسه بحيث لم يعد يجد من يهتم به ويرعى مصالحه ويصون كرامته ويكفل له حقوقه الا الصهيونية ؟

ان اسرائيل لاتدأب على ترديد شيء الا حسب خطة قريبة وبعيدة . انها ليست من الغباء الى حد تفترض فيه انه لايوجد لكل حكم وطني معارضون ومنتقدون ، بل ومناهضون ، لانها هي نفسهـا لاتخلو من مثل هذه المظاهر التي تعتبر مظاهر صحة اكثر مما هي مظاهر مرضية ، ولكنها لاتتورع ان تأخذنا نحن بالغباء ، وتجعل ماهو صحة في الطبيعة مرضا فينا ووباء على ارضنا . والعناية الالهية التي « ماأنزلت داء الا وانزلت له دواء » قد خصت بها هذه المنطقة . ومن الداء مايعالج ـ على حد تخطيطها ـ بالغباء .

ونحن كشعب لايحط من شاننا ان لانكون مع حكامنا في كل شيء. كما انه لايرفع من شأن هؤلاء الحكام ان نوافقهم في كل شيء . ولكن ان ترمي اسرائيل بهذا التحريض غير المباشر الى ايقاع الشعب بحكامه ، لتكون هي المنتفعة فاننا لانظنها قد قدرت فينا أي ذكاء ولا احسنت بنا الظن .

انه لايغيب عن بال احد منا ، شعبا وحكاما ، ان العدو المبصر بالعيوب أنفع من الصديق الذي لايرى الا الحسنات . اما ان تجعلنا اسرائيل في مستوى لانفرق فيه بين النصيحة والوقيعة ، وبين الصديق والعدو ، فهذا ما يؤكد لنا أنهـا تحاربنا معا ، شعبا وحكومات . ومن جنود هذه الحرب أن تفصل بين الشعب وبين الحكام لتتقي بكل جانب خطر الاثنين معا .

والسخرية ليست في هذه البداهة « الصهيونية » . وانما هي في ان تكون اسرائيل تعلم كل العلم ان كل الانقلابات والثورات التي تعاقبت قيامها في بعض الاقطار العربية ، انما كانت غضبا من الشعب لقيامها هي بالذات . وان تعلم ان الشعب العربي في كل أقطاره وفي مهاجره غاضب على حكامه لانهم لايوحدون نظمهم وقواهم لمواجهة خطر اسرائيـل .

اسرائيل لاتتجاهل هذا . ولكنها تحاول جاهدة ان تجعل الغاضبين يتجاهلون سبب غضبهم وان يختلط عليهم الامر ، كانها ليست هي سبب

هذا الغضب ، وكانها ، بقتلها العرب واحتلالها لارضهم ، لم تفعل ما يغضب له ، ولم تات بما يغضب الشعب العربي عليها هي ، بل ما يغضبه على حكامه ولاسباب اخرى !

هل تجرؤ اسرائيل على ان توهم انها تراف بالشعب العربي ، وان عداءها انما هو للزعماء الحاكمين فقط ؟ اذا كان هذا هو مضمون ما تكرره كل يوم وتلح عليه للفصل بين الشعب والحكام ، فهل كان العرب الذين ذبحتهم في دير ياسين ، والذين قتلتهم حيثما ثقفتهم في ارض فلسطين ، واضطرت من لم تثقف منهم الى النزوح الى ما وراء فلسطين هل كان كل اولئك من الزعماء ، حاكمين او غير حاكمين ؟ اذا كانت تفترض هذا الفصل في نفسها براءة وذكاء فهل تفترض فينا هذا المقدار من الغباء !! هل هي تزكي الشعب العربي بفصله عن حكامه حتى لا يمسه ضررها اخذا بسياسة « سل الشعرة من العجين » ، ام انها تسخر منا اذ تمدحنا بما يضرنا فعله وينفعها هي ؟

اننا نتمنى لو كانت ، وحرابها في قلوب الشعب اجمع قبل ان تكون في رؤوس الزعماء ، تخدع نفسها هذه الخدعة الكبيرة المزرية . ولكننا لا نجعلها بحيث جعلتنا . فهي ليست بحاجة لان نؤكد انه لو استجابت الزعامة العربية الحاكمة لرغبات الشعب نصف استجابة فقط ، لكانت البلاد العربية ، من الخليج الى المحيط ، دولة واحدة، تحقيقا للشعار الذي ما زال الشعب يهتف به منذ مطلع الخمسينات: ارض واحدة ، شعب واحد ، علم واحد ، جيش واحد ، ورئيس واحد. ولا يغيب عن بال ابسط فرد من هذا الشعب ان دون ذلك صعوبات ، ولكن اي صعوبة تقاس بما حمله البنا وجود اسرائيل كيانا دخيلا عدوا بيننا ، يهددنا بالاخطار العاجلة والآجلة ؟

هل تموت اسرائيل بما عاشت به ؟

ولا تبرح اسرائيل هذا الموقف . فما تخاطب به الشعب العربي عامة تخاطب به الفلسطينيين خاصة . انها في برامجها الموجهة الى الفلسطينيين النازحين وباللهجة الفلسطينية العامية تصر على ان تثبت في روعهم ان الزعامة العربية هي التي ادت بهم الى هذا المصير .هي التي عرضتهم للقتل في بيوتهم ، وسببت التشرد لمن لم يقتل منهم .هي التي تاجرت ولا تزال تتاجر بقضيتهم وتشردهم ، لان حكم هذه الزعامة حسب تعبيرها ، رهن ببقاء الفلسطينيين النازحين نازحين ، ووقف على بقاء النازحين متشبثين بالعودة الى ديارهم . ولو تولى الفلسطينيون قضيتهم بايديهم لما حصل لهم ما حصل ، ولما استمروا فيما لا يزالون مستمرين به من بؤس وتشرد و.. الخ ..

وهكذا تظل بالقضية من الفها الى يائها عند قضية الزعامة. فكانها ما جاءت الا لتخدم العرب بقطف رؤوس الزعماء ، ولكن اصغاء الفلسطينيين الى المتزعمين هو الذي اضطرها لمعاقبتهم هذا العقاب .

دابت اسرائيل على تلاوة هذا عشرين سنة على الفلسطينيين ، كأنه الماء تصبه على الجلود التي قرحتها سياطها والبلسم تدهن به الاجسام التي حرقتها نيرانها . ثم قام الفلسطينيون ليحكوا جلودهم باظافرهم. جمعوا بقاياهم في منظمات فدائية ، راحت تقتحم ارضهم المغتصبة تقتحم الحديد والنار وتتسرب من الحواجز الالكترونية . فماذا كان رد اسرائيل على ما كانت تاخذ على الفلسطينيين عدم الاخذ به ؟ انها رغم كثرة المرادفات للفداء والبطولة والثار واسترجاع الحقوق المغتصبة لم تجد كلمة تسمي بها هؤلاء الفلسطينيين الا « المخربين » و« القتلة » و« المتسللين » .

ان اسرائيل التي ما تفتا تصم الزعماء العرب بتشبيههم بالنعامة المأثور عنها اخفاؤها راسها في الرمال ، زاعمة انها تخفى كلها بذلك عن الصياد ، اسرائيل اخفت راسها هذه المرة لا بالرمل ، وانما بالوحل. ومن تحت الوحل راحت تدعو الزعماء العرب الى المنطق والواقع والتعقل متناسية الفلسطينيين اصحاب القضية واصحاب الحق ، الذين لم يجدوا وسيلة لاسترجاع بلادهم الا ان يبادهوها ، وهي تتبجح كدولة بما بادهتهم به هي يوم كانت مجرد منظمات يدربها ويسلحها ويرعاها الاستعمار ، وهم افراد عزل يكبحهم ذلك الاستعمار !

لقد افترضت وجودها منطقا ، وعلى الزعماء العرب ان يتثقفوا بهذا المنطق . واعتبرت قيامها واقعا ، وعلى هؤلاء الزعماء ان لا يفوتوا على انفسهم فرصة التسليم به . واعتقدت ان قوتها تعقل ، وعلى الزعماء ان يتشجعوا ولا يحجموا عن التحلي بهذا العقل . ولماذا الزعماء في كل فرضية وفي كل مقدمات منطقية ، وهي ما تفتا تعلن جهادها في هؤلاء الزعماء ؟ لماذا لا تتحلى هي بما تلزم غيرها التحلي به ، وتسمي الاشياء باسمائها الصحيحة ، فتضع ـ وهذه المرة فقط ـ المنظمات الفلسطينية مقدمات للمنطق الصحيح ، وليس منطقها الصهيوني وحده !

ان المنطق العربي قال لزعماء اليهود منذ قرون:« ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون. أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم.» «ونحن ما كان ليهمنا ان تنسى الصهيونية نفسها مما تلزم غيرها به لولا انها تحمل هذا الغير على ان يترك صوابه هو لخطئها هي، وان تصبغ باطلها بحقه ، فيصير هو المخرب اذا ما قام يسترد ارضه بدمه، ويصير هو القاتل اذا ما استمات بزحزحة المغتصب عن تلك الارض . ان تحتل الصهيونية الارض .. ان تقتل وتشرد اهلها الذين كانوا عزلا ،فهذا بطولة خارقة . اما اذا استرد الفلسطينيون انفاسهم وجهدوا باقتحام اسوار الموت التي اقامتها اسرائيل من حول تلك الارض ليثاروا لعشرين سنة من التشرد والقهر ولآلاف القتلى والمقدسات وطن، فهذا تخريب وقتل ، وليس من المنطق في شيء !

المنطق ان تتبجح الصهيونية انها « حررت وطنا » مزعوما مرت به وهي مجرد جماعة بدوية ، في ظلمات التاريخ وبمساعدة الاستعمار الذي كان ينوء به آنذاك ثلاثة ارباع العالم وليس العرب وحدهم .اما ان يقوم الفلسطينيون بالخطوات الاولى لاسترجاع وطنهم الذي لا يستطيع ان ينكر وجودهم المستمر فيه ناكر ، ولا يجحد حقهم فيه جاحد وبعد عشرين سنة فقط من اغتصابه ، فهذا ليس بمنطق !

فهل اخذت الصهيونية تتمتع بمزايا الجهل الذي ما زالت تصم به الزعماء العرب ؟ اذا كانت هي قد صارت دولة بعمليات ارهابية وسمت ذلك بطولة خارقة ، فكيف تستكبر ان تموت بنفس العمليات التي كفلت لها عشرين سنة من الحياة القلقة ! اننا لا نطمئن الى ان اسرائيل اخذت تخطئ، فهي موقنة بانها مضطرة الى هذا الخطا ،ولكنها تحاول ان تجعل هذا الخطا فينا نحن ، وان تلزمنا اياه بالترديد والتكرار . وما تحاوله اسرائيل بالنسبة للشعب العربي عامة بالفصل بينه وبين الزعامة الحاكمة ، تحاوله بالنسبة للفلسطينيين خاصة بالفصل بينه وبين زعامته هو من جهة ، ومن جهة ثانية بالفصل بينه وبين الزعامة العربية كلها . وكان القضية كلها قضية متزعمين و« متطاحنين » على الزعامة ولا شيء آخر . وهذه افدح مغالطة يهم اسرائيل ان نبقى منشغلين بها ، وان تحول هي بها كل شيء عن وجهه الصحيح .

التادب الصهيوني :

ما تزال اسرائيل ، وحسب خطة نفسية مدروسة ورغم وقوفها بالقضية عند حد الزعامة ، تحرص ان لا تقول كلمة بذيئة صراحة في اي حاكم عربي ، وبخاصة في نشرات اذاعتها الاخبارية . وقلما تورد اسم حاكم الا مسبوقا ب « السيد » او الرئيس او الملك ، جدا كان او تهكما ، مقابل ما لا تزال تجود عليها به بعض الاذاعات العربية من نعوت « دويلة العصابات » و« الملقب بوزير خارجية الصهاينة » الخ .. ولكن هذا التادب الذي التزمته تجاه الزعامة ، وموقفها منها معروف لم تلتزم شيئا منه تجاه الفلسطينيين ،بل سارعت الى وصمهم بالمخربين

والقتلة والمخدوعين . فلماذا تتشبث اسرائيل بما افترضته خطأ في الزعامة العربية ، وترفض الاعتراف بما هو صحيح في الفلسطينيين؟

كما كنا وما زلنا نلحق اي عمل يستهدف بنا ضررا بالاستعمار كذلك تصر اسرائيل على الحاق أي عمل فدائي يقوم به الفلسطينيون انفسهم بالزعامة العربية . واذا كنا نحن نصيب ثلاثة ارباع الصواب بالحاقنا الاعمال المضرة بنا بالاستعمار ، فان اسرائيل تخطىء مئة بالمئة ، وهي تمعن بالحاق الاعمال الفدائية بمصالح الزعامة العربية. فما هي مقدمات هذا المنطق والتعقل والواقع عند الصهيونية ؟ لان بعض الزعماء العرب يساعدون الفدائيين صار العمل الفدائي لحسابهم ؟ لانهم يتخذون ارض بعض الاقطار العربية منطلقا لعملياتهم صارت عملياتهم لحساب زعماء هذه الاقطار ؟ لماذا تغالط اسرائيل هذه المغالطة وتحاول ان تنسى الفلسطينيين بمدة عشرين سنة فقط ، وتحمل الفلسطينيين على ان ينسوا انفسهم وبلادهم بمثل هذه السرعة ،وتجهد أن تقنع العالم بان لا وجود للفلسطينيين ولا شأن لهم !

الصهيونية نفسها ألم تعتمد على الاستعمار البريطاني ؟ ألم تأخذ منه الصك والسلاح والحماية والرعاية ؟ وظلت تمتص البرتقالة البريطانية حتى تمزقت قشرتها ونصل لونها . ثم تحولت الى ((شركة ضمان)) الاستعمار الكبرى ، اميريكا . وهي الآن تعيش عسكريا وسياسيا واقتصاديا على امتصاص هذه البرتقالة الاميركية . وستظل تمتصها حتى تستفيق شركة الضمان على افلاسها كما استفاقت بريطانيا . والصهيونية لا تمت بصلة رحم الى بريطانيا ولا الى اميركا ومع هذا فقد جهدتا ولا تزالان تجهدان بمساعدتها وضمان بقائها . فكيف ينفي منطق الصهيونية انها لا تعمل لحساب الاستعمار ؟ كيف لا يفتح ذلك المنطق عيني الصهيونية ، وليس عقلها ، الى ان الفلسطينيين عرب والمنطقة المحيطة بهم عربية ، ومن المنطق والواقع والتعقل ان يساعدهم العرب ، شعبا وحكومات . وهم اذ يفعلون ذلك فانهم لا يقومون الا ببعض الواجب تجاه الاشقاء المقهورين ، وتجاه رفاق التاريخ والمصير .. لا يقومون الا بما يمكن ان يمنعها من ان تفعل بكل العرب ما فعلته بالفلسطينيين ، وبكل الارض العربية مثل ما فعلت بفلسطين . اسرائيل ترفض منطق العرب فيها أنها ، في هذه المنطقة ، أسلوب آخر من اساليب الاستعمار ، وهي التي قامت على اسس الاستعمار ولا تزال مرعية بعنايته ومحمية بسلاحه وتعيش على أمواله ، اما ان يساعد العرب اشقاءهم الفلسطينيين ، فهذا ما تحمل مسؤوليته الحكام والشعب معا ، وتوعد الاحتلال وتهدد بالتدمير .مرة اخرى منطق صهيوني !

رؤوس الاموال ورؤوس الشعوب :

اذا ما اعتبرنا ((بروتوكولات حكماء صهيون)) مجرد مصدر هستيري عابث ، الفت حديثا كما ألفت التوراة قديما ،اذا ما اعتبرناها مجرد مصدر جانبي لجموح فكرة ((شعب الله المختار)) ، واذا ما اعتبرنا سيطرة الصهيونية على وسائل الاعلام الغربي اطلاقا ، وسيطرتها الكلية او النسبية على رؤوس الاموال في مناطق متلاصقة او متقطعة من العالم ، فهل هذا يعني ان السيطرة على رؤوس الشعوب لا تختلف عن السيطرة على وسائل الاعلام ورؤوس الاموال ؟

صحيح ان الانسان لا يقاد من ناصيته بقدر ما يقاد من فكره ومن معدته . فاذا احتلت رأسه فكرة ما افقدته الاحساس بالنار اذا ما حرق بها تعذيبا لايمانه بتلك الفكرة . واذا ما احتلت مصادر ملء معدته رفع يديه واعلن الاستسلام . ولكن الاصح من هذا ان للانسان جولة اخيرة مع من يهدد مصيره . اصح من هذا ان الانسان تشعيبيا لكل فكرة تطرح للتداول . حتى الاديان ، سماوية او ارضية ، بدأت فكرة واحدة ولكنها ــ رغم قداستها ــ لم تلبث ان تشعبت ولونها فكر الانسان الفردي كما يلون لعاب فمه لقمة الطعام بالوانه الخاصة . والاحزاب المعاصرة كم من حزب منها بدأ خلية واحدة ، ثم انشطر الى عشرات الخلايا مقتربة من الاصل او مبتعدة عنه . هذا مما يقنعنا بان السيطرة على رؤوس الشعوب ليست مضمونة الى مدى بعيد ، لا بواسطة الفكر ولا بواسطة رؤوس الاموال حتى ولا بالقوة مهما كانت هذه القوة غاشمة او علمية . فلماذا ــ اذا ــ تضرب اسرائيل بهذا العنف الاحمق؟ هل اطمأنت الى اننا صرنا قشا لا يرد على نارها الا بان يلتهب،والى ان العالم صار في يدها عجينة تصنع بها ما تشاء ؟ ولماذا ترعد مهددة هذه المنطقة بالتدمير وشعبها بالابادة ؟

نحن واليهود :

هذا الطيش الذي تضربنا به اسرائيل هل هو انتقام لماض، امهو من بوادر تنفيذ اول خطوة من اقامة ((دولة صهيون)) العالمية ؟ قبل الاجابة عن الشق الاول من هذا السؤال لا بد لنا ، للامانة من ان نستعرض بايجاز علاقات العرب باليهود قبل أن تكون الصهيونية والسنة ١٩٤٨ .

اننا ، اذا ما استثنينا موقف بني النضير من اول بادرة لجعل العرب امة ودولة حضارية بقيادة محمد الرسول ، لا نعود نجد حدثا بارزا قام به اليهود علانية ضد العرب ، ولا حادثة مدبرة او عفوية ، قام بها العرب ضد اليهود . بل ان اليهود ، كائنة دوافعهم ما كانت ، اخذوا يساهمون باغناء التراث العربي الاسلامي الثقافي كما ساهم بذلك افراد يضيق بهم الحصر من امم اخرى ربطتها بالعرب رابطة الدين والحضارة . والحكام العرب المسلمون استعانوا باكثر من يهودي وحتى على مستوى وزارة في شؤون الحكم ، كما استعانوا ب ((خبراء)) او ((فنيين)) حسب تعبير هذا العصر ، من الفرس والروم في دواوين الدولة .

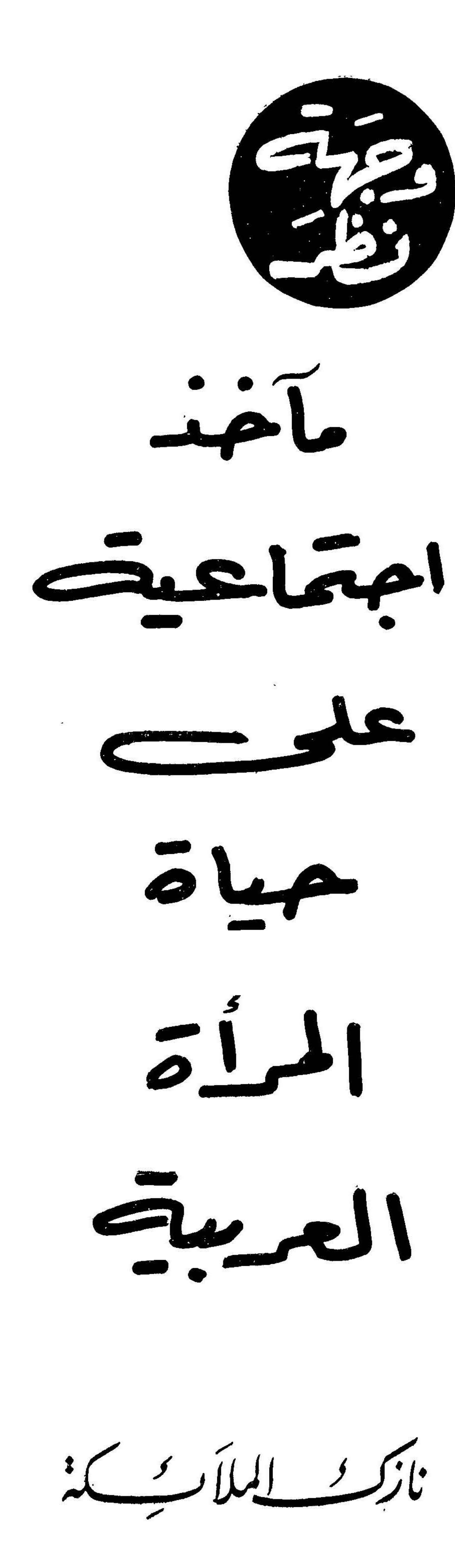
وكانت العصور الحديثة .. وقامت بعض الشعوب تستنهض هممها الكابية بالفكرة القومية وبعضها بوسائل اخرى ، حتى الرمق الاخير من القرن التاسع عشر ، فاذا بالصهيونية الفضة توجه انظار اليهود الى فلسطين لاقامة دولة لهم فيها . واذا نحن ، وبعد خمسين سنة فقط ، في معركة مصير مع الصهيونية على مستوى دولة . واذا نحن لا نكاد نتنفس الصعداء من مقارعة الاستعمار الغربي حتى نشرق من جديد بالصهيونية ، وهي تحتل قلب ارضنا مستعينة بالاستعمار نفسه ومطبقة لما فات الاستعمار ان يطبقه من الوسائل الشنيعة ، ولا سند لها في كل ذلك الا مرتكزات يؤخذ حتى المجنون التفوه بها .

الوهم القومي والحق التاريخي :

وفي الاجابة عن الشق الثاني من السؤال ، نترك مناقشة الحق التاريخي لليهود في فلسطين ، حيث يزعمون انه كان لهم في لحظة من لحظات الزمان مملكة في جزء من تلك الارض . لقد كان اليهود شرذمة من جملة الشراذم التي مرت في قسم من تلك المنطقة ، وكما هم اليوم شراذم في بقاع من العالم الحالي . فهل هذا الوجود الحالي يبيح لاحفادهم ، بعد آلاف السنين ان يدعوا حق امتلاك تلك البقاع لان اسلافهم كانوا فيها ذات مرة !

اذا كان لبقايا الناس حق المطالبة بحيث مر اسلاف لهم ، فانه ليحق لورثة الانظمة الرومانية أن يطالبوا الان وفي كل آن ، بحق العودة الى تركيا حيث كانت بيزنطة امبراطورية لمئات السنين . كما يحق لليونان اقامة دول في المناطق التي انساح فيها اسلافهم مع الاسكندر المقدوني . ولنا ، نحن العرب ، ان نطالب باسبانيا وبفارس حيث اقمنا قرونا . هذا .. مع الفارق الكبير في وضوح تاريخ الرومان واليونان والعرب وغموض تاريخ اليهود واضطرابه واختلاطه في جزء صغير من فلسطين ، ومع عدم نسيان القول ان ابراهيم الخليل الذي يدعونه قد

ــ التتمة على الصفحة ــ ٦٥ ــ



ليست هذه المحاضرة ★ دراسة في فلسفة الحياة الاجتماعية وانما هي بحث في المدلولات الفكرية لحياة المرأة حاولت فيه ان أحلل الازياء الى مضمونها الروحي وأربطه بذهن المرأة وحياتها الاجتماعية والقومية . ولقد يبدو ، أول وهلة،ان الزي الانساني عرض خارجي لا يرتبط بأعماق الانسان ، غير انني لست من أنصار هذا المذهب ، وانما أدين بان كل مظهر من حياة الانسان مرتبط بصميم روحه ، فالحياة مترابطة موحدة لا يمكن تجزئتها. والملبس يؤثر في العقل ويحدث تغييرا في روح الانسان . وعندما تختار المرأة العربية اليوم لنفسها ان تكون متبرجة مبالغة في الاناقة ، فهي بذلك تصدر على ذهنها وروحها حكما قهارا يزج بها في ظلمات فلسفية وفكرية لا حصر لها . وابرز هذه المسالك المظلمة انها تخلي حياة المرأة من فكرة الحرية اخلاء تاما .

ولكي نوضح معنى حكمنا هذا لابد لنا ان نقول بدء بأن هناك خطأ عاما في تعريفنا للحرية ، فنحن ننسب اليها مواقف ليست منها في شيء مثل ان نقول ان المرأة قد تحررت ونريد بذلك انها اصبحت قادرة على الخروج والدراسة في الجامعة والعمل في وظائف الدولة . فان هذا الحكم يتغافل عن اصناف العبوديات التي تعشش في روح المرأة وتسيطر على عقلها . ان فتاة الجامعة والوظيفة ما زالت تحمل في نفسها نظرة الازدراء المهينة التي كان المجتمع يحدجها بها فهي أسيرة وان حسبت انها حرة . اما التعريف الحق للحرية في نظرنا فهو سقوط القيود والاغلال عن الذهن الانساني بحيث يقوى على فرض نظرة جديدة أصيلة الى الاشياء كلها ، ويستطيع ان يغيرها وفق حاجاته الروحية . فاذا وجد خطأ او قبحا أو ضررا استطاع ان يحتج عليه ويرفضه ويغيره الى ما ينفع الحياة الانسانية ويخصبها ويجملها . والمرأة ، مع الاسف، ما زالت تنقصها هذه النظرة الحرة الى الاشياء .

لقد تركت الشخصيات النسوية في كتاب (الف ليلة وليلة)نموذجا سيئا للمرأة العربية ، هو نموذج الجارية التي لا يهمها الا لباسها ولا ترى في نفسها أكثر من متعة للرجل تعيش بغرائزها وعليها ان تكون جميلة وان تسلي الرجل وتطهو له الطعام السائغ . وهذا النموذج ما زال المتحكم في حياة المرأة العربية لم يغيره خروجها الى الحياة العامة قطعا ، وكل ما تغير فيها أقوالها . فقد بتنا نسمعها تتحدث عن دور اجتماعي عظيم تقوم به ، وخوض لمختلف مجالات العمل والبناء ، وتحرر من عبودية القرون المظلمة. غير ان صميم حياة المرأة يكذب هذا ويبطل أثره . أن في وجودها تجزيئية واضحة تفرق بين القول والعمل ، بين النية والتطبيق ، بين الفكر والحياة . وما زالت المرأة تحيا بعواطفها وغرائزها وحدها ، منحها الله الذكاء والعقل والابداع فلم تستعمل منها شيئا وبقيت أشبه بدمية مثلها

★ القيت في الموسم الثقافي الرابع لجامعة البصرة .

الاعلى الاناقة المسرفة ، وبذلك جحدت عطاء ربها وجحدت المجتمع وجحدت ذاتها .

ولعل خير بداية نفتتح بها دراستنا لحياة المرأة العربية ان ننظر في المجلات التي تسمي نفسها نسائية فماذا سنجد فيها ؟ انها في أغلب الحالات مجلات أزياء لا تجعل للمرأة هدفا أبعد من ملابسها وحقائبها وأحذيتها. وهذه المجلات تعامل المرأة الحديثة معاملة جواري ألف ليلة فتكتب لهن أمثال هذه العناوين المهينة : « سيدتي : ماذا تلبسين في رحلة بحرية ؟ » أو « فساتين للصباح » أو « تسريحات للشعر بعد الظهر » أو « بأي ملابس تظهرين في حفلة العشاء ؟ » فما تلبسه المرأة في الصباح يختلف عما تلبسه في المساء . وما يلبس في حفلات الرياضة يختلف عما يلبس بعد الظهر . وثياب المنزل تختلف عن ثياب الخروج . ولضفاف البحر ملابس خاصة . وعلى المرأة المتوسطة ان تكون لها ملابس لكل هذه المناسبات وان يكون لها اكثر من واحد لتستطيع التغيير والتبديل ... ولكل ثوب عقد خاص به وأقراط واحمر شفاه ينسجم معه وحذاء وحقيبة . واختصارا للموضوع تجد المرأة انها اذا أرادت ان تكون أنيقة كما تدعوها المجلات والاذاعات فسوف تجد ان الحياة كلها لا تكفي للاناقة .

وما المدلول الفكري الذي يختفي وراء هذا ؟ ان معناه ان الجمال الانساني أصبح من التكلف والتعقيد بحيث لا يمكن تحقيقه الا بتبديد الوقت وهدر الطاقة وقتل الروح . ولا ينبغي ان تسمح المرأة الحرة ان يجعلوا جمالها كلفة روحية وعقلية باهظة تنفق لها من حساب انسانيتها وتفقد في سبيلها حريتها وكرامتها . والواقع ان النظرة التي تجعل اكتمال جمال المرأة بالملابس الكثيرة نظرة تجعل الجمال مرادفا للاناقة ، وهما في واقع الامر ليسا مترادفين مطلقا . وما الجمال وما الاناقة بالمعنى الروحي ؟ أما الجمال فهو ملك للوردة الحمراء المشتعلة بالحرارة واللون والخصوبة على غصنها اللدن . والوردة لا تتأنق . الجمال ملك للفراشة التي وهبها الله الوانها ولم تضع على شفتيها أحمر الشفاه ، ولم تزجج حاجبيها بالقلم الاسود . الجمال ملك لفتاة ذكية العينين بسيطة المظهر يشع وجهها عطفا وحنانا وكأنها تريد ان تحتضن الوجود كله وتغمره بمشاعرها الكريمة . وهذا الجمال المرهف العذب مبذول زهيد الثمن تملكه كل فتاة دون ان تضيع وقتها في أسواق الملابس وعند الخياطة الجاهلة . انه جمال ينبع من الروح الكبيرة المستوعبة والذهن الحر المرن والقلب النابض الرقيق . وهو جمال الخلق الكريم والعذوبة والخشوع لله والنزاهة وكبر النفس . وهذا الجمال لا علاقة له بالملابس والحلاق لانه يتألق على وجه كريم وعيون حنون معطاء ، وهو يلمع على الشعر البسيط المسترسل الذي لا يهينه الحلاق بالعبث به . هذا هو الجمال فتعريفه انه البساطة الانسانية والفطرة كما خلقها الله حية روحية متفتحة .

واما التأنق فما اتفهه وما أشد اذلاله لروح الانسان. التأنق هو الوسائل المصطنعة التي يظنونها تؤدي الى طريق الجمال . أو لنقل انه الجمال المزيف المصنوع بالوسائل الآلية وسواها . فبدلا من ان تعتمد الفتاة على مرونة ذهنها وسعة ثقافتها وجمال روحها ورقة ابتسامتها نجدها تعتمد على كثرة ملابسها والتصنع في شعرها . وبدلا من ان توسع آفاق فكرها بالمعرفة والعلم تلجأ الى التبرج والتفنج والملابس القصيرة الضيقة التي تبرز أعضاء الجسم كما تبرز أجسام الجواري في سوق النخاسين . فالتأنق شر عظيم يحيق بذهن المرأة ويقتل روحها ويذل عقلها لانه يمد مظهرها على حساب ذهنها ويكر بها الى العصور الغابرة حين كانت المرأة تباع وتشترى في قصص ألف ليلة .

وقد تظن الفتاة ان تبرجها شيء ظاهري لا يمس عقلها فهي تستطيع ان تكون حرة الفكر رغم امعانها في الاناقة واسرافها في التصنع . وهي في هذا مخطئة فان لكل عمل يقوم به الانسان آثارا فكرية وروحية بعيدة المدى. ان أعمالنا تؤثر في عقولنا وأرواحنا وتعيد صياغتها، فاذا لم يتحكم العقل في سلوكنا تحكم سلوكنا في عقلنا. واول نتائج هذا التحكم ان التأنق يذل المرأة ويقتل كبرياءها. واساس هذا الاذلال ان اقامة أسس الاناقة على كثرة الملابس وعلى الحلاق يشعر المرأة بان الجمال هو الشيء الذي ينقصها لا الشيء الذي تملكه . فاذا أرادت ان تكون جميلة وجب عليها ان تكافح في سبيل ذلك فتعمل ليل نهار في استكمال ذاتها الناقصة . ومعنى ذلك ان مبدأ التأنق يقوم بدء على الاقرار بان المرأة لا تملك جمالا وانما هي ناقصة وعليها ان تصنع الجمال صنعا لتجتذب عيون الرجل . فالتأنق اكمال لنقص بخلاف الجمال الذي هو فيض من السحر والعذوبة يطفح ويتدفق ويغمر الحياة كلها . التأنق نقص والجمال فيض ، وذلك هو الفرق الفلسفي بين حالتين تفقد المرأة في أولاهما كل شيء وتضطر الى الكفاح. وتمنح في الثانية خصبا وعذوبة وكمالا . وفي ظل الاناقة يصبح الجمال الفطري عاطلا من القيمة ، فان الجميلة كالقبيحة مضطرة الى ان تكون أنيقة وان تضيع وقتها في هذه التوافه . فكم تخسر المرأة حين تطرح الجمال وتتمسك بالاناقة .

وطريق الاناقة ، كما يعلم كل انسان ، طويل مديد كله عقبات . فأول ما تحتاج اليه المرأة في ذلك ان يكون لها وفر من المال يفيض عن حاجتها . فالغنى المتوسط شرط من شروط التأنق . اما الجمال فكلنا يعرفه فقيرا متواضعا لا يملك شيئا . انه منحة الطبيعة المعطاء للفتاة الرقيقة البسيطة . والمرأة الانيقة يجب ان تملك ثيابا كثيرة وملحقات لا حصر لها. ولا يخفى عليكم ان مؤسسات الازياء قد عقدت هذه الاشياء تعقيدا مسرفا . فالحرص على أبسط مستوى في هذا يقتضي مالا كثيرا . ومن ثم فان مبدأ التأنق حين يصبح هو القانون النافذ في

قرأت العدد الماضي من "الآداب"



بقلم عزيز السيد جاسم

* * *

يتناول الدكتور محمد النويهي ، في القسم الثاني من مقالته (والان ... الى الثورة الفكرية) : الاخلاق وحرية الفكر ، والوطنية وحرية الفكر ،وحرية الفكر وحرية العمل. حيث يكون القاسم المشترك في كل ذلك هو حرية الفكر ، وصلاتها ، وانعكاساتها ، وتجسدها في الواقع العملي ، الاخلاقي والوطني والعمل .

ففي (الاخلاق وحرية الفكر) يشرح الكاتب تطور الاخلاق والنظرة الاخلاقية حسب تطور الواقع المادي متوصلا الى استنتاج علمي يؤكد ان القيم الاخلاقية كثيراً ما تتحول الى عائق امام نهوض المجتمع وامام الفكر الثوري فيما اذا بقيت نفسها ، قيم المرحلة السابقة المهيمنة على مرحلة جديدة . يقول الكاتب : (ونفهم بنوع خاص مدى الصراع الذي سيضطر اليه مفكرو امتنا حين يمضون في ثورتهم الفكرية ، فان امامهم ميراثا ثقيلا متراكما مخلطا من القيم الجاهلية ،والقيم الاقطاعية ، والقيم الرأسمالية ، التي تقوم عقبة وعرة دون المجتمع الجديد الذي نريد ان نبنيه ونريد ان نؤسسه على النظام الاشتراكي في شؤون المادة والفكر) .

ثم يضع الكاتب يده على نحو واع على عدم منطقية التصدي للقيم الجديدة في الاخلاق وعدم كبح جماح الرأي الجديد بالاستناد الى منظورات اخلاقية تقليدية . والكاتب بذلك وفي هذا الجزء من مقالته يعتمد الماركسية في التحليل والاستنتاج حيث يؤكد على العلاقة بين (البناء التحتاني) للمجتمع - اي اساسه المادي - وبين (البناء الفوقاني) . وما الاخلاق الا الجزء الواضح من التركيب الفوقاني الذي ينبغي ان تنسحب عليه التغيرات المادية وتفرض عليه وضعا جديدا . ولكون الامة العربية تجتاز مرحلة جديدة ، فهي غير متمكنة من الاجتياز وتثبيت شروط ومواصفات المعاصرة في تكوينها وتحركها بواسطة ادوات قديمة . فالثورة العربية العصرية تتطلب بالضرورة تثوير القيم الاخلاقية حتى تكون قوة ديناميكية دافعة لا قوة كابحة .

ثم ينتقل الكاتب ليعالج مسألة جديدة هي (الوطنية وحرية الفكر) محاولا تقديم تفسير لمعنى الوطنية وكيف خضع المفهوم لتلاعبات كثيرة الى الحد الذي باتت فيه تهمة (الخيانة الوطنية) توجه ضد (الوطني) . ويطرح الدكتور نوعا مبسطا من النقد الذاتي باعتقاده ان الوطنية الحقيقية لا تعني بذكر خصالنا بل يجب ان تذكر بدون مواربة نقاط ضعفنا ، (ذلك ان الاعتراف بالنقص هو الخطوة الاولى التي لا بد منها نحو محاولة العلاج . فالمفكر الذي يقبل على سيئاتنا فيشرحها تشريحا تام المصارحة وان آلم واوجع ، خير لنا الف مرة من خطيب وشاعر وكاتب يرضي غرورنا ويتملق عواطفنا ..) ، حسبما ذكر الكاتب.

وفي الواقع نستطيع ان نرصد في هذا الجزء من المقالة ميزة الكاتب باهتماماته التبسيطية والعمومية التي تبتعد تدريجيا عن العمق الايديولوجي ، فهو اذ لا يشرح مدلول الوطنية ، وكيف تطور هذا المدلول في العقد السابع من القرن العشرين ، فانه يكتفي بالحديث عن (النقص) او (العلاج) متحولا الى (اخلاقي) وضعي يتعاطف مع : (ذلك الاول هو الصديق الصدوق والناصح الامين مهما تؤلمنا صراحته) ويرفض : (هذا الثاني مهما يشعرنا بالرضى والسعادة والاطمئنان حري به ان يكون عدوا في ثياب صديق ، او هو على اقل تقدير صديق جاهل يسرنا اكثر بكثير مما يضرنا العدو العاقل) .

وما هذه الا انتقالة من العلمية السابقة في (الاخلاق وحرية الفكر) الى الوعظية الاخلاقية والتحليل اللاعلمي بالتركيز على تفسيرات بدائية مسطحة الا مظهر من مظاهر الارتكان الى اخلاقية قديمة سبق ان ادانها الكاتب . فالتحدث عن (الصديق) و (العدو) هو نفسه قول الشاعر القديم (صديقي من يرد الشر عني ويرمي بالعداوة من رماني) . والانشغال باكتشاف (الصديق) و (العدو) ، والعاقل وغير العاقل .. الخ هو مسألة فردية من الممكن ان تجد تفسيرها في الواقع اليومي ، في علاقات الناس الفردية والمحدودة دون ان ترقى الى مستوى التفسير العلمي ، الموضوعي لاحوال المجتمع ، ودون ان تقوى على تقديم اي حل واع للمشكلات الاجتماعية . ففيما اذا توجهنا نحو البحث عن (الصديق) و(العدو) بين العمال والفلاحين لكان هناك فشل كبير في التعبئة الجماهيرية . حيث يتقدم الجانب الاخلاقي الذي سبق ان اشار الكاتب الى تبعيته للجانب المادي ، وتسقط شروط البناء الاجتماعي الثوري المتكشف سياسيا .

وانطلاقا من وعينا لظاهرة ارتداد الكاتب على نفسه في الجزء المتعلق بالوطنية ، فان هذا الارتداد يقوده الى موضوعات اخرى مناهضة لابسط مقومات الفكر الثوري العملي . اذ انه يطرح رأيا فريداً من نوعه بتحميله المثقفين العرب وزر الهزيمة الحزيرانية !. فيقول : (ويؤسفني الان ان اضيف اننا نحن العرب لم نمض في المرحلة التي بداها ذلك الحديث شوطا طويلا . فان سئلت على من يقع وزر هذا التقصير اجبت بدون تردد : على مثقفينا المنوط بأعناقهم القيام بالثورة الفكرية . فقد كان عليهم ان يتخذوا من ذلك الحديث قدوة صالحة وفرصة ذهبية يستغلونها للتغلغل وراء تلك الاخطاء والنواقص التي لخصها الرئيس جمال عبد الناصر حتى يستكشفوا اسبابها الدفينة في تاريخنا واوضاعنا وعقائدنا وفيمنا وعقدنا النفسية العميقة . ولو فعلوا لربما تجنبنا التردي في هزيمة اشنع ومصاب افدح ، هو حرب الايام الستة في يونيه ١٩٦٧ . بهذا نعود الى ما اثرته في المقالة الاولى من هذه المقالات . ومن كلامي هذا يتجلى للقارىء انني اوقع المسؤولية الاولى في تلك الهزيمة القاسية على كاهل المثقفين العرب) .

ان الكاتب يتناسى شيئا جوهريا ، ولربما لغرض في نفسه ، هو ان سبب الفشل كان بالدرجة الاولى فشل الانظمة السياسية داخليا وخارجيا . فحتى الحكومات العربية الوطنية كانت حكومات غير جماهيرية ، غير ثورية ، غير ديمقراطية . والمثقف ليس مخلوقا الهيا بل هو انسان يتنفس في الاجواء تلك ، فهو نفسه معرض للمضايقة والسجن والتفتيش حتى يمنع عن اداء دوره . ولكن الاساسي هو ان دور المثقف هو جزء من دور الجماهير الكادحة . فامتثال الحكم لارادة العمال والفلاحين هو قوة الحكم . وهو قوة دور المثقف الذي يمارس واجباته من خلال الواجبات النضالية للكادحين .

اما القسم الاخير (حرية الفكر وحرية العمل) فهو لا يخرج عن لغة التخاطب اليومي وموضوعاته . حيث يكتشف الكاتب ما هو مكتشف في شوارعنا ومقاهينا ثم يلجأ الى التعليم ويتحدث بلغة (فان لمجتمعنا علينا ان نطيع نظمه وقوانينه وان نلتزم بممارساته ما دامت مفروضة)

- التتمة على الصفحة - ٩٤ -

القصائد

بقلم خالد علي مصطفى

***

تثير اغلب قصائد العدد الماضي من الآداب ـ عدا شعر القاسم ودرويش ـ سؤالا طالما تردد في الاذهان : هل الشعر هذا هو الذي يمثل الحساسية الجديدة ، والفهم الجديد لمرحلة الصمود ـ الصمود على الامل ! ـ بعد هزيمة حزيران ؟ اذا كان الجواب أن نعم ، فاننا نكون كمن لا ارضا قطع ولا ظهرا أبقى ، ويكون التخلف قد ضرب اطنابه علينا مرتين : مرة لعدم فهمنا لما جد من قيم وملابسات ، ومرة لتعاملنا ، مع الواقع ، بعقلية ما قبل الهزيمة . وليس الشعراء وحدهم هم الذين وقعوا في هذا المنزلق الخطير ، وانما كل النشريات التي تحتضن مثل هذا « الشعر » على صفحاتها ، والذي يعادل في تخلفه وبدائيته وسطحيته تلك العقلية « العثمانية » التي دخلنا بها الحرب ، وخرجنا منها عراة حتى من اللحم ، لتظهر هياكلنا العظمية وقد نخرها السوس. وهنا يصبح الشعراء واقفين ، بكل عريهم المخزي ، على قارعة الطريق يقتنصون الاحداث فقط ليزداد رصيد مناسباتهم الشعرية مناسبة جديدة ، وبعدها يخلدون الى النوم حالمين انهم قد اشعلوا حريقا كاسحا في سيرة الثورة ، ناسين انهم بذلك قد اطفأوا بقية اللهب .

لقد سقطت قصيدة علي فودة « المجد للثوار » في هذه السطحية، وجاءت نداءاتها دغدغة حسية ليست لها القدرة على الفعل . لذلك فلن نقف عندها اكثر من ذلك . ثم ، أين تقف قصيدة علي الجندي « عطشان .. يا صبايا » بهذا الطول المطوط ؟ أن روافدها تستقي من معين الذات المنهزمة التي أضاعت معالم الطريق ، حاجبة عنها الآخرين الا ما جاء فيها من نوسل لهم . ان علي الجندي يضخم صور الذات المحطمة ، ويسقطها على الاشياء من حوله ، وبين التضخم والاسقاط ، تعتري الصورة الشعرية بثور مرضية لا تجد منفذا لها سوى صراخ : اين الماء ، اين الماء ؟

ومن جهة أخرى فان « عطشان .. يا صبايا » تتعامل مع التجربة كمادة خام ، وتتراكم اجزاؤها دون نمو ، لذلك وقعت القصيدة في النثرية والسردية والرتابة بالرغم من بعض صور القصيدة التي احتال الشاعر على مسك زمامها ... كما ان التأكيد على الانفعالات النفسية ، والعواطف المنحسرة ابعد الشاعر عن النظر في تجربته من خلال المواقف الانسانية المعبرة ، واوجد نوعا من التشتت الذي لا تنتظمه رؤيا ذات بعد فكري .. لذلك ظلت القصيدة هشة متورمة ...

اما قصيدة الشاعر حسن فتح الباب « شدوان » ، فانها ظلت محصورة داخل نطاق المناسبة ، ذلك ان اهم ما يفتقده هذا الشاعر تلك القدرة التي تربط الخاص بالعام . والقصائد الوطنية اذا خلت من هذه الخاصة فانها سرعان ما تزول من الاذهان . وقصيدة « شدوان » وقعت في فخ المناسبة القاصرة المحدودة بالرغم من ان الشاعر قد اعتمد طريقة في التعبير يظن انها كفيلة بانقاذ القصيدة : هي أن جعلها على لسان الجزيرة ، وهي حيلة استهلكها الشعراء . هذا فضلا عن ان الشاعر وقع ، ايضا ، سجينا للاستعمالات الجاهزة ، والحماس الطاغي مع انه حاول ان تاتي القصيدة هادئة ، لكن صوره الاعتيادية سيطرت على جزء كبير منها .

وحين نصل الى محمود العتريس في قصيدته : « الاغنية من اجل الفرسان » فاننا نجد فخا جديدا وقع فيه الشاعر ايضا . فقد اراد الشاعر ان يوصل تجربته للقارىء عبر اظهار عجز القلم عن التعبير . والشاعر باعلانه هذه الواجهة، يكون قد اشار مباشرة الى عجز القصيدة نفسها ، ولا عبرة ، بعد ذلك لما يريد ان يقوله ، ما دام قد استنجد باسلوب قديم ردده شعراء الفترة المظلمة اكثر من غيرهم . اما عبارة محمود عتريس الشعرية ، فيبدو لي انها مستقاة مباشرة من الشاعر ابراهيم ناجي ، بخاصة في استعمال المفردات والايقاع الموسيقي . ان العجز عن توصيل التجربة ، والاتكاء على اسلوب ناجي ، جعلا من القصيدة حلما كاذبا .

وحين يأتي دور بدر توفيق ، فان الناقد يطرح على نفسه هذا السؤال ، رغم قدمه : هل يمكن للشاعر ان يكتب قصيدة جيدة باسلوب نثري ؟ يبدو ان بدر توفيق يحاول اثبات ذلك في كل الشعر الذي كتبه . وهناك بضع ملاحظات يجب ان نضعها امامنا قبل البدء بمعاملة قصيدة بدر توفيق ، وهي :

١ ـ ان العبارة النثرية في الشعر يجب ان تكون « طازجة » ، تحمل نفسها الى الاذن والذهن وكأنها تمر لاول مرة ، ومن غير ان تصطدم بحواجز العبارات النثرية الجاهزة .

٢ ـ ان تكون للعبارة النثرية دلالة تتجاوز معناها المباشر ، كي تنضوي تحت « الكناية الموسعة » ، ومن دون ان تفقد حراراتها .

٣ ـ ان تصبح القصيدة ، بتتابع ابياتها وجملها ، ذات جو خاص ، متنوع يشف عن موسيقى داخلية ايحائية ، تنقل القارىء من تركيبها النثري الى مغزاها الشعري الواسع ، بحركة تتباعد وتقترب ، كما في التاليف السيمفوني .

فهل استطاعت قصيدة بدر توفيق ان تحقق شيئا من هذا ؟

لقد وضع الشاعر لقصيدته ديكورا وزعه في اجزاء متباعدة في القصيدة ، وملأ الفراغات بالسرد وبالصور الوصفية وباطلاق الاحكام . من هنا جاءت القصيدة ذات بناء غير مدروس ، مع ان تجربتها واضحة وصورها جلية : فهي تتحدث عن شيخ مفن اعمى ، هزيل البنية ، ممتلىء بحب مصر ، ومشبع بتاريخها الطويل . اما الجو الذي يربط بين عالم الاعمى الداخلي والعالم الخارجي ، فينبىء عن روحية معذبة مقهورة ، ورغم ان هذا الشيخ يوحي بالادانة والبراءة معا ، فان همه الوحيد ان يغني حبه لمصر ولتاريخها الطويل في كل «قلاع الفكر ، وازقة الخصام»».

والقصيدة ، بعد ذلك ، تفتقر الى الاقتصاد في العبارة ، كما ان برود العبارة قد جعل اجزاء كثيرة من القصيدة تسقط في شرك النثر الاعتيادي رغم الوزن والقافية . وعندما حاول الشاعر تطعيم عباراته النثرية ، احيانا ، ببعض الاستعارات والتشبيهات ، فان عملية التطعيم هذه لم تنجح في اعلاء شأن القصيدة ، فلم تكن اكثر من بثور طفت على وجهها . ان عبارة الشاعر تختنق احيانا كثيرة تحت ثقل الزيادات التي تلحقها ، فتعطل قدرتها على النفاذ ، وتبتر الكثير من الايحاءات . من هنا تحتاج القصيدة الى تنقية واسعة لتصبح مكثفة . ولو فعل الشاعر ذلك لاعطانا شيئا جديرا بالاعتبار . وهناك نقطة لم استحسنها في موضوع القصيدة ، هي ان الشاعر اكد فيها على الاقليمية لا مبرر لها ..

اما قصيدة « حميد سعيد » « بحر الظلمات » فانها تنطلق من جو يختلف تماما عن بقية قصائد العدد الماضي من الآداب .. لقد طفت الذكرى على حميد ، ووجد نفسه امام « لعبة » (1) تتضاءل داخل الذكرى الحارة . بالامس كانت الكلمة تتحول الى فعل ، واليوم ، امام هذه اللعبة ، أخذت الكلمات تزاحم رفوف الكتب في المكتبات ، واقدام المارة في الشوارع دون ان تجد لها سندا . من خلال هذا الجو انبثقت القصيدة ، لذلك يحس الانسان امامها بالحرارة والمرارة معا ، بالكلمة ـ الفعل ، والكلمة ـ القول ، وبين الكلمتين يصبح الماضي مجرد ذكرى ، والحاضر « فراشا ساخنا للمهر .. » ومع صلابة « غرور العابرين » فان ماء « بحر الظلمات » لن يستطيع اطفاء جذوة مستعرة في القاع . ان الذكرى لا ترتبط بهذه اللعبة ، وانما :

... تدفعني الى أيامك الخضراء

اصداء من الاردن

ـ التتمة على الصفحة ـ ٩٥ ـ

---

١ ـ كتبت القصيدة في المغرب اثناء انعقاد مؤتمر ملوك ورؤساء العرب الاخير في القطر نفسه .

القصص

بقلم عبد الرحمن مجيد الربيعي

***

يضم العدد الماضي من الآداب قصتين عربيتين ، وثالثة من الادب الايطالي ، والقصتان العربيتان تتحدثان عن فلسطين وتثيران موضوعا اصبح طرحه مكرورا ـ لا سيما على صفحات الآداب ـ وهو : كيف يمكن كتابة قصة عربية ملتزمة بقضية فلسطين ولكنها لا تفقد في نفس الوقت اصالتها الفنية واضافاتها الجدية للقصة العربية ؟

وقد يصاب بالخيبة من يقرأ ما ينشر من قصص عن فلسطين فيجد ان العدد الكبير منها هو اشبه بالتحقيقات الصحفية السريعة التي يحشر فيها اسم فلسطين والفدائي باستجواب سطحي غير مؤهل لمد القضية ببعديها الانساني والفني ، وليس فيها غير الانباء (والغاية من الادب ليس توفير الانباء ، ومن أراد ذلك فليلجأ الى الصحف) على حد تعبير احد النقاد . حتى ان حشر اسم فلسطين والفدائي في القصة اصبح جواز مرور لنشر العمل الادبي ولجأ اليه عدد كبير من المبتدئين الذين لم يحلموا حتى بأن ترى كتاباتهم النور على صفحات الصحف المحلية الضيقة الانتشار .

ولا استطيع هنا ان اناقش الاسباب كاملة ، ولكن واحدا منها هو كوننا ما زلنا عاطفيين حتى في نضالنا ، ولا نريد ان نملك تلك المواجهة العنيفة مع البنيان الكامل للمحيط والذات من أجل هدم سدود الحذر والانغلاق التي كبلتنا طويلا .

وفي الادب تسحرنا الكلمة التي تضرب في اعماقنا بحلم وديع ناعم يعلمها الخدر لا الثورة والتخطي .

ان الفدائي مثلا بأطلاقاته قد هدم برود الاغنية الناعمة المستسلمة التي كانت تحلم بفلسطين والبيارات والزيتون حلم الاطفال بالدمى ، وبأننا سنعود ، ولكن كيف سنعود ؟ ان الجواب الواضح هو اننا لن نعود على جناح فراشة ، ولكن بثورة مقاتل ملثم انشقت عنه كل الارض العربية ، وكانت اطلاقته الاولى بداية فجر الخلاص .

ولكن من المؤسف ان النقد الادبي العربي حتى الآن لم يستطع القيام بعملية غربلة جريئة لكل ما كتب وما سيكتب وتحديد هوية الادب الثوري وابعاده . وسط هذه الفورة الرهيبة من الكتابات .

ان نظرة واحدة للقصتين العربيتين المنشورتين في عدد الآداب الماضي تؤكد ما دعا اليه بعض النقاد الواعين ولا سيما غائب طعمة فرمان في مقالة له نشرتها الآداب في اعدادها الماضية . ان نكسة حزيران علمتنا ان الخطأ كان موجودا في كل جوانب حياتنا وان الادب الذي يحمل عنصري التغيير والتخطي هو بجانب فلسطين والثورة العربية كلها اكثر من نشيد سلبي تتمته شفة لا تعرف الا الكلام حتى ولو لم يكن لكلمتي فلسطين او الفدائي سجل فيه ، ومن هنا فأننا مدعوون جميعا لانقاذ الادب العربي الجديد من حمى التحقيقات الصحفية وضرورة البحث بتعمق ووعي عن العمل القصصي الذي يرقى لمستوى النموذج المطلوب والذي يحمل سمات الخلود والبقاء ، والذي نستطيع به ان نرفع قضيتنا الى مستواها الملائم من وجدان الشعوب ونضالاتها .

وقد تبدو المسألة صعبة جدا ، ولكن من المؤكد ان المسؤولية تتطلب من المعنيين تأدية هذه المهمة على اتم صورة من اجل الوقوف بحزم امام كل التمويهات المائعة ، ولعل التحدث عنها بأسهاب لا يمكن استكماله بعجالة .

« نفق الى النور »

القصة الاولى « نفق الى النور » لطارق عون الله وهو كاتب اقرأ له لاول مرة ، والقصة هذه مكتوبة بطريقة مباشرة وصحفية على الرغم من ان كاتبها قد جزأها الى مقاطع متتابعة احدها عن حالة مثول البطل في الفراش مع امرأة واخرى استرجاع لماضي هذا البطل وكيفية خروجه من فلسطين . وبالتالي لا تقدم لنا القصة امتدادا ابعد من احداثها المباشرة ، اذ نخرج منها ونحن نعلم بأن البطل فلسطيني خرج من وطنه وجاء الى اوربا ليطفىء لهيبه بين أفخاذ العاهرات .

ان القصة لا تقدم اكثر من هذا ، وهذه مسألة مكرورة اذ لا يمكن تقديم هذه الافعال والحياة الطويلة ضمن قصة قصيرة تسرد كل الوقائع بمباشرة وسطحية غير متوفر فيها جانب الاختيار الى الفعل الذي تبنى عليه بتركيز وتخثر وترميز .

ان البطل يدعو المرأة بالعاهرة وهي تظن الكلمة مديحا فتضحك لها ، اذ هي ترغب في الخضوع للرجل الذي يطيق ارضاء صرخة جسدها ، وهذه ليست مسألة جديدة في القصة العربية ، وهي وليدة تلك الموجة العارمة التي اكتسحتها في مرحلة الخمسينات اثر اطلاع الشباب العربي لاول مرة على أعمال الوجوديين الفرنسيين . وقد تجلت حالة الاحتدام بالجنس والثورة معا في اعمال مطاع صفدي لا سيما في روايته « ثائر محترف » حيث نرى بطلها ثوريا ودون جوانا في نفس الوقت ، ولو حاولنا دراسة سلوكية هذا البطل لوجدناها حالة مرضية ناجمة عن نرجسية قائمة .

اذ ان الثائر رغم حاجته للجنس فهو لا يجعل منه الغاية وانما يمارسه كحق طبيعي في الحياة تماما كالطعام والهواء ، وتحضرني هنا كلمة للينين (1) لا اتذكر نصها ولكنها تعني ان الثائر ليس دون جوانا ولكنه ليس بعيدا عن ممارسة الجنس عند الحاجة في الوقت نفسه .

واذا كان لهذه الحالة مبرراتها في « ثائر محترف » انطلاقا من الزمن الذي كتبت فيه وايديولوجية الكاتب فهي لا تملك مبرراتها ابدا في عمل ادبي جديد ينشد من ورائه مؤلفه تقديم مساهمته في حركة الادب العربي الملتزم .

اما لغة القصة فهي صحفية وسريعة كما أسلفت ، وفي الحوار لم يقم الكاتب بعملية تنقية وشذب فجاء اشبه بالتسجيل السريع الذي يحيل المعنى الى استجواب مكرور ليست فيه حرارة وضع البطل المنفي عن ارضه ووطنه ، حيث جاء هذا الحوار معلنا عن سلبية البطل واظهره مجرد هارب يتسكع ، يريد وأد ايامه بمعاشرة البغايا واطلاق المداعبات البائخة ، وها هو البطل يجسد هذه السلبية بعد مغادرته غرفة البغي التي كان معها حيث يصفه الكاتب : (قبلها وخرج من البيت ، وحمله الشارع الطويل ، الى لا مكان ، وبدأت تحمله الشوارع الاخرى ، وتقذفه ، كان يسرع في مشيته ، ثم اصبح يمشي ببطء ، ثم وجد نفسه يزحف ، ويزحف ، الى اين ؟ الى اين يمشي ؟) .

ان قصة « نفق الى النور » من وجهة نظري هي النموذج الذي يجسد كل السرعة والافتعال في القصة العربية التي تتحدث عن اعظم قضية تواجه المواطنين العرب لا المثقفين وحدهم بسطحية ساذجة ، وتضعنا امام مهمة واحدة هي ان نتعامل بحذر مع القصص التي تتحدث عن فلسطين ، وان لا ندفع للنشر بأية قصة لمجرد انها تحمل اسم فلسطين لان هذا من شأنه أن يخلق مدا طائشا يسيء الى القضية اكثر من كونه بجانبها . ويضعنا امام تساؤل صعب حول الشعور بمسؤولية العمل وفداحة الكتابة عن فلسطين بطريقة تلائم مستواها الوجداني ، انها لمسألة رهيبة جدا تحتاج الى مليون نقطة توقف قبل الولوج الى اعماقها .

« الحلبة والمرآة »

القصة العربية الثانية لمحمد الحسناوي وعنوانها « الحلبة والمرآة » .

ـ التتمة على الصفحة ـ ٩٥ ـ

1 ـ انظر الاشتراكية والمرأة ـ دار الآداب ـ ترجمة جورج طرابيشي .

جراح من الخندق الأول

« اصدقائي الشعراء ، نحن ندعوكم – بعد اختناق القمر – الى مشوار في سفوح الجولان .. »

« تكريس »

وطني يقلدني نهاره .
يا خيبة الزمن المكلس في طريقي
لا تنبحي عصبي . مصير دمي حجاره .
وانا اغاوي فيزياء الطين، تنهرني العباره ،
يهتز عبر فمي ، تنطف عروقي .
وتغيب في الجدران ، تهدمها ، تفك اسار موتي –
الظل ،تمنحها حضور الريح، وهج النار،
عزّ الفتح ، ازهار التشفي ...
يا طحلب الظمأ المكوّم في المضيق
رمّد وراء النبض . قافلة الضنى ساحت –
وجاوزت اليباس ، ليدرك
الشعب انتصاره ..
يا خنجر الشمس المولّه بالحريق
وطني يقلدني البشاره ..!!

« يوميات مقاتل »

– ١ –

شال قبل الفجر جنحه
هاجرا نافورة الذعر ، الجفاف .
يتملى ، بنشيج العاشق المفجوع ، جرحه :
مورقا شوكا ودفلى
غامزا خصر الضفاف ..

– ٢ –

وطني يا بركة النفي المدمّى
طائرا الفاك عبر الغيم ، رعاف الاظافر ..
عندما جئتك طفلا ، يستبيني بهرج النعمة ابكي :
زنبقيّ الجسم ، لا أقوى على النطق ،سرابيّ الملامح
وطني ،رد الي اللون رمليا ، وطيّرني الى الحمة –
نسرا ، حاقد المنقار ، جارح .

– ٣ –

وطني ياجمرة التوبة ، آتيك من العتم شرارة :
« يعرف التائه سفحه .. »
زرعوني في الثرى المطلول شوفانا ، وهزّوني بيادر
رصعوني جوشانا للفتح ،شدّوني على الخصرخناجر .
صيّروا قلبي كمأى
علقوني رقما ، رمزا ، اشاره
موّهوا لون عيوني
عرّشوا كفيّ صبّارا ، وغابوا :
نسفا في الافق ، ليليّ المسيره .
صرت أدعى – بعدما كرّست للقتل – رصاصه .!!
تتنزّى شهوة للموت ،لا ترتدّ ، تنهلّ بشائر ..

– ٤ –

مرّة راعية الهضبة راحت تتغنى :
« رائع ان يولد الانسان اسود :
رائع آن يصبح الاشقر أسود :
فاحم الوشم ، جحيميّ السريره ..
يا عصافير السفوح الجرد ، قولوا لحبيبي :
أسبل الدمع ، ولوّح بالمناديل الخصيبه ،
انني أحيا اسيره ،
كيف حال الشوق بعدي ؟!
كيف حال الناس ، والارض سليبه ؟!

– ٥ –

وطني يا وقفة العزّ ، أعرني صهوة البرق ، وكحّل
مقلتي باليتم، واملأها مجاعه ..
علّني في رهج القار أباهي ، اتمرّى :
ساحقا غنج الدلال الرخو، فيعمر الرضاعه ..!!

– ٦ –

اصدقائي شعراء الشام ، في ليل الوداعه
عبئوا أقلامكم بالخمر ، بالماء ، وبيعوا « وطنيّه »
وتقاضوا ثمن الحرف مرايا ...
قبلكم ، كنت زمانا ، انهك السمّار بالخمر ، اعبي
قرب الليل حكايا ...
آه ، يا جيل المرايا ...!!
قبلكم ،كنت أناجي، من كوى الحانات ، مجد الوطنيّه.
قبلكم .. واخجلة الصوّان في درب الضحايا .. !!

– ٧ –

يا صبايا الشام ، يا كلّ انعطاف فيرصيف الصالحيّه
يا صبايا ..
من ترى منكنّ تحيي نخوة القتل، وادلاج العشيّه ..؟!
حين ننسى النوم ، لا نفرى بضوء القمر
وارتعاشات الليالي الحمر ، بعد الخدر
والطقوس الوثنيّه ..!
يوم لا ينهار سور العالم الاسيان في رهز –
السرير الناعم الهفهاف ،والهمس الملوّن
يوم لا تدرون بالاطفال في الجولان ،في زحف المنيّه..!

« الى راعيه »

لا تردّي الماعز الهيمان ، خليه على الاسلاك يثفو
يتخطّى وطن الخطف ويرحل
مثلنا يهوى ، ويقتل ..!
درّجيه لحظة الذبح المندّى في حنايا الحفر
علميه لغة الرفض وتفتيح الجراح
اقنعيه – كلما جاع – بمضغ الحجر .
« آه ، ياحنّاء وجه الحجر .!! »
اسمعيه اغنيات الحاصدين السمر بين الشرر
عبر وهج النيزك المنداح، لا ضوء السّراج ..!
واتركيه يتصبى مربع الخضرة منذ الصغر
علّنا ننهد مثله ..!!
كلنا يحمل قهر النفي ، في الاضلاع ، نبله .
نتشظى في رسيس الليل ، لغما ورصاص ،
نتعرّى ،
ننحني جسر خلاص ..

فايز خضور

السّلطعون

قصة مرثية

بقلم اميل حبيبي

ليس آت ببعيد
بل قريب ما سيأتي
(عبد الله بن عبد الاعلى)

منذ ان جاورته، على المقعد الذي أكلته اسنان من سبقنا في المدرسة الابتدائية، لا أعرفه الا بهذا اللقب – السلطعون. اما هو فكان يدعي انه حمله معه من قريته. وأما أهله فقالوا انه عاد به من المدينة. والحقيقة هي ان القاب ولدنتنا، مثل النكتة، لا يعرف مصدرها. ولكنها تلصق. وهمي فيها أكبر من همه. فكنت الاحق هذه القضية. فلاحظت، فيما بعد، ان ام الولد كثيرا ما تكون البادئة باطلاقه على ولدها. فألقابنا تشف عن طبائعنا. وامهاتنا ادرى بنا.

وكنت أحسب ان لقب سرطان البحر علق به على مظهره الخارجي. فان مشيته غريبة – الكتف اليمين مندفعة الى امام، والقدمان منفرجتان مثل البركار المفتوح، اليمين تؤشر على اليمين، والشمال على الشمال في اصرار البوصلة. واذا اضفت الى ذلك قامته الطويلة النحيلة، وعنقه الممطوط، لا تحتاج الى معرفة سابقة بهذا اللقب حتى تبادره به.

ولكنني كنت مخطئا. فلما اغرمت بصيد السمك، وتعرفت على طبائع سرطان البحر، وعرفت صديقي المرحوم حريز اليقظان كما يعرف السر كاتمه الامين، ادركت ان الالقاب تتناول ما هو اعمق من المظهر الخارجي، وتعرينا. كان المرحوم، في طيبة قلبه وفي سذاجته، اشبه بسرطان البحر في سذاجته التي لا نظير لها. ولو كان العرب أهل شواطىء لاستعاضوا به عن النعامة في امثالهم – يكون يجري مندفعا، فما ان يرى ظلا غريبا في طريقه حتى ينقلب على ظهره وينصب فكيه استعدادا للقتال، فيؤسر على أهون سبيل. ولو ظل يجري لنجا. رحمهما الله، صاحبي وسرطان البحر، ورحم كل اصحاب القلوب الطيبة، المحاربين المنقلبين على ظهورهم، الذين يزيد عددهم على عدد رمل البحر!

وفكرت مليا في العنوان الملائم لهذه المرثية، التي طلبتها مني في الاربعين على وفاة المرحوم حريز اليقظان، صديق العمر، حتى عدت اليّ وانت تقول انك تريد مني فيها، بالاضافة الى تعداد مناقبه، ان آفسر لاصدقائه الكثيرين كيف كنت ابتسم بل، كما اتهمتموني، كنت اضحك، من دون المشيعين جميعا، وانا اسير معكم وراء جثمانه.

اما والله ما ضحكت يا اخي. وشر البلية لا يضحك. ولكنني ابتسمت لانني وجدت، على حين غرة، الجواب على السؤال الذي اقضه طول حياته. ولو كنت وجدت هذا الجواب وهو على قيد الحياة، واخبرته به لابتسم معي. وفطنت الى طيبة سرطان البحر. فجعلته عنوانا. وستبتسم انت ايضا، حبا وحسرة، حين تعلم عنه ما علمت.

ما هي النهاية؟ هذا هو السؤال الذي الح عليه طول الوقت. انتم لا تعرفونه الا «ابا فلان». وكان لهذا الاسم هيبة في زمن الانتداب. ومن الاسماء ما له هيبة. وبقيتم وقتا طويلا ترجعون صدى صوته الذي انقطع. فقد اذهلته النكبة الاولى فانطوى على نفسه. ولم يبرأ كليا من هذا الذهول حتى ساعته الاخيرة. واعجب ما في امره ان صدمة حزيران قد ردت اليه بعض انفاسه، مثلما تفعل الصدمة الكهربائية بمرضى الاعصاب.

وكنت اتردد عليه في بيته. فلم اقطع ما تعودنا عليه، في زمن الانتداب، من تبادل الرأي والمساره. فجلسنا ننظر حوالينا الى شعب، بقضه وقضيضه، وقد هام على وجهه في ليلة غبراء. حدثته عن البيوت التي دخلناها في حيفا فوجدنا القهوة مصبوبة في اكوابها وما وجد اصحابها وقتا لشربها قبل الرحيل. فحدثني كيف

رحل جيرانه ، كانما وباء خبيث انتشر في حارته . بدأ بالجار فانتقل الى جاره . خلا بيت فاخلى ما حوله . وخرجت سيارة محملة بمتاع دار ، فاكترى الاخرون دواب ، وآخرون استدبوا ارجلهم . وبادرني بالسؤال : ما هي النهاية ؟.

واذكر يوما حين عاد من زفاف احد اقربائه في قرية بيت صفافا ، في ضواحي القدس ، التي شقتها اتفاقية رودوس ، بالاسلاك الشائكة ، الى شقين ، اسرائيلي واردني . عاد وقد استبد به هذا السؤال . قال انهم شرفوه بأن اختاروه ليتأبط ذراع العريس ، « فلا تزال في هيبة هذا الاسم بقية » . وكانوا يزفون العريس في شارع القرية الوحيد . وعلى يسارهم الاسلاك الشائكة التي تحز القرية الى قسمين . وسار العريس وحوله اقرباؤه واصحابه في القسم الاسرائيلي ، بينما سار بقية اقربائه واصحابه ، يهزجون ويزفونه ، الى جانبهم من وراء الاسلاك الشائكة في القسم الاردني . وقد حافظ كل فريق على مقتضيات الامتناع الكلي عن تبادل الحديث فيما بينهما لما في ذلك من اتصال ممنوع بالعدو ، هذا القريب بعدوه القريب ، وذاك القريب بعدوه القريب ، سوى الزغاريد التي تشق كل ما خلقه الله من اسلاك شائكة ، ولا يفهمها الرقيب على القريب . فصاح : ما هي النهاية ؟

في يوم آخر ، حين استيقظنا على الخبر الداهم عن اعتقال عائلة الابراهيمي المعروفة ، بجميع رجالها ونسائها . وهم جيرانه . فأخبرني همسا بان ابنهم اللاجيء في الاردن عاد متسللا ، واختبأ في الدغل ، وارسل في طلب اخيه ، فجاءه . ثم جاءه والده . ثم جاءته امه وعلى رأسها طبق محمل بالدجاج المحمر . ثم جاءه اخوته واخواته ، وابناء عمه ، واخواله . فاعتقلوا جميعا . لقد اتم سرد الحكاية همسا ، ثم صاح : ما هي النهاية . ومط عنقه المطوط : اريد ان اعيش حتى ارى كيف تكون النهاية .

والواقع ان سؤاله الدوام هذا كان يهز خواطري . فأبسط امامه رؤيانا السياسية عن المستقبل الممكن الوقوع ، حيث تزول اسباب الكراهية والريبة بين الشعبين فلا تبقى قضية اقليمية او قومية الا وتنفرج عقدتها . ولا شك في انني كنت اردد على مسامعه حقيقة الفارق ما بين مسلكه ومسلكنا . فبينما هو يريد ان يعيش حتى يرى كيف تكون النهاية ، نحن نريد ان نعمل من اجلها .

حتى ارتطمنا بحرب حزيران ، وما بعدها . وعاد من زيارته الاولى الى مدينة نابلس وهو اشد اقتناعا بحيرته — ما هي النهاية ؟

قال : حتى اصحابك هناك لم تحتو رؤيتهم السياسية ما حدث . فهل حسبتم انتم له اي حساب ؟ لقد ناموا على حكم واستيقظوا على حكم آخر ، فما هي النهاية ؟

وحين عدت من زيارة رام الله للمرة الاولى بعد حزيران ، والتقيت اقربائي هناك . هتف : هل دخلتها بسيارتك الاسرائيلية ؟ قلت : نعم . فصاح : في سنة ١٩٤٨ اضطررت الى ترك بيتك في رام الله والمجيء الينا ، فهل تصورت ، حتى في اضغاث احلامك ، هذه العودة الى بيتك في رام الله ؟ ما هي النهاية ، ما هي النهاية ؟

ولم اشأ ان اخبره بأنني وجدت البيت الذي سكنته في رام الله مهجورا منذ ان اخليته . وبانني لففت حوله ، وطلعت على عتبته . ونظرت من احدى النوافذ فرايت عنكبوتا قد نسج خيوطا احتوت السقف كله . فتأملت ان يكون من بقايانا . فسألته : هل تذكرني ؟ فظل ينسج خيوطه .

وقلت لصاحبي مواسيا : اتدري ؟ نحن لا نتساءل عن النهاية منذ سنة ١٩٤٨ فقط ، بل منذ بدأنا نشترك في المظاهرات والاضرابات .

فقال : ما ابعد ما قطعنا ، ولا نزال نسير ، فتتلوى الطريق امامنا ، وفي كل عطفة مفاجئة ، وفي كل مفاجئة عثار . فما هي النهاية ؟

ومنذ ذلك اليوم ، في اواخر سنة ١٩٤٨ ، حين اقتادوه مع الالوف من رجال بلده الى الساحة العامة مستنطقينهم عن السلاح المخبوء ، ولتعريب الرجال غير المرغوب فيهم ، ومر مع غيره امام رجال غطوا رؤوسهم باكياس خيش مثقوبة للرؤية ، فأشار رجال الخيش عليه وعلى المكان الذي خبأ فيه البندقية ، وكان يحسب ان احدا سواه لا يعرف مكانها ، وسجنوه ، وهو يرفض الاشتراك في اي عمل جماهيري . وكان يقول لي ، حين كنت اجيئه مستحثا : لا يصلح العمل المجدي الا مع ناس تأتمنهم . الحذر ضرورة ، والثقة طيش . حزبك على الرأس والعين ، ولكنه مفتوح ، فلا استطيع ان ابذر حياتي فيه هباء .

الان جاء الدور على تعداد مناقب الفقيد . لقد كانت منقبته الوحيدة انه رفض ان يكون علينا حين تهاوى الرجال مثل ذباب على جيفة ، ينهشون لحومنا الطرية وهم يعتذرون : نريد ان نعيش ! لقد احجم عن العمل معنا ، ولكنه رفض التفريط بما كان لاسمه من هيبة ، فعاش محترسا — هذه هي منقبة المرحوم حريز اليقظان التي دفعت الى السير وراء جثمانه مئات عارفي فضله ، حاملينه الى مثواه الاخير .

وبمرور الايام اثقلت اليقظة على صاحبنا المرحوم حريز اليقظان . وحين تبين لنا ان واحدا من جماعتنا انما هو عميل مأجور زرع في صفوفنا ، وجئته لاخفف من وقع الانكشاف عليه ، بادرني مهتاجا : أرأيت ؟ قلت : ففي اي مكان رأيت غير هذا ، وهل استطاع المزروعون ، في يوم من الايام ، ان يحرقوا ما زرعه الشعب بأكفه ؟

ثم جاء ذلك اليوم الحاسم ، حين زرته فلم يلقني بقهقهته المسموعة ، التي لم يبق مسموعا عنه سواها . كان

متجهما ويحدثني بتحفظ . وكان ساخطا ومتأففا . وما ان بادرته بحديثنا العادي ، عن السياسة وما اليها ، حتى اطلق جهاز الراديو على عقيرته ، وقارب اذني هامسا انهم استدعوه امس، وحققوا معه في حديث جرى بيني وبينه في بيته ، وان ما نقلوه عنه صحيح ، وانه متأكد من انهم زرعوا ، في هذه الغرفة من بيته ، آلة التقاط للصوت ، فلا يصلح الكلام هنا . قلت : ولا في أي مكان آخر ؟ قال: ولا في أي مكان آخر . قلت : بل يصلح الكلام الصحيح في كل مكان . قال : الحذر الحذر !

ومنذ ذلك اليوم لم يعد حديثه معي سوى همهمة. فاذا سألته رايه في امر اطلق من فمه حشرجة ، تارة مبحوحة وتارة خشنة ، على حسب المدلول الذي يريده لهذه الحشرجة . فاذا الححت عليه رفع حاجبيه تارة ، واغمض عينيه او فتحهما تارة اخرى . وكان عليّ ان افهم من هذه الحركات والهمهمات والحشرجات رايه في الامر .

وفي احدى هذه الجلسات نسيت انني حيوان ناطق فجاريته في لغة السر العميق التي اختارها امعانا في الاحتراس . فصرت اهمهم ردا على همهمته ، وارفع حاجبي فيخفض حاجبيه ، فأخرج الحشرجة من فمي فيرد عليّ بأحسن منها . وبقينا على هذه الحال حتى اديرت القهوة ، فانصرفت .

وما ناديته ، بيني وبينه ، مرة الا بلقب الطفولة ـ السلطعون . وكان يناديني ، هو ايضا ، بلقبي . ولن اطلعك عليه لان هذا الامر هو مهمة من سيكتب في رثائي ، اذا ما وجد . غير انني ، في زياراتي الاخيرة له، اصبحت اناديه برهين المحبسين : بيته وصدره . فكان يجيبني بكحة مصدورة تستغرق اكثر الوقت الذي اقضيه معه .

فالمرحوم حريز اليقظان ، في ايامه الاخيرة ، استعان بالخمرة على احتمال الكتمان ، حتى ادمن عليها. وكان لا يخرج من بيته الا لقضاء هذه الحاجة او ليحملها معه الى بيته محترسا .

حتى كان ذلك اليوم المشؤوم حين فاجأنا بحضور الاجتماع الانتخابي الاخير الذي عقدناه . وتصدر القاعة وقد نصب عنقه استعدادا للقتال . وكان واضحا ان صاحبنا قد اثمل .

وبينما كان خطيبنا في عنفوان خطابه ، والتصفيق له يتابع التصفيق ، وأمل الحياة يدفع الى العمل، اذا بصوت يعلو على صوت الاكف ، وعلى صوت الهتافات ، يقطع كل نأمه ويذهل الحضور . كان صاحبنا المرحوم حريز اليقظان يهتف ، بأعلى ما في حنجرته التي حبسها دهرا ، بهتافات قومية متطرفة .

تجمعنا حوله ، واخذناه بأقصى ما استطعنا من هدوء ، خارج القاعة. وذهبت معه الى بيته حيث وضعته في الفراش وقد غاب وعيه ، وكان يردد دونما رابط سؤاله المقيم : ما هي النهاية ، ما هي النهاية ؟ ولم اتركه حتى سمعت شخيره .

ولكنهم لم يتركوه . وتعرف كيف اعتقل في الليلة نفسها . وخرج بعد اسبوع وقد ضرب واهين . فوقع في الفراش . ولم يخرج من بيته بعدها الا محمولا على الخشبة .

وحين سرت مع اصحابه الكثيرين وراء جثمانه ، وتطلعت الى فوق حيث كان محمولا على الاكف ، سقطت على راسي تفاحة نيوتن فوجدت الجواب على السؤال الذي اقضه طول عمره : ما هي النهاية ؟ فتبسمت .

هذه هي النهاية ، يا صاحبي . نهاية الذي لا يتلفت حوله بل يتلفت الى داخله ، فلا يرى حوله سوى الظلال الغريبة ، فينقلب على ظهره وينصب فكيه للقتال. ايهما تقاتل : نفسك ام ظلالك ؟

وبعد ان وارينا جثمانه في مثواه الاخير ، وترحمنا على نفسه الطاهرة ، عدنا الى اعمالنا نجمع الرجال مع الرجال لنوسع في الظلال التي يتفيأ بها حائو الخطو نحو ما سيأتي .

اميل حبيبي

عن مجلة «الجديد» ـ حيفا

سفر .. من رؤيا المسخ

حين استيقظت صبيحة هذا اليوم
كانت نافذة الفرفة تندى بالدم ..
كان شعاع الشمس المقطوع على مقصلة الغيم
حبلا يرقص في حفلة شنق ..
كان الماء الميت في جوف الحلق
يروي ظمأ غريق .. يتفتت في اليم
لم أصرخ لحظتها .. لم أنطق
وعلامات المسخ على الفم ..
: شفتان ..
متقاطعتان ..!
ولساني .. ذيل ممدود خلفي !
(صليت ..
ثم نقضت صلاتي ولعنت ..
ورسمت على شرخ الجدران صليبا .. وسقطت ..)

« رؤيا المسخ الاولى . »

جمهرة .. في الشارع الخلفي ..
أشم من حرير ياقاتهم البيضاء .. « عطر منشم ★ »
سقطت بينهم على حوافر العيون ..
أرقب ما يدور ..
صوت المنادي يعلن افتتاح صالة المزاد :
« اليوم يباع لكم انسان قد فقد بطاقته الشخصيه ..
من يحمل الآن بطاقه ..
يكشفها أمامنا كي يشتريه ؟ »
لم يتحسس أحد منهم جيبه ..
.. وانصرفوا !
هاتف :
« يا قوم .. ما أشهى وليمة الجنازه
موائد القتيل .. للصوص قد صارت مفازه !
فقيدكم مات على صدوركم جوعان ..
كي تأكلوا من لحمه الليلة
.. يوصيكم غدا ان تطرحوا العظام في الاكفان ..
فقيدكم لم ينس ان صفقة الدموع في العيون بالمجان !

★ زهير بن ابي سلمى .

« رؤيا المسخ الثانية . »

تحت جدار القرميد القائم .. قدام البيت
يقبع كلبي المشلول !
.. في عودتي الليليه ..
يستقبلني ــ منذ ثلاث سنين ــ
بنباح منزوف وسباب مجهول ..!
ينسج من ضوء المصباح الازرق كفنا في الليل ..
(الاكفان الاكفان غدا .. قد تنفد ــ كالسلعة في الاسواق !!)
عيناه الضارعتان
عيناه الرافضتان
اورقتا في كسرات الخبز الاسود والماء ..
سنبلتين .. من الحنظل والحناء ..
عيناه الصابرتان ..
عيناه الماخضتان .. تشداني لعيون قريتنا المقهوره ..
ولارملة ــ أعرفها ــ خلف توابيت الطين تنام ..
تستقطر من مصباح الفاز المسلول ..
شبح الابن المفقود ..
تصحو في الليل .. تدق الابواب ..
تسأل عنه الجندي العائد .. والصبارة .. والغربان..
تعصر ثدييها ببقايا صورته .. والمنجل.. والجلباب..
تهذي فوق الاسطح .. يتراءى الله لها في كومة احطاب ..!

★ ★ ★

ذات مساء عدت كدأبي ..
ــ والشارع منفى .. يبحث عن منفى يأويه ــ
أتساند والجدران على عكازي المكسور .. !
.. كانت عيناه امام البيت .. تبارك رأسي المخمور..!
لم أقو على نظرته ..
أقعيت على الاسفلت .. ظللنا ننبح .. ننبح .. ننبح ــ في صوت واحد ــ
(لم ترني الا نصف المومس .. في عودتها المنكسره ..
اعرفها .. زوجة جاري المأفون ..
كانت تتردد أيام الآحاد على « كاتدرائية مرقس » ..!
ما زال الزوج الغائب .. خلف رمال الشط الثاني ..
يلثم حول الاصبع .. خصلات الشعر الاملس .. !!
والزوجة ــ نصف المومس ــ تبحث ليل نهار ..
عن صيد .. في حانات الشط الاول ..!
هاتف :
ما زلت هنا كالزبد المالح في جنبات الكورنيش
أذكر « يا ايفان كارامازوف » ..
ثرثرة الافواه الجوفاء على مقهى ريش .. !

الاسكندرية — **دكتور وصفي صادق**

صفحات من مفكرة

بقلم فدوى طوقان

— ١ —

عدت من بيروت بعد اقامة قصيرة فيها ، التقيت بصديقتي سميرة عزام اكثر من مرة . حين نلتقي نتحدث في كل موضوع وننبش حياتنا وحياة الآخرين ، سميرة ذكية وعميقة ، غير ان فيها شيئا من الانضباط اللاانثوي على رأي صديقتي سلمى الخضراء . انها تحلل كل شيء في عقلها ولا تترك الامور للاعماق . تدفن الاعماق ، تغلفها دون النشوة الحقيقية والحزن .

— ٢ —

القى احد الاساتذة محاضرة تضمنت فكرة اثارت المستمعين ضده . الفكرة هي انه ينبغي لنا نحن العرب ان نعقد هدنة مع الشعر والتاريخ والقصص ، وننصرف بكل طاقاتنا الى العلم والصناعة ،يعني الحضارة المادية .

اذهلتني الفكرة . هذا الاستاذ يعوزه ولا شك الكثير من تفتح القلب والروح . لست انكر قيمة العلم والصناعة وكونهما من اهم المقومات في حياة الامم في العصر الحديث .ولكني لا افهم لماذا ينبغي لنا ان نجعل من الفرد العربي (آلة) لا روح فيها ، او شيئا نسكت منه جزءا لنحرك الجزء الآخر .ان العلم والفن حركتان تمثل كل منهما جانبا من اعظم جوانب النشاط الانساني الذي عرفته الحضارات المختلفة . والفن بجميع فروعه ، مظهر حي من مظاهر الحياة ، وتعبير صادق عنها ،ومن العبث ان ندعو الى وأد الفن لانه شيء لا يموت الا اذا ماتت الحياة على الارض .

من المضحك ان ندعو ، نحن العرب ، ان عقد هدنة مع الادب، متجاهلين او جاهلين ان مشاريع المستقبل في امة من الامم لا يخططها ويرسمها الا ادبها . ان الانتفاضات الواعية والصراع من اجل الحياة الحرة الكريمة لا يمهد لها الا الادب ، فبالادب والفن عموما تتيقظ الكبرياء وتعلو الهمم ، ويشمخ البناء النفسي في ابناء الامة .

لقد كان لقصة « عودة الروح » لتوفيق الحكيم اعظم الاثر في نفس جمال‌عبدالناصر كما قال . فقد كانت من الكتب التي ساعدت على ايقاظ روحه وتفجير قواه النفسية في مطلع صباه الاول .

— ٣ —

عدت امس بعد رحلة الى القاهرة استغرقت شهرا . قبل ساعة انتهت المرأة التي استدعيتها لتنظيف البيت من عملها وخرجت . لا احب وجود عاملة في المنزل فوجودها يعكر عليّ صفو اوقاتي. منذ انتقلت الى منزلي الجديد وعشت بمفردي وجدت ان العمل في البيت بسيط جدا ، احيانا اعيش في الفوضى ، ويكون هذا حين يضطرب في ذهني وقلبي مشروع قصيدة .

احب السفر ، ولعل الحياة عندي تتمثل في ثلاثة عناصر : الحب والكتب والاسفار . انني املك التركيب النفسي الاصيل لهذا الثلاثي . عانيت الاول بأعمق ما يستطيع انسان ان يعاني ، والثاني جزء من حياتي لا يتجزأ ، والاسفار نصيبي منها كبير . والذي يحصل لي من الترحال هو ذلك التفتح اللاارادي لكل ما هو انساني على الصعيد العام .

يحدث عندي السفر فرحا غريبا . أحس بالتحرر والاستقلال وتجرفني لهفة لان احيا بكثافة ونشاط . وكم يسحرني ايقاع الحياة المختلف بين كل بلد وآخر ، يكون هذا الاختلاف احيانا شديدا .. في كل مكان وجه جديد للانسان الذي لا يتغير في جوهره ، فهو كتلة مشاعر ونوازع ومطامح تتقلب بين الانتصارات والانكسارات ، بين اليأس والامل ، انه في صراع دائب لا ينتهي .

يا لهذا الجرم الصغير الذي يسمونه الانسان ، ما اعمق ابعاد العالم الذي يطويه بين جنبيه .

— ٤ —

التقيت لاول مرة بالكاتبة (ن) . كان قد قيل لي ان صراحتها وتحديها يجعلان المرء ينفر منها ، ولكني احببتها رغم هذا . انها تمثل شيئا شجيا ضعيفا بالرغم من قوتها الظاهرة ، هذا الشيء هو نموذج لانسان بلادي ..ان آراءها الجديدة مرهقة بالعاطفة المتحيزة، وهذا هو سر ضعفها في نظري .

— ٥ —

استمعت اليوم الى اغنية فيروز الجديدة « شوارع القدس العتيقة » . صوت فيروز يشعرنا ان لحياتنا ثباتها ، وانه مهما توزعتنا الظروف فسنبقى مشدودين الى هذه الارض . حين اصغي الى فيروز في فلسطينياتها ارى بلادي اجمل واحلى مما هي ، واحبها اكثر مما كنت احبها ، واحس بفجيعة فقدها كما لم احس من قبل ، واتذوق طعم الانتماء الى شيء ولو كان هذا الشيء ناقصا .

— ٦ —

فتحت عينيّ على يوم العيد ، ومددت اصابعي الى مفتاح الراديو

اديره ، فحمل اليّ صلاة العيد . غلبني التأثر فبكيت ، وكان البكاء صلاتي .

لا ادري مصدر هذا الشعور ، فلست متدينة ولا اهتم بالطقوس ، وصلتي بالله ليست متينة الروابط . لا اراني اقرب الصلاة او كتب الدين . لي في الدين نظرة ، ولكني في مناسبات اتساءل : أترانا على حق فيما نذهب أليه من تأويل ؟ لماذا لا يكون ايماننا خالصا فينا فنستريح ، او تكون شكوكنا خالصة فنستريح ايضا ..

افكار تلاحقني ، لا سيما في المناسبات ذات الطابع الروحي، فأحار واخرج من حيرتي بحيرة كبرى .

— ٧ —

زارني الصديق « ز ... » مهنئا بالعيد . حدثته عن تأثري بصلاة العيد صباح امس . صديقي مؤمن ومتدين ، وهو يعرف تشككي واحساسي الديني المعطوب . قال لي : لعل تلك الدمعة التي انحدرت من عينك كانت بكاء على تلك الكلمة التي خفت ضوءها في قلبك ، وبخفوت هذا الضوء اختل عندك ذلك التناسق النفسي والانسجام الداخلي الذي يتمتع به المتدينون . على ضوء الدين يستطيع الانسان ان يفسر كل مشكلة ، وان يجد معنى لكل لغز وجوابا لكل سؤال .

قلت : وان يتحمل اخطاء الكون والفوضى التي تلف هذا العالم..

قال : ما ابدع تلك الفكرة التي جاء بها الهنود ، فكرة أن الانسان يظل كائنا ناقصا بدون المعرفة الروحية .

قلت : وما أسعد الذين لم تعمر رؤوسهم افكار امثالي ، فقد أورثوا المعتقدات الى جانب اثاث بيوتهم .. ولم يحاولوا مرة ان يكونوا خارجين على تقاليدهم الفكرية ...

— ٨ —

أحس في نفسي تفتحا للكتابة في هذه الايام ، واشعر ايضا بحنين طاغ الى تحطيم رتابة حياتي ان اعيش الجنون اياما ..

هذا الربيع الذي ينفث شبابا .. اشعر بسطوة الحياة في عروقي . عدت الساعة من مشوار وكان القمر مكتملا والهواء محملا بألف عطر .

سأرد الان على رسالة الصديق « أ. ن » ، رسائله دائما مثقلة بذكر الموت ، سأتحدث اليه عن مشواري وكيف كنت اقف لاتملى من الارض واعب من هوائها حتى اشبع ، واتطلع الى الجبال واتمنى ان ينتهي عمري عند احد قممها . ان الموت شهي في مكان تبعث الاجساد في تربته زهورا وزعترا بريا .

ما اجمل بلادي ! كيف يمكن ان اموت على غير ارضها ؟ آه ، أيها اللاجئون الاحباب ، ما اقسى ان يموت المرء غريبا في غير ارضه .. في ارض الاجداد فقط يحس المرء نموا في انسانيته وتوافقا بينه وبين الحياة من حوله .

— ٩ —

التقينا امس على غير ميعاد . انسان غريب الديار التقي به لاول مرة . قلما ألبي الدعوات الى حفلات الكوكتيل ، فالناس في مثل هذه اللقاءات لا يبهجونني ولا يسلونني . ما الذي جعلني ألبي هذه المرة ؟

بقي معي معظم الوقت . تحدثنا كثيرا في السياسة . في هذه الايام يستيقظ حسي السياسي من غفوته بشكل عجيب .. اختلفت مع « الرجل الغريب » في الراي اختلافا جذريا . فتح اشواقي في آخر السهرة وبعث فيها حرارة جديدة .. احلى ما في الحياة تلك اللحظات التي تتجاوز المواعيد لتفرض نفسها بكل دفعة الحياة التي فيها ..

اجتاحتني يقظة عاطفية عرفت انها آنية .. ماذا يهم ؟ حسبي هذا الانفعال الجميل ، أليس يعطيني المزاج لاعيش قصيدة جديدة ؟!

لا استطيع ان افسد حلاوة اللحظة بأي مسلك تمثيلي ، فحين اكون كتلة انفعال استجيب لحلاوة اللحظة بكل كياني الروحي والجسدي .

— ١٠ —

لم اؤمن يوما بان حياة المرء العاطفية تنتهي بانتهاء عاطفة معينة . بل انا اشعر انني اقوم برسالة حواء .. وهذا كفيل بان يدخل على روحي تجددا وتغييرا أقله التوازن الداخلي .

اتصل بي اليوم وتواعدنا على اللقاء في القدس .

— ١١ —

عدت الى القصيدة التي كتبتها قبل ايام . من عادتي ان اترك القصيدة بعد نظمها ، ثم اعود اليها بعد ان تكون قد اكتسبت منظورا زمنيا ، فأعدل واحوّر فيها قليلا او كثيرا .

— ١٢ —

تلقيت رسالة من الصديق نزار قباني ، ينقل اليّ عزمه نهائيا على ترك الحياة الدبلوماسية والانصراف الى العمل الادبي الذي سيظل قدرنا الاوحد ، والاجمل . ولهذا قرر تأسيس دار نشر في بيروت تتولى نشر آثار هؤلاء الذين كانوا سفراء جمال وخصب وخير في الدنيا العربية . وطلب اليّ تزويده بآخر مجموعة شعرية لي لم يسبق نشرها .

كتبت اليه اشكره على وجوده الفني الجميل في هذا العالم ، واعتذرت لتعاقدي السابق مع الدكتور سهيل ادريس .

— ١٣ —

عدت من القدس في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل .
استيقظت اليوم حوالي الرابعة صباحا ، نشيطة ومرتوية نوما .
تناولت القهوة في البستان . رحت انظر الى الاشياء حولي بعيني مريض يمر بدور النقاهة .. كل منظر امامي جديد ومدهش . كيف كنت اعيش مع هذا الجمال كل يوم دون ان اراه ؟!

— ١٤ —

زارني اليوم الصديق « ل .. » قرأنا معا قصيدة منشورة في « الآداب » للشاعر محمود درويش . استعصى علينا فهم بعض الرموز الفنية . قلت للصديق اننا لا نستطيع ان ناخذ رموز محمود درويش معزولة عن مشكلاته الشخصية في واقع حياته وتجارب هذه الحياة وصراعها مع البيئة التي تحيط بالشاعر ، ونحن لا نعرف الا القليل عن حياة محمود وظروفه وتكوينه النفسي .

قال الصديق : ولكن العمل الفني يبعد عن شخصية صاحبه وبيئته .

قلت : كيف نستطيع ان نفهم هذا البعد اذا لم نبدأ بفهم شخصية الشاعر وظروفه وبيئته ، وبعد ذلك نستطيع ان ندرك الى أي حد استطاع الشاعر في فنه ان يبعد عنها . ولعلك متأثر بآراء ت. س. اليوت في قوله ان الفنان لا يستعمل فنه للتعبير عن ذاته ، بل لمحو هذه الذات . ولكن اليوت عاد بعد سنوات فعدّل هذا الرأي وصححه واعترف بخطاه .

ان معرفة التجارب « الخام » ضرورية لكي نرى الى أي مدى نجح الشاعر في احالة هذه التجارب واستغلالها في عمله الفني ، وبالنسبة لمحمود درويش فان حياته وظروفه وثيقة الصلة بشعره ، والمعاني الانسانية عنده تنبع صورها من صميم تجاربه الحياتية .

— ١٥ —

هجوم عنيف تشنه قوات الجيش الاسرائيلي على قرية «السموع».
المستشفى فيها والبيوت تدمر بالديناميت . القتلى بالعشرات ،

والجرحى والخسائر كثيرة . سكان « السموع » كلهم لاجئون منذ ١٩٤٨ .

المظاهرات العاصفة تعم مدن الضفة الغربية . المتظاهرون يطالبون بالتسلح والتدريب على القتال . تعلن حالة الطوارىء ويتدخل الجيش دون جدوى . وقوع قتلى وجرحى بسبب اشتباك الجيش مع المتظاهرين .

الدول العربية ـ ما عدا السعودية ـ يملؤها الغضب من الملك حسين لانه رفض انطلاق رجال منظمة التحرير الفلسطينية من الاراضي الاردنية . كان في خطاب له في عجلون قد هاجم المنظمة واتهمها بالخضوع للشيوعية .. كما اغلق رئيس وزرائه وصفي التل جميع مكاتب المنظمة .

ـ ١٦ ـ

الرجعية العربية تزداد قوة يوما بعد يوم ، بفضل انبثاق الثروة في بقع من الرمال ... والتقدمية العربية لم تزل طفلة ، وصغيرة العقل ، وكثيرة الكلام ... تفتقر للاسلوب والنظام .

عالم من الضجيج ... ابحث فيه عن بريق ، فلا اسمع الا اصوات المذياع من كل الجهات ، اشبه بكابوس ...

ـ ١٧ ـ

تلقيت رسالة من نزار قباني ، ونسخة من ديوانه الجديد « الرسم بالكلمات » . يقول نزار في رسالته : « ديواني الجديد الذي لا اعرف ما اسميه واين اضعه ؟ الناس يعشقونه جدا .. ويشتمونه جدا .. ونكهة الشتيمة عندي هي أحلى النكهات » ..

ـ ١٨ ـ

آه من هذه الاذاعات العربية ! متى ينتهي كل هذا الصراخ ؟ في العصر الحديث تقاس درجة تحضر الانسان بضبط النفس ، وانسان العصر يخفي مشاعر الالم والغبطة التي يحس بها ، يكبت اله اذا تألم ويضحك ضحكة خافتة اذا ما ضحك .

نحن لا نزال نصرخ اذا ما تحدثنا ، او بكينا ، او ضحكنا ..

ـ ١٩ ـ

دعاني « الصديق الغريب » للعشاء في منزله مع بعض الاصدقاء .
في آخر السهرة اتخذنا لنا مقعدا في زاوية منفردة من الصالون .
تطرق بنا الحديث الى موضوع « السموع » والسياسة بصورة عامة .
قال لي : كنت اظنك غارقة في لامبالاة زواقية فيما يتعلق بالاوضاع الراهنة في البلاد العربية .

قلت له ان نفوري وعدم مشاركتي في خوض المعمعة السياسية لا يعني انني لا احسها او احيا لعنتها التي تحوم فوق رؤوسنا . انني كغيري ، وهم كثيرون ، احاول ان استمد من قلب التجربة العربية المعاصرة جذورا لفني فاعيا واعجز . اننا نقف مشدوهين بالواقع من حولنا ، وبحرقة قلب عرف الالم والمأساة ما نزال نبحث عن معنى كل هذا الذي يدور حولنا ولكن عبثا . ان حصيلة الواقع المعاش حصيلة مؤلمة وتعيسة ونحن نعيش هذا الواقع البائس في كل لحظة من لحظاتنا .

ـ ٢٠ ـ

وقع اليوم في يدي كتاب يضم بعض اعمال الفنان الاسباني « جويا » . استوقفتني من بينها صورة مرعبة . قبر خططه الرسام باللون الاسود ، تمتد يد من تحت غطائه لم يبق منها الا العظم ، حتى تصل الى لوحة سوداء وعلى هذه اللوحة راحت الابهام تخط الكلمة الاسبانية (نادا) « لا شيء » .

حقا ان الفناء جزء من كياننا ، ولكن الفن خالد . وفي احساس الفنان بطغيان الفناء وبالمصير الزائل ما يحدوه دائما الى ابتداع شيء اكثر دواما منه .

كان « جويا » يقسم البشرية الى فئتين ، احداهما جديرة بالرحمة والشفقة ، والثانية جديرة بالمقت والغضب ، اذ كان يعتقد ان مأساة انسان ما هي من صنع انسان ما آخر .

يبدو ان الحرب والضغط والافلاس الخلقي وكل هذه الاشياء القبيحة التي اوحت الى جويا باكثر اعماله ، هي التي وجهته نحو الاخلاقية في الفن ، فقد كان الفن عنده وسيلة لنقل افكاره وخيالاته اكثر مما هو غاية في ذاته .

ـ ٢١ ـ

امضيت النهار كله مع « الصديق الغريب » في القدس . قاد السيارة في دروب لم اعرفها من قبل . تحدثنا كثيرا ، وصمتنا كثيرا .. سألني عن حياتي وايام صباي الاول فحكيت له عن الكبت الرهيب الذي عشت فيه ، وكيف كانت انوثتي تئن كالحيوان الجريح في قفصه ، ولم يكن لها من متنفس مهما كان لونه . كل شيء محظور في البيت ، الضحك ، الغناء ، العزف على العود وكان هواية محببة لي تعلمتها سرا . كنت احلم دائما بفتى احبه ، ولم تكن صحبة الفتيات تجتذبني او تسليني قط . ضحك « الصديق الغريب » حين حدثته كيف كان والدي رحمه الله ، يحثني وانا في هذه الحال من الضغط والكبت والضيق ، كيف كان يحثني على كتابة الشعر السياسي والوطني كما كان يفعل شقيقي الراحل ابراهيم ، فكلما برزت مناسبة وطنية او سياسية طلب مني نظم قصيدة في الموضوع . وكانت اعماقي تحتج وترفض وتتمرد .. كيف يريدون مني كتابة الشعر السياسي وانا سجينة الجدران ؟ من أين استمد مادة هذا الشعر ؟ أمن مطالعة الصحف ؟.. ان المطالعة على اهميتها ـ غير كافية لانبعاث جذوة الشعر ، والشاعر لا يستطيع ان يكتب عن الحياة والعالم من حوله قبل ان يعرفهما معرفة مباشرة . انني حبيسة الجدران والتقاليد ، لا احضر مجالس الرجال ولا اسمع النقاشات الجادة ولا اشارك في معمعة الحياة ، فكيف يطالبني ابي بالكتابة في موضوع لا تفقهه سني ولا له اية علاقة او صلة بالحركة النفسية في داخلي . كان تيار الحياة النفسية عندي مغايرا ومختلفا اختلافا تاما عن التيار الذي اراد ابي ان يحملني على الانسياق معه . واصبت بمرض بغض السياسة .. واصاب العطب حسي السياسي لسنوات طويلة .

توفي والدي اثناء حرب فلسطين عام ١٩٤٨ .. وحصلت المأساة . ورحت اكتب الشعر الوطني تلقائيا ، كانت مادته كلها مستمدة من المأساة رحت اكتب هذا اللون من الشعر دون اكراه او الزام . ومنع تجمد الاوضاع وتجمد القضية الفلسطينية ، بدأ يتجمد احساسي بهما ، وخرجت الى الحياة اعب منها والمسها باصابعي ، واكتب الشعر عن الحب والحياة حتى فجعت بموت شقيقي نمر الذي كان حبيبا لي وصديقا ، فتوقفت الا عن الكتابة عن الموت ، واصابني ذهول وهبوط نفسي واعتزلت عن الناس ، وكرهت الحياة ، الى ان التقينا ، فعدت احبها من جديد ..

شدني بحنان وحب .. واستكنت اليه كطائر اعزل من كل حماية .

ـ ٢٢ ـ

الجو العام في البلاد العربية ينذر بالشر . لا اشعر باي استقرار او باي طمأنينة الى المستقبل . هناك شيء منخذل ومندحر سلفا . هذا هو احساسي الباطني .

ـ ٢٣ ـ

الانباء تتحدث عن حشود اسرائيلية على الحدود السورية ، وعبد الناصر يعقد معاهدة دفاع مشترك مع سوريا . التوتر يزداد يوما بعد يوم . عبد الناصر طلب من يوثانت سحب القوات الدولية من خط

الهدنة . عبد الناصر يعلن اغلاق مضائق نيران .
لن تقف اسرائيل مكتوفة الايدي . في الجو رائحة غريبة .

— ٢٤ —

عبد الناصر يعقد مؤتمرا صحفيا يقول فيه : « اذا ارادت اسرائيل الحرب فنحن نقول لها اهلا وسهلا ونحن مستعدون » .

— ٢٥ —

مفاجأة غير متوقعة .. الملك حسين يطير الى القاهرة على حين بغتة ، مع ان العلاقة بينه وبين عبد الناصر في غاية السوء . ما هي نواياه يا ترى ؟. كل واحد منا متعلق قلبه بشعره !

— ٢٦ —

الملك حسين يضم توقيعه الى توقيع مصر وسوريا على معاهدة الدفاع المشترك . امتلىء بيأس خفي وخوف من انكسار جديد يسحب عصب القوة من الشعب العربي . كان عصب الشعب مسحوبا حين وقعت مأساة ١٩٤٨ .

— ٢٧ —

تلقيت رسالة تلفونية تدعوني الى لقاء عاجل وضروري مع «الصديق الغريب » . ذهبت الى القدس فورا . نصحني بترك نابلس الى عمان او بيروت فالحرب واقعة لا محالة وباسرع مما اتصور . قلت : اموت على عتبة بيتي ولا الجأ الى بلد آخر ، محال .. قال : اخاف عليك ، انني احترم موقفك هذا ولكن تذكري انك لست ملكا لنفسك .. انت للاخرين ، وهذا قدرك ، يجب ان تظلي للاخرين . قلت له : هذا بالنسبة لي يعني الهروب من المعركة ولن اهرب .
كان في تقديره ان المجزرة ستكون مخيفة بين رجال المقاومة في نابلس وبين الجيش الاسرائيلي .
فكرت في نفسي : هل سيكون هناك مقاومة ، في بلد جرد اهله من السلاح منذ تسعة عشر عاما ؟!
عدت الى نابلس بقلب مثقل بالغم وبالخوف على اطفال شقيقتي من ضراوة الحرب . حاولت اقناعها بالذهاب الى عمان مع اطفالها ولكنها رفضت وقالت « اموت معكم او احيا معكم » .

— ٢٨ —

هبطت الفضيحة على الارض العربية .. وانهزمنا .. خسرنا الحرب . احزاننا لا تطاق .. الاعلام البيضاء تلعب بها الرياح على سطوح المنازل . اصبحنا محتلين من قبل الجيش الاسرائيلي .. اخرجتني الصدمة عن حدود الواقع ..
حزينة انا حتى الموت !

— ٢٩ —

فوجئت بصديقي الغريب يزورني على غير توقع . سبعة أيام على احتلال المدينة وانا مريضة محمومة .
جاء يطمئن عليّ ويسألني ان كنت بحاجة لاي شيء .. شكرته والدمع في عينيّ . كان حزنه هو الاخر عميقا وصادقا .

— ٣٠ —

شهر مضى على الاحتلال . لا استطيع ان اكتب بيت شعر واحدا .

— ٣١ —

شهر آخر مضى ولا اكتب شيئا .. صمت .. وصمت مستمر ، ولكنه صمت واع ، منتبه ، وليس غيابا او فراغا .

— ٣٢ —

انكسر طوق الصمت . كتبت خمس قصائد ، اشعر ببعض الراحة .
سأكتب ، سأكتب كثيرا .. احس انني اعيش كل دقيقة من زمان المسرحية ، ويهزني كل فصل من فصولها ، فاذا بي انا نفسي قصيدة ملتاعة ، كئيبة ، آملة ، تتطلع الى ما وراء الافق !!

فدوى طوقان

عن مجلة « الجديد » ـ حيفا

اصوات جاهلية

(١)

افتحـوا اجسادكـم ،
هذي سماوات ، عرفنا نجمها
قلنا : لعل الريح تأتي
فنرى وجهك بغداد ، نرى العاشق رثاء ،
وانت الدمعة الاولى ،
انا الفاتح للحزن فؤادي ،
اتقصاك ، يداي الشجر المنفي ،
لا ماؤك اغرى ورقي ،
لا مياهي ، ورثت أرضك ،
اعوامك انثى ، حملت اعيادهـا
واستقرت في رمادي
شفتي الهجرة ، والرمل سوادي
وانا الهاجر خطوي
كم تشهيت فتوحي ، وتيممت ،
حملت الغيم ثوبا ،
العراة طعنوا الافق ، وماتوا
حملت اجسادهم ، رملك ماء ،
وخراجـا ،
فأتبعيني ، لا بـلادي
عرفت حزني ولا أنـت ،
استبيحي شفـة الشاهد ، بغداد ،امنحيني
وطنـا في جسدي ، ما أنت غاياتي

لك العشب ، ولي مرثية ، تعرف أني
شاعر احنيت للامطار صوتي
دمي الشهوة ، احزانك موتـي
وأبي يفتح للريح الشبابيك ، ويأتي
والطريـق
غضب الرمل ، وخطو ينحني ،
ويفيـق

(٢)

وطني ، تاريخك الراكض في وجهي ،
دروايش ، تهز الليل والامطار ،
تمحو ، نجمة الزنج ،على أعراف خيلي
هذه مائي ، كنز ،
سلبته الجن مني ،
أغلقت اجسادها ، هذا سراجي ،
« مدة » نامت عليهـا أمتي ،
هذا خراجـي
ـ ياعراء الرمل ـ شيخ وجواري
سلب الجن سماتي ،
أغلقوا ابوابهم دوني، وناموا ،
يا عراء الرمل ، وجهي
قطعت راياته ابط خيولي
مشت الريح على كفي ،
عقرت الدمع ، تاريخي يدي ،
صدري بكاء ،
ودموعي بكـاء ،
ودموعي الامة ، بارزت اسمائي
عقرت الدمع وحدي
سلب الجن ازاري
لم تكن عيناي عندي ،
وأبي ما كـان سيافـا
فهذا ساحر الفرس ، هبوه حجرا
حطوا تراب الشرق فوقي ،
فهذا ساحر الفرس
وذاك الخضر موشوم بثدي امرأة
سوداء ، تحكـي :
« مطر الزنج غبار »
مطر الزنج حجار
مطر الز .... »

بغـداد

حميد الخاقاني

حول أزمة الثقافة العربية المعاصرة

بقلم عدنان ابراهيم

الثقافة العربية المعاصرة في ازمة ، يدعوها بعضهم بالازمة الكيانية : هل هناك ثقافة عربية معاصرة أم ان ما ندعوه هكذا لا يتعدى حدود الصدى ، صدى الثقافات العالمية الحية التي تعايش مشاكل الآخرين ، وصدى التراث الثقافي العربي الذي حاكى حياة الاجداد وعايش مشاكلهم ؟

« هذا الشبح الذي أسميه الفكر العربي المعاصر ، أتهمه ، وانا جزء منه ، بأنه عاجز وجاهل ، لا يعرف احدا ، لا العربي ولا غير العربي ،لا يقدر ان يطول احدا لا العربي ولا غير العربي : اتهمه انه تابع ومسحوق » (1) .

هذا الاتهام العنيف والشامل يوجهه ناقد آخر وكأني به يريد الاصرار على متابعة الدعوى مع اختلاف – على ما يبدو – في المنطلق وفي الغاية :

« اني اتهم ثقافتنا العربية المعاصرة بالحيرة والتخلف وانعدام الخصائص الذاتية وفقدان القدرة على عناق قضايانا الكبرى » (2) .

هذا الاتهام بالعجز والانسحاق يوجهه كذلك شاعر معاصر لكل الفكر العربي المعاصر يحمل الكثير من الصدق لكنه يجور كل الجور !

« انعي لكم ، يا اصدقائي ، اللغة القديمة
والكتب القديمه
أنعي لكم ..
كلامنا المثقوب كالاحذية القديمه
ومفردات العهر ، والهجاء ، والشتيمه
أنعي لكم .. أنعي لكم ..
نهاية الفكر الذي قاد الى الهزيمة » (3)

فكر من هو ذلك الذي قادنا الى الهزيمة ؟ مفردات من هي تلك المفردات العاهرة ؟ واللغة .. والكتب .. ؟

فكرنا الديني الذي ابقانا في الجوامع وحثنا على تشطير الابيات وطلب النصر من الخالق ؟

اذا كان هذا ما يريد قوله نزار الشاعر فقد اقلقه الاحساس العميق بالمأساة ،وجعله هو ايضا يجور كثيرا على الفكر العربي المعاصر.

اذا كانت الصلاة من اركان الاسلام فان الجهاد من أعمدة الدين ، وان الذود عن الحمى قد اذكى دائما وابدا نفوس العرب المؤمنين : اذكروا صلاح الدين وابحثوا عن جذور الثورة الجزائرية وعن أسباب الصمود وعن اسباب الاستبسال .

حتى نعانق قضايا العالم المعاصرة ، علينا بعناق قضايانا ، بالتعرف على ابعادها ومعانيها الحقيقية ، وهذا يكون بنفض غبار الغموض عنها وازاحة الحجب والاسرار والطلاسم .

ان ننقد الفكر الديني (1) ، هذا من واجبنا ، لكن من واجبنا أيضا ان نبحث بحرية وموضوعية ، وبعيدا عن التجريح وعن الجلبة وعن ترجمة التعابير والنتائج الجاهزة ، من واجبنا ان نبحث عن آثار ذلك الفكر في سلوكنا وفي تركيب شخصياتنا وفي نظرتنا للحياة وما بعد الحياة ، ومن واجبنا ايضا الجري وراء النقد الواضح والبحث عن اسباب البناء ، لانه لا يكفي ان يكون النقد صحيحا ولا يكفي ان يكون قيما بل يجب ان يملك اسباب التحقيق وان يشير للبديل ...

انه لا يكفيك نصح البدوي بدلق ما يحمله من المياه الكدرة ، بل عليك بالاشارة الى المياه الصافية ...

حتى ننقد ما يفعل في حياتنا وما يؤثر على حاضرنا وعلى مستقبلنا من مؤسسات اجتماعية وسواها ، وحتى يأتي نقدنا واضحا ومتماسكا ، منطقيا او جدليا ... يجدر بنا الهبوط من سماء المجردات الى ارض الواقع المحسوس – هذه ايضا فكرة مادية وجدلية – لكنها فكرةتكلف الكثير من الجهود والكثير من المعاناة لانها تعني عدم الاكتفاء بالافكار المكتملة والمكتفية ، وهي تعني عدم الرضى بكل ما قاله الآخرون .. ما قالوه عن الدين والدولة ، وعن انفصال الروح الدينية عن الروح القومية وانفصال هذه عن الروح الثورية الاشتراكية وما لست أدري ...

اذا اردنا دراسة العلاقة ما بين الدين والقومية ، واردنا ان تكون دراستنا علمية وموضوعية بل وتجريبية ، وجب علينا دراسة الاسلام والعروبة كقيم ومؤسسات اجتماعية علىضوء التاريخ العربي – الاسلامي والاعتماد على مناهج البحث العلمي الحديث واللجوء احيانا للمقارنة وغالبا للخصائص الذاتية :

هناك علاقة خاصة ومتميزة ما بين الاسلام والعروبة ، كما ان هناك علاقة خاصة ومتميزة ما بين ايطاليا والكاثوليكية .. بل هي عندنا اقوى واعمق وابعد فعلا في حياتنا وفي حياة مؤسساتنا الاجتماعية والثقافية .

---

1 – ادونيس : بيان 5 حزيران 1967 . الآداب (7 – 8) 1967 .

2 – محيي الدين اسماعيل : اني اتهم ثقافتنا المعاصرة . الآداب (3) 1968 .

3 – نزار قباني : هوامش .. على دفتر النكسة .

1 – أشارة الى كتاب جلال صادق العظم : نقد الفكر الديني .

هذه العلاقة الخاصة مــا بين الاسلام والقومية العربية لا تنفـي امكانية التعرض للاسلام بالدرس والنقد والايضاح ، كما انها لا تعنـي عدم امكانية قيام القوميه العربية على غير الاسس الاسلامية أو الدينية، لكنها تعني حاجة النافد الملحة للرجوع الـى الناظـم العام المشترك لاوضاعنا الحضارية (الاقتصادية والاجتماعية والثقافية) وعدم الاكتفاء بالتحليل التجريبي لبعض الاجزاء والظواهر المبعثرة .

حاجتنا للافكار الواضحة والمرتبطة بواقعنا تفرض علينا البحث عن بنى شخصية مجتمعنا العربي الخاصة علـى ضوء المفاهيم الانسانيـة العامـة .

اتراني بحاجة للتنبيه الى ان هذا لا يعني نقض العقائد الانسانية كما انـه لا يعني رفض الاخذ بالمناهج العلميـة والعالمية ؟ .ان بعض البلبلة الفكرية في بعض الدراسات التي يصفها اصحابها (بالدراسات الماركسية مثلا) لا تأتي من خطأ في التحليل الماركسي بل مـــن خطـــأ اساسي يكمن في الاخذ بالنتائج والاكتفاء بترجمـــة التعابير واحيانـا الشعارات المرحلية والمحلية .

لقد كانت مشاكل الشرق هامشية بالنسبة لماركس ولـم تشغل الا حيزا ضيقا من وقته ومن تفكيره ، ثم سيطرت على الدراسات الماركسية لقضايا الشرق روح التاريخ الحوادثي ورغبة التحليل السياسي والآني بدل التاريخ الحضاري والتحليل البنيوي كمـــا فعل ماركس بالنسبة للمجتمعات الغربية (١) » .

هذه الناحية الى جانب نواح أخرى ، تجعل مـن واجب المفكريـن العرب الاخذ بالمنهج العلمي الماركسي كمنطلق للتحليل والدراسة وعدم الانغلاق في النتائج المرتبطة الـــى حـــد بعيد بالمجتمعات الصناعية الاوروبية .

ما قلناه عن ماركس والماركسية (٢) ينطبق على افكـــار واشخاص ادم سميث وسبنسر واميل دوركهايم وماكس فيبر وسواهم مـن علماء الاقتصاد والاجتماع الاوروبيين : لقد انطلقوا جميعا من معطيات الفكـر الاوروبي ، ووجهوا معظم جهودهم واهتماماتهم نحـو تحليل البنـى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمعات الغربية ثـم استخلصوا قواعد وقوانيـن ونظريات اسبغوا عليهـا اعتباطا صفة (العالمية) وهي تعني لدى العديد من علماء الغرب : الاوروبية .

اننا نقول بدون مكابرة جوفاء ، ومن غير دعوة للايغال في مغارات الماضي المجيد ، أو دعوة للانغلاق الخانق علـى الشخصية الاصيلة ... نقول ببساطة اننا ما لم نكف عن اجترار مـــا يفرزه الذهن الاوروبي ، وما لم نخرج من دور الانفعال باقوال وافعال الآخرين ، فسيظل واقعنـا وسيظل فكرنا في وضع التابع والمسحوق ، وستظل صرخـــة الشاعر تحمل بعض الحوار الى جانب الكثير من الصدق :

خلاصة القضيه
توجز في عباره
لقد لبسنا قشرة الحضاره
واروح جاهلية (٣)

حكيت عن جور النقاد ، واسهبت بالحديث عن النقد الجائر ،ومن الطبيعي أن نتحدث عن جور الاحداث على النقاد وغير النقاد ، وعـن طغيان الموجات الدعائية التابعة للسلطان السياسي او للسلطـــــان الاقتصادي او للاثنين معا ... ومن الضروري التعرض لوضع الكتـاب المتمادين في احلامهم الملساء الناعمة ، ولوضع الكتاب الغارقين بالتصفيق للانتصارات (التي تروق لهم وتدر عليهم) وللمنقطعين للتأمل السكونى البليد للاحداث وللانتظار الصابر للمعجزات ...

١ ـ اهتم ماركس بالقضية الهندية لارتباطهـا المباشر بمستقبـل الراسمالية في بريطانيا ...

٢ ـ تظل الماركسية اكثر علمانية وموضوعية وعالمية من النظريات الاوروبية الاخرى .

٣ ـ نزار قباني

هؤلاء ـ من ذوي الايدي المغرقة في نظافتها ـ يعيشون على هامش الحياة وما يعطونه لايتعدى الصدى وان حسن لايتعدى حدود السراب.

لكن يبقى رغم وجود الهوامش ورغم كل دوافع السخط وكل دوافع الرفض ، ان هذا الاتهام بالحيرة والتخلف وانعدام الذات ، والـذي يوجه للثقافة العربية المعاصرة ، كل الثقافة العربية المعاصرة ، جائـــر كل الجور...ان هذا الحكم بالاعدام يفتقد الكثير من اصول المحاكمة الفكرية ، انه يحتاج الى مستندات اكثر تعبيرا وأكثر شمولا ، وهـــو يحتاج قبل كل شيء للخروج من عالم الاحكام المطلقة ـ احدى سمات الذهن السحري ـ عالم الملاك والشيطان ، الخير والشر ، السمـــاء والارض ، الروح والجسد ، الشرق والغرب ، الرجل والمرأة ...

يعرف العديد من الادباء والنقاد ومن غير الادباء والنقاد ان بعض الخير يكمن في الشر وان بعض الشر ما يتداخل مع الخلايا الخيرة .

ان يكون في ادبنا الحديث الكثير من الاتباع والمرتزقة والادعياء هذا صحيح ، وان يكون في حنايا ثقافتنا المعاصرة الكثير من الغموض والغامضين ، والكثير من الفراغ والفارغين والكثير من الثرثرة ومـن التصفيق والتطبيل والرقص على الحبال .. هذا ايضا صحيح، وان يكثر في ثقافتنا المعاصرة النقل على قلة الابداع ، وان تشيع لدى العديد من مثقفينا المعاصرين عادة الكسل الفكري رغم الحاح الحاجة للتفكيـــر الجاد الهادف ، وان يحاكي بعض الكبار مـن ادبائنا بسطحية وتسطـح بعض نزوات الادباء الاوروبيين وبعض طفرات الادب الغربي ... هـذا ايضا مما يؤخذ على ثقافتنا المعاصرة .

وان تنزل النازلة على ادبنا الحديث وعلى نافوخ ثقافتنا المعاصرة وان يسرق الحكام ـ ضمن كل ماسرقوه ـ نصف حرية المثقفين وان يتآمر رجال المال على نصف الحرية الباقي ..

كل هذا صحيح ، بل فوق الصحيح .

لكن ، ولاننا لانريد الجور على الينابيع المنبجسة في سهوب واقعنا المرير ، ولاننا لانحب الضرب المتواصل في الصحراء اليباب ، ولاننـــا نراكض امل البحث بحرية وموضوعية واخلاص عن جذور ثقافتنا الحديثة ... من اجل كل هذا نقول ان في فكرنا العربي المعاصر منارات بقيت تبعث الضوء رغم حلكة الليل الطويل ، وان في ثقافتنا المعاصرة مفكرين وادباء وفنانين حافظوا على قدسية رسالتهم حفاظهم على بؤبؤ العين.

ما الذي نقوله عن الذين خرجوا بثقافتنا من مستنقعات القرون الحالكة نحو مطالع النور او مايقربنا من مطالع النور ؟

كيف ندعوهم وقد كانوا رواد دروب وكانوا طلاب حقيقة وكانـــوا حماة للناس وللديار ؟!

انلصق بهم تهمـة الانغلاق وقصر الافاق ؟ وقد جابوا بلادهم ، وارتحلوا نحو بلاد الاخرين ، حاكوا الحضارات ، وامعنوا النظر بنظم العيش ونظم الحكم ونظم التفكير .

أننعتهم بالسلفية ونجمعهم تحت راية الرجعية وقد اعتقوا عقولهم وعملوا على اعتاق عقول الاخرين من عمارة التقليد الاعمى ومن آفة الرجوع الدائم نحو الوراء :

يا قـــوم

وقاكم الله من الشر .. انتم بعيدون عن مفاخر الابداع وشرف القدوة ، مبتلون بداء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل ، وبداء الحرص على كل عتيق .. فلماذا تقلدون اجدادكم في الخرافات والامـــور السافلات ولا تقلدونهم في محامدهم » (٤)

لقد وثب هؤلاء بفكرهم وخيالهم فوق المرحلـة الحالكة ، وفـوق قشور اليأس وقشور التفاهات ، وثبـوا يستنطقون المستقبل ،يستشرفون بالرجاء ، يسكبونه للنفوس العطشى ، ان من دلائل الثقافة ومن شروطها امتلاك قـدرة الوثوب نحو المستقبل ، وقدرة الوثوب وقدرة التخطي الواعي للحاضر لا تعنيان الهيام وراء الاحلام الضبابية ،بل تعنيان اتقان قراءة الحاضر بوضوح ومن ثم استخلاص الرؤيا المستقبلية .

٤ ـ عبدالرحمن الكواكبي : داء التقليد .

من هذه الزاويـة كان رفاعة الطهطاوي وكان عبدالرحمن الكواكبي وكان اديب اسحق مثال المثقف الواعي لشؤون مجتمعه وقضاياه، وكان مثال المثقف العامل للتوضيح وارساء قواعد المستقبل الافضل .

نحن نلهج اليوم بذكر الحرية ونحكي عن محنتها في بلادنا ، ونحن نحكي عن القوميـة وعن الوحدة القومية ونحن نحكي عن المقاومة وعـن حق الشعوب في تقرير المصير ، ترانا نقول شيئا جديدا على ادبنـا الحديث ونفتتح معارك لم تعرفهـا ثقافتنا المعاصرة ؟

« الاستبداد داء ، أشد وطاة من الوباء ، اكثر هولا من الحريق ، أعظم تخريبا من السيل ، اذل للنفوس من السؤال ..

الاستبداد يقلب الحقائق فيالاذهان حتى انه قد مكن بعضالقياصرة والملوك الاولين من التلاعب بالاديان تاييدا لاستبدادهم ، وقد وضـع الناس الحكومات لاجل خدمتهم ، والاستبداد قلب الموضوع فجعـل الرعية خادمة للرعاة » (١)

« قتل امرىء في غابة جريمة لاتغتفـر
وقتل شعـب آمـن مسالة فيها نظر
والحـق للقـوة لا يعطاه الا من ظفر (٢)

... والنشيد الذي انشده الشباب العربي وهو يعاني من سطوة السلطان ومن شيوع الجهل ومن مطاردة الطغيان لكل حبة نـور تلـوح في عين باحث عن دروب الخلاص :

لغة العرب اذكرينا واندبي مـافـات
كيف ننساك وفينا نفحـة الحيـاة
يا بني الشام ومصر وبنـي العـراق
هل نسيتم ذكر عهد طبـق الافـاق
كنتم فيمـا تقضى بهجـة الازمـان
فلماذا اليـوم نرضى حالة الهوان (٣)

كيف نقيم هذه الاشعار التي صارت نشيداً شعبيا ؟ ما الذي نقوله عن القصيدة الصارخة ، اقصد تلك القصيدة التي ارادها الشيخ اليازجي صوتا يوقظ النيام،ونبرة تحرك ما رقدمن شاعر المروءة والنخوة والعـزة القومية ؟

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الركب حتى غاصت الركب

واشعار الذي غادر مكرها وطنه لكنه لم يكف عن محاكاته وعـن التزام قضاياه ومعاناة ماينزل به :

العين بعد فراقها الوطنا لاساكنا الفت ولا سكنا
ريانة بالدمع اقلقهـا الا تحس كـرى ولا وسنا
كانت ترى في كل سانحة حسنا فباتت لاترى حسنا
والقلب لولا انه صعدت انكرته وشككت فيه انـا
...ياموطنا عبث الزمان به من ذا الذي اغرى بك الزمنا
عطفوا عليك فاوسعوك أذى وهمو يسمون الاذى مننا
وحنوا عليك فجردوا قضبا مسنونة وتقدموا بقنـا
ياطائرا غنى على غصن والنيل يسقي ذلك الغصنا
اذكرتني مالست ناسيـه ولرب ذكرى جددت حزنا
اذكرتني بردى وواديـه والطير آحادا به وثنى
ان الغريب معذب ابـداً ان حل لم ينعم وان ظعنا
لو صلوا لي موطني وثنـا لهممت اعبد ذلك الوثنا (٤)

ترانا ونحن ننشد هذه الاشعار ، نحس حاجة الرجوع الى علـم الجمال عند الاغريق او عند هيجل وكروتشه ؟ ام ترانا نحس حاجة المقارنة مع قصائد شعراء اوروبا قصائد الوار وآراغون واغاني لوركا ـ؟

---

١ ـ الكواكبي : الاستبداد
٢ ـ اديب اسحق : الحق للقوة
٣ ـ نشيد احدى الجمعيات العربية في الشام في مطلع القـرن العشريـن ...
٤ ـ من قصيدة (وطني) لخيرالدين الزركـلي نظمت ايـام الإحتلال الفرنسي لسوريـا .

اننا نطرق ابواب موضوع شائك ومشوب بكثير من المشاحنـات وكثير من الدراسات الموضوعية وغير الموضوعية : الشعر الخطابي ... قصائد المنابر ... شعراء اللفظة المنتقاة .. قصائد القوافي التـي تبرق حينا وتغفو في أغلب الاحيان ... ثم قصائد المناسبات ..

وهنا ايضا نحتاج للكثير من الموضوعية حتى لانغرق في ضبـاب الاحكام العامة ، وحتى لانصير ضحايا تلك (الثنائية) الفاجعة : الخير والشر ، الشعر الكلاسيكي والشعر الحديث ، السلفي المقلد والعصري المجدد ، السطحي والعميق ، شعر الخاصة وشعر الجماهير ...

هذه المقابلة المبنية على احكام مسبقه ومسحورة ، تفقدنا حريـة الذهن الناقد ، كما انها تفقدنا روعة تذوق القصيدة بعيدا عـن التعقيدات القديمة والحديثة والخارجة غالبا عن المفاهيم الجمالية ، أليس من الافضل والاجمل ان نكف عن خنق القصيدة بكثرة مانقولـه عنها وكثرة مانطلبه منها وكثرة مما نلصق عليها من تعاريف هائمـة واخرى مقصوصة الجناح واخرى يئن من جورها الجمال الهارب مـن التعاريف ؟

اذا كان الشعر ذلك الكائن المتحرك والمفاجيء فمن حقنا ان نحار امام تعريف ذلك الكائن : تراه وليد حركه مستمرة ام هو مفاجاة بعـد سكينة ؟ اهو تجدد مستمر ام استمرار مجدد ؟

على ابواب يافا يا احبائي (٥)
وفي فوضى حطام الدور ، بين الردم والشوك
وقفت وقلت للعينين :
قفا نبك
على اطلال من رحلوا وفاتوها
تنادي من بناها الـدار
وتنعي من بناهـا الدار
. . . .
احبائي ، مصابيح الدجى ، يا اخوتي في الجرح
وياسر الخميرة ، يابذار القمح
يموت هنا ليعطينا
ويعطينـا
ويعطينـا
على طرقاتكم أمضي
وها انا بين أعينكم
الملمها وأمسحها دموع الامس
وازرع مثلكم قدمي في وطني وفي ارضي
وازرع مثلكم عيني في دروب السنى والشمس

فدوى طوقان لم تخضع هنا لاوزان الخليل كما فعل الزركلي وكمـا يفعل بدوي الجبل بكثير من العذوبة وكثير من الغنائية وكثير مـن الحس الجمالي المعافى من عاهة الاجترار ، لكنها تحافظ على التفعيلة واحيانا على القافية ، وهي تعني بالغنائية ، هذه الغنائية ليست صنوا للطرب او التطريب ، انها قدرة جذب وايحاء وايقاظ والطرب قدرة جذب وتخدير وتنويم ، وهي ، يعني الغنائية ، قدرة تطويع اللغة قصد خلق المناخات الملائمة للموضوع .

هذه الغنائية نجدها في أشعار البحتري والمتنبي وهي تطالعنا طالما ننقل الخطو في حدائق بدوي الجبل التي ترشقنا بالطيب والنور وهي تطالعنا مع عنادل شوقي وامين نخله وصرخات الرصافي والجواهري..

لكنها ـ وهنا المشكلة ـ تشيع في حنايا شعرنا العربي الحديث ، انها تنطلق من شلالات عمر ابي ريشه كما انها تفر كالدوري من اشعار نزار قباني ... وهي ، هذه الغنائية في قلب اشعار نازك الملائكة وبدر شاكر السياب كما انها اغنى ما في قصائد ادونيس الاولى وقصائد فدوى طوقان بل وقصائد شعراء فلسطين الجدد والمجددين .

من هنا تاتي اهمية الفصل ما بين الغنائية وبين الوزن والقافية،

---

٥ ـ منقصيدة (لن ابكي) فدوى طوقان . الاداب العدد(٤) ١٩٦٨ ،

وهنا يكمن خطر اقامة الجدران حول وبين المفاهيم الشعرية ، لكن السؤال مازال مطروحا :

هذا الشعر ، الشعر الذي نتذوقه ونبحث عن تعريفه ماهو ؟

أهو موسيقى ام تصوير ام محاكاة ؟ اهو نزهة عين أم طفرة حس ام صعود فكر على مدارج فكر معرفة ؟ ام هو رؤيا ؟ تراه يجمع معا كل هذه الخصائص ام ينفرد بواحدة منها ؟

والشاعر ، أين موطن الشاعر ومن أين يصطاد الشعر ؟ تراه يحيا داخل الزمان أم خارجه ام بين بين ؟

والقصيدة ، تراها مجموعة ابيات تربطها وحدة القافية أم هي ثورة على القافية قصد الحصول على وحدة القصيدة من خلال وحدة الموضوع ، ولماذا وحدة الموضوع ؟

نحن نعرف اليوم بان الوزن لايبني القصيدة ، وان القوافي ،مهما رقت وعذبت ، تظل قاصرة بمفردها عن خلق المناخات الشعرية .

ونحن نعرف اليوم عمق الصلة ما بين الشكل والمحتوى ، اننا نمل القصائد القائمة على التلاعب اللفظي ، نؤخذ بالشعر الذي يختزن تجاربنا الانسانية ، ومن هنا كانت ثورة الشاعر العربي الحديث على قصائد المديح والترجي والتضرع ، يعني ثورته على الكذب والمراءاة :

اصبت بالقرف (1)

منكم ، ومن اشعاركم : ياماسحي أحذية الملوك

ياخنافس الخزف

ان الشاعر العربي المعاصر ، والمثقف العربي بشكل عام ، في بحث دائب عن النبرة الصادقة حيث تتعانق القدرة الفنية المبدعة مع المعاناة الانسانية ، وربما كان هذا رد فعل طبيعيا على قرون التقوقع والتقية ...

لكننا لاندري اذا كان الشعر العربي بامتياز هو ، اليوم ، شعر التوتر الخارق مابين الاطراف ، ففي هذا التوتر علامة الاستقصاء الاغنى والاقصى . وفيه دعوة الى ان يكون الشعر تجربة كلية تتعانق فيها الشهادة بالموت والشهادة بالنطق : تجربة تتخطى تناقضات الفكر والحياة معا ، وتكون بشارة خلاص من الوضع الانساني الميت ، بشارة بنهاية الانسان القديم من اجل ولادة انسان جديد آخر ، يكون الطبيعة وما وراءها ، الحضور في آن (٢).

هذه المحاولة في تعريف مايجب ان يكون عليه الشعر العربي الحديث تصلح للتعميم الى محاولة لتعريف مايجب ان تكون عليه ثقافتنا العربية المعاصرة ، لكنها ، وفي كلا الحالين ، تظل محاولة تعريف المثال وفي هذا نوع من الانفصال عن الواقع الحي ومن التعالي ومن الشموخ النيتشوي المطلق .

ان يكون الشعر العربي ، اليوم ، شعر توتر ، وان يكون القلق احد ظواهر ثقافتنا العربية المعاصرة ، فهذا حكم صحيح نكتشف صحته حالما نعود الى انتاج مثقفينا المعاصرين ،انه ظاهرة صحة وعافية ، سيما واننا لم نستورده مع كتب كامو وسارتر ومورافيا ، بل احسسناه يسري في عروق وجودنا الحي :

انه قلق الانسان العربي الذي يريد الحياة بهويته القومية التي تحرسها وترويها وتنميها ثقافته الوطنية ، لكنه يريد ايضا اعلان حضوره في القرن العشرين ، قرن المدنية التي تقوم على العمل المشترك بين الامم .

هذا القلق المبدع ليس قلق ثقافتنا الحاضرة فحسب ، انه قلق ثقافتنا العربية ابان نهضتنا الاولى ، قلق عبد الرحمن الكواكبي الذي حاكى مؤسسات الشرق ، وقلق اديب اسحق الذي حاكى مؤسسات الغرب ، انه قلق الطهطاوي والبستاني وطاهر الجزائري واليازجي ... قلقهم جميعا يوم بدأوا يستنشقون الهواء الطلق ويوم بدأوا يتحسسون ابعاد الظلم والجهل ، ويوم اخذوا يستشرفون ارصفة الخلاص ، ويوم بدأوا يطالبون بالحرية ويوم عرفوا بان حرية المثقف تعني مسؤوليته امام الحياة .

ثم ان هذا التوتر ، هذا التوتر المبدع ، كان ذلك الاحساس المأسوي الذي عاناه جبران خليل جبران ، آه ، كيف ننسى جبران وكيف نجور على مي زيادة التي عانت من الظلمات والتي طاردت طوال حياتها اشعة الحياة الجديدة ؟!

واما تلك التجربة الكلية حيث تتعانق الشهادة بالموت والشهادة بالنطق ، فهي تذكرني ببيت المتنبي الجميل :

ان القتيل مضرج بدموعه   مثل القتيل مضرجا بدمائه

اذا نحن قربناها من الواقع تغدو طلبا بالالتزام ، واذا لززناها نحو الفكر تحولت الى مثالية مطلقة ، انها تتوق لتخطي تناقضات الفكر والحياة معا ..

لكن ماهو الفكر وما هي الحياة ؟ ترانا نستطيع الكلام عن امارة الفكر وعن جمهورية الحياة ؟ اليس الفكر وليد الحياة ، شانه في ذلك شان الفعل ؟

انه الفكر ، على ما أعرف واعتقد ، ممارسة حية ، نشاط اجتماعي يخضع لظروف الزمان والمكان ، ومن هنا ياتي اعتقادنا ، بانه يستحيل على الفكر العظيم ان يصنع وحده القضايا العظيمة ، انه من جملة الاسباب الاساسية لكنه ليس بالسبب الكافي .

لقد كانت افكار مونتسكيو وفولتير وروسو وديدرو وغيرهم سببا في اندلاع الثورة الافرنسية لكنها لم تكن السبب الاساسي الكافي ،وهكذا بالنسبة لثورة اكتوبر الروسية وثورة الصين وثورات العالم الثالث .

حتى نتخطى حدود الثقافة التقليدية وحتى نعتق من الفكر القديم ، علينا بالعمل على تخطي الارضية (الاجتماعية ـ الاقتصادية) التي تطالعنا في الثقافة التقليدية والتي ينمو ويترعرع فيها الفكر القديم .

مرة اخرى نقول بان ادباء النهضة العربية قد طرحوا بشكل او بآخر هذه الاسئلة ، وانهم تذمروا مثلنا واحيانا بطريقة افضل واجرأ من طرقنا ، لقد عانوا من الحاح الرؤيا ومن بريقها امام هزال الواقع الساكن وعانوا من تقصير الحاضر السيىء عن اللحاق بالمستقبل الافضل ثم عانوا من سوء الفهم ومن عدمه .

بعد مئة عام ، مازال رجال الفكر العربي في قلب ذات المعاناة ، لماذا ؟ لان الكلمات ، مهما عظم شان الكلمات ، لاتكفي وحدها للهدم وتعوزها العوامل الحياتية الاخرى حتى تاخذ مكانها في البناء .

ما لم نفقه العلاقة الجدلية الوثيقة مابين الفكر والواقع ، فستظل ثوراتنا الثقافية اقرب الى الطفرات الآنية ،التي لا تلبث ان تتحول الى ثرثرة عابثة او توتر حاد يدفعنا الى تغيير تشكيلة الكلمات ..

ان مانريده لثقافتنا العربية المعاصرة ، هو متابعة الدرب المؤدية الى قلب الانسان والى واقعه ، فقلب هذا الكائن يختزن انبل مايصبو الى صياغته الفنان ، ومن واقع هذا الكائن ، من هذا الواقع الانساني تنهل كل الثقافات الحية ومنها ثقافتنا العربية .

باريس   **عدنان ابراهيم**

1 ـ عبدالوهاب البياتي : اقوال ـ كلمات لا تموت ـ بيروت ١٩٦٠.

٢ ـ ادونيس : بيان ٥ حزيران . الاداب .

قصيدة بيزنطية

فليحي ...
من قال الارض مدورة
الغفوة في جفن الليل هراء
من حرك رجليه عن القاع تزحلق
الدنيا تهتز فقاعة زئبق
تتأرجح تحت الانسان عياء
فتضعنا عبر قواربها الاسماء
اصل الريح تباريح غناء
تتلاطم في الصمت ، فيأخذنا الموج ونغفو
فوق الجدران وعبر الالوان المذبوحه
تتصيدنا الاشكال المسفوحه
بعيون الاسماك نراقب ابراج الانواء
فتضيعنا عبر قواربها الاسماء

* * *

الساعة ما عادت ستين دقيقه
فالوقت افول النجمه
والمسرح يمتد هنا ، يتوثب حلمه
تتواكب في ساحته الاهواء

الصوت الاول :
البيضة اصل الاشياء

الصوت الثاني :
اصل الاشياء دجاجه

الصوت الثالث :
اين الاصل اذن ؟

الصوت الاول :
البيضة اصل الاشياء

الصوت الثاني :
اصل الاشياء دجاجه

المسرح يرتج على اهليه
وآلاف الانفاس ببئر الاغماء
ما ظلت الا اصوات الغازين
تدق زوايا الليل بثقل الاصداء
اصل الريح اناشيد بكاء
جفل البيض وما ابقت امطار الريح دجاجه
واخيرا سقط المسرح في قلب الظلماء

آمال الزهاوي

قنديل في الليل الأخرس

يشربُ الملح جفون الصبحِ
يستمطر حزنا وشجونا
وتوارى نزوات الليل نجواك .. فيخبو
لونها الوردي
والاعراس ترتد اشتياقا وحنينا
ويظل الصمتُ في الاهداب
تمثالا خرافيا ... وذكرى وظنونا
لملم الطاؤوس اطراف جناحيه
وماتتْ ضحكة الاعياد فيه
يا مزامير رؤانا
بالدم الساخن .. بالسوط
بأثواب السوافي
عمدّيه

***

انزعي قيدك
يا ريح .. اهجري داري
فقد ضلّ شراعٌ في البحارْ
وتناءت جزر الاحلامِ
عن عينيه
وانهار فنارْ
صوته ينحبُ
فالموجات ... اعصارٌ ... تباريحٌ
غبارْ
أقفر الزورقُ
لا زادٌ ...
ولا ماءٌ
ولا كأسٌ تُدارْ
الندى جفّ على الاغصانِ
أمسى
دمعةٌ حرّى باجفان الصغار
زحف الجرحُ
وغارتْ مدية الخيبة في قلب الكنار
واختفت انشودة .. لاحت
هنيهات ... وامستْ
زبدا ... ظلّ افتراءاتِ
وعار

***

غمر الثلج مروج الوردِ
بالشوكِ
وما زالت غمائمْ
تنثر الطيب ، ترشّ النورَ
في برد المنافي
وعلى السيقان تصطافُ عناقيدُ البراعم
هدبها يزهر ... يخضرّ
ويخضرّ
باصرار الضحايا ... ويقاوم
ينسجُ الجوع وحزنُ الارضِ
والصبح ... ترانيم الملاحم
يوسف الصدّيق
لا تحزن .. بقعر الجب
حبلى
امك الثكلى
ستطفي موقد الدمعِ
التوائم

بغداد

الفريد سمعان

علب الكرتون

قصة

بقلم هاني الراهب

عندما زفرت العاصفة باولى صيحاتها ، نظر افراد العشيرة بعضهم الى بعض . أحدهم اقترح اغلاق المدخل وشد الحبال جيدا . وقال آخرون : الحذر لا ينجي من القدر ، الحبال قوية والاوتاد مكينة ونحن معتادون على شراسة الطبيعة .

وطامنهم هبوب الريح الغربية . لقد جاءت من الغرب وخيمتهم مغلقة دونها . مدخل الخيمة شرقي ، مشرع لاشعة الشمس الاولى والافق البعيد . وماذا لو تهب الريح مئة عام ، ما دامت جدران الخيمة مصنوعة من جلود الماعز القوية ومشبوكة بخيطان القنب ؟

وصاحوا صيحة رجل واحد : ـ العاصفة ؟ لا شيء . عندما نقتنع بجديتها سنواجهها بصدور عارية . ماذا تكون عاصفة بالنسبة لنا ؟ نحن عشيرة التمانعة .

وأضاف آخرون : ـ خيمتنا واسعة واسعة . أوسع من ان تهزها الريح . جبل حقيقي .

واقترحوا : ـ يحسن بنا ان نشعل القناديل فقد اقبل المساء ، وهواء العاصفة يتسلل من تحت الجدران .

ثم انتشروا في ارجاء الخيمة الفسيحة . كثيرون منهم استانفوا اصلاح محاريثهم ، نجروا الخشب الناشز او أحكموا ربط الحبال او طرقوا الحديد والسكك الصدئة . بعضهم اعاد ترتيب صفائح الكرتون بطريقة افضل ، وآخرون رتبوا حزم العفص والدلب . اما النساء فانصرفن الى ايكاء القدور ونفخ النار ، في وقت واحد مع اوضاع الاطفال وجمع الثياب المتسخة .

وفي المساء جلسوا على المقاعد والابسطة في ساحة الخيمة . صفان طويلان بينهما زقاق . وراء الصفين تحلقوا في جماعات صغيرة حول الكوانين وراحوا يستدفئون بجمرها المشع . ردوا على هبوب الريح بوجوه قريرة باسمة وأياد ممدودة فوق حطب الغابات المتقد . صبوا زمجرتها داخل اباريق الشاي المطمورة في رماد الحطب . بينهم سرت همهمة ولغط . وتميز من بين الاصوات قرقرات النراجيل ورشف الشاي الساخن .

وأطل ابو درويش : شاربان كثان معقوفان . فم منكرمش . جمجمة اختفت تحت طربوش مائل متكيء على الصدغ الايسر . جسد اختفت حقيقة كميته او تضاعفت تحت اطواق الملابس : قميصان صوفيان ، صديري ذو تخاريج ، سترة عجوز ، وشروال باثنتين وعشرين طية من الامام ومثلها من الخلف . خف احمر بنعل من الكاوتشوك . واخيرا عصا معقوفة المقبض .

تقدم خطوتين . تفقد الحاضرين بنظرة طويلة متنقلة . طوى سبابته ومسح على نهاية شاربيه . أحس بالعيون والكلمات تنصب عليه بالمنسوب الذي اعتاد ان يرتاح له . عندئذ رفع عصاه واطلقها لتدور الى جانبه ، وراح يدير معصمه معها برشاقة النوابض .

بدأ الدوران يفعل فعله . تخافتت الاصوات . استقرت العيون على ابي درويش . ازداد الناس تحلقا حول المجامر . عادت الالسن الى جحورها . أصوات ثلاثة فقط بقيت وصارت اكثر وضوحا : قرقرة الماء في النراجيل والاباريق ورشف الشاي .

تقدم ابو درويش وعصاه تدور . بلغ طرف الزقاق وعاد . في منتصفه توقف . اركز عصاه في التراب الصلب ومد ذراعه عليها . اطرق وتهزهزت ذؤابة طربوشه قليلا ثم تدلت الى الامام :

.. يا سادة يا كرام ، بعد الصلاة والسلام على خير الانام . فلما فرغ النعسان من هذا المقال وسمعه (عكرمة) مفتاح حرب بني هلال ، تنهد من قلب مجروح وصمم ان يحفظ السر فلا يبوح . واشار له ان دونك القتال وانشد وقال :

يقول الفتى عكرمة من قلب همام	بدمع جرى فوق الخدود سجام
ايا نعسان لا أعطيك سري	وفي سيفي ترى الموت الزؤام
كلمتنا شرف والموت هين	وخلفي مية الف من الانام

والتقى البطلين كانهم جبلين وحان عليهم الحين وزعق فوق رؤوسهم غراب البين ..

فجاة اندفع طربوش ابي درويش بعيدا عن رأسه . لكان يدا سحرية حملته من الداخل وطارت به . ووقف الرجل نصف مصعوق ، ملتصق النظرة بطربوشه المبتعد . أحس انه عار تماما ، فمد يده نحو الطربوش عاجزا عن الكلام .

تعبات الوجوه بالمفاجاة . استيقظت من حلم سادر رخي على حادث كالحلم فعادت الى ذهولها مرة اخرى .

وصاح بعض الرجال : العاصفة ـ العاصفة ـ

وهبوا من امكنتهم مذعورين .

وصاح آخرون : ـ انثقب الجدار . العاصفة خرقت الجلود .

وفروا من مكانهم على غير هدى . خلال لحظات اختلط القوم . هرعوا باتجاه الخرق فامحى الزقاق الموقت . استطاع الجميع ان يروا الخرق الواسع المذهل في جدار الخيمة وتجمهروا حوله . لم يصدر عنهم سوى الدهشة ، والتدافر لاجل مكان أقرب . ولسع وجوههم برد الرياح .

رجل واحد فقط شق طريقا معاكسا : ابو درويش الذي سقطت عصاه ايضا ووضع يده على رأسه دون ان يعي .

استدراك

نعتذر للقراء لوقوع خطأ في رقمي الصفحتين ٣٥ و ٣٧ من هذه القصة . فيجب قراءة الصفحة ٣٧ بدلا من ٣٥ وبالعكس .

بانتهاء الحريق انتهى الليل والصباح . وصعدت الشمس التي لم يروهـا الى مرتفعات السماء . انتهى ساكنو الخيمة الى العصبية وقلة النوم . رؤساء العشيرة قرروا ان الامر خطير ، وانه ما لم تكف العاصفة عن هبوبها فسيكون لكل حادث حديث . وعقدوا اجتماعا في مكان قريب من تلة الرمل والصوان . أبناء العشيرة قبعوا في اماكنهم ينتظرون . شيء من القلق والثقة مازج نظراتهم للمتكلمين والمشيرين بايديهم .قرأوا في وجوههم الجلال العريق وذكريات العواصف الماضية. خاطر صغير من الالم عبر بهم فذكرهم بالماضي : أيام اربعةالابواب المشرعة للشمس والافق ، والاطفال يملأونها صخبا وضجيجا . ثم هبت عليهم العواصف فأغلقوا الابواب الا واحدا . اقنعوا انفسهم بصواب عملهم . صارت الابواب الثلاثة جزءا من الجدران ورأوا في ذلك عين الحكمة . انشأوا نظامـا لحرس الليل ومع ذلك اعتادوا علـى الاستيقاظ بسبب من حوادث القتل والسرقة والاختطاف . والان تجيئهم هذه العاصفة على نحو لم يعرفوه من قبل فتوقظهم وتقض مضاجعهم .

فعل ما ينبغي ان يفعل والعاصفة تقرع جدران خيمتهم . واذ انتهى اجتماع الرؤساء اقبلوا اليهم بنصف امل ونصف صمت . عند ذاك تقدم حامل ورقة وشرع يقرأ :

بسم‌الله الرحمن الرحيم ،

تداول المؤتمرون في امر العاصفة التي اقلقت راحتنا وقطعت نومنا وخرقت خيمتنا . ورأوا ان هـذه العاصفة الظالمة الباغية لن تخيفنا وسنظل اقوى منها بعون الله . وقد اتخذ المؤتمرون المقررات التالية :

١ ـ الصمود بوجه العاصفة .

٢ ـ الاستمرار في الاعمال والحياة اليومية مع الانتباه الى ان العاصفة تستهدف صرفنا عن ذلك .

٣ ـ القاء تلة الرمل والصوان الهزيلة في البحيرة .

٤ ـ الاستغناء عن حزم الدلب والعفص وشراء مزيد من الكرتون .

٥ ـ سد جميع المنافذ والابواب بوجه العاصفة .

والله ولي الامر والتدبير .

أصاخ القوم بانتباه . جالسين او واقفين او متمددين ، شعروا بارتياح عميق . فكروا ان بوسعهم العودة الى ندواتهم ومسراتهم اليومية مرة اخرى . ومثل بخار فتحت له الكوى تبدد قلقهم ، وصفت السماء في أعينهم والارض .

قبل ان يتفرقوا سد مدخل الخيمة جمل هائج يحمل اثقالا ... دخل وتبعته قافلة . استطاع القوم ان يتبينوا حجارة ضخمة لاتحصى. وتراجعوا مذعورين من مشهد الزبد المتكوم على الاشداق ولاذوا باخبيتهم. مع الجمال دخل عدد كبير من الشباب . وفي وسط الخيمة اناخوها وانزلوا الحجارة . كوموا قطع الصخور في وسط الساحة ونفضوا الغبار عن ثيابهم . ثلاثة منهم اقتادوا الجمال الى الخارج وربطوها . باوتاد الخيمة . ونادى منهم مناد :

« يا اهل الخيمة . قررنا بناء بيت من الحجر لا تخرقه العواصف. شيوخنا يقولون لكل شيء غدا . لكننا نحن قررنا العمل فورا .هلموا واعطونا ادوات النحت والحفر . بعد زمن وجيز يرتفع بناء شامخ، لكل منكم فيه مسكن رائع . كل من يتاخر عن تقديم ادواته تصادر ويسقط حقه فيها » .

بين ذهول الناس ، استنكارهم وتعاطفهم ، شعر شيوخ العشيرة باضطراب شديد . للمرة الاولى يسمعون كلامـا لا يقولونه هم .ها هي ذي الحجارة والصخور تملأساحة الخيمة ، والسكان يتلقون الاوامر من شباب يسوقون جمالا مزبدة الاشداق .

وسرعان ما تراكمت ادوات الحفر والنحت . بعض السكان تستروا على ممتلكاتهم منها ، فصودرت وجلدوا في الساحة . وتوزع الشباب الى قسمين ، نحات وحفار . وبدأوا العمل . كل نحات تسلم صخرة وشرع يشذبها . وذهب الحفارون الى حدود الخيمة ليشقوا الخيمة بنثار الصخور ومقتطعاتها . وحدد الغبار معالم الساحة بلونه الابيض . تراكم التراب المحفور في خط متعرج ووقف بارتفاعه ما بين الاخبية والحفارين . تعين على القوم ان يقبعوا في اخبيتهم أو ان يعبروا بينهما طريقا متلويا خلفيا كيما يمارسوا اعمالهم . هذا الضحى وجدوا انفسهم متعبين فلم يخرجوا للعمل . لقد حرمتهم الجريمة والعاصفة من النوم . ما زال الخروج خطرا . وليس نهار من الراحة بكثير على اشقياء مكتدحين .

لكن نسيما قويا من العاصفة التي لم تهدأ ، جعل يهـز أخبيتهم ويتسلل ببرده القارس اليهم . أتعبتهم أيضا محاولة النوم. حتى الاغطية الاضافية لم تمنع تسلل الهواء . تساءلوا في انفسهم من أين يأتي البرد . وبعد لاي فكروا بالاساسات المحفورة . على نحو ما ادركوا مصدر النسيم القارس ، ولاذوا باغطيتهم .

لانهم تعبوا فوق ما اعتادوا من التعب ، ناموا . ولانهم ناموا متعبين أثقل عليهم النوم . أثقلت عليهم المطارق والفؤوس وغبار الحجارة ، أحلام المبنى الجديد والمساكن الصحية ، وامنية واحدة ملحة: ان تهدأ العاصفة .

آنذاك بدأت الصخور تتخذ اشكالا هندسية منسقة ، وترسل الى الاساسات . وبدأت امكنة من الاساسات تمتلىء بالقطع الصخرية الضخمة . لاول وهلة بدا كل شيء في فوضى . لقد انزلت الحجارة الى الحفر ووضع فوقها مزيد منها . ويتوقف العمل حينا اويضطرب بسبب شجار ينشب فجأة بين وجهات النظر . اسمنت امبدون اسمنت؟ ومن أين ؟ وهذا الترتيب للحجارة ،هل هو الترتيب الصحيح ؟ هل اشكالها مناسبة ؟ الغالب من بين المختصمين يهرع الى الحجارة فيزيحها ويدور بها حتى يتراءى له الوضع الامثل فيطبطب عليهاويعود الى العمل .

بعيد الظهر ، ولما يستيقظوا او يتناولوا الغداء ، احدثت العاصفة خرقا ثانيا . انثقب جدار الخيمة في مكان آخر . وانقذفت رقعة الكرتون بعنف وطارت في فضاء الخيمة ثم سقطت على احدى الصخور. خيوط القنب التي ربطتها بالجدار تقطعت . الرقعة نفسها انشرخت في مواضع الخياطة . كلا الخرفين فتحا على ساكني الاخبية سيلين من الرمل وقطع الصوان . وزمجر هزيم العاصفة في رحاب الخيمة . أيقظ النائمين . لسع الوجوه ضربت حجارته الرقاب فقتلت وجرحت . انصب على النحاتين والحفارين وعزلهم بعضهم عن بعض. ملأ اعينهم وثيابهم . اضطرهم الى التراجع او التفرج المفلول او الصيحات اليائسة . من بعيد برز الشيوخ من اخبيتهم بنصف ابتسامة ونصف وجوم . تلفت الاهلون . مرة اخرى طفا على عقولهم السؤال ما العمل ؟

ـ الكرتون . الكرتون .

وهرع الشباب الى المخزن . استلوا رقع الكرتون وقفلوا مهرولين. تجمهروا حول الخرقين ، وقد تمالكوا روعهم . هذه المرة احضروا معهم بزالات وعزقات وثقابات . جماعة منهم قفزت الى الخارج دارت حول الخيمة وواجهت الخرقين .

بدأ العمل . ثقبت رقعتا الكرتون الجديدتان بعناية ، وكذلك ثقب الجدار الجلدي . من الخارج اولجت البزالات لتجمع الجلد والرقعة. ومن الداخل دارت العزقات حول الاجسام اللولبية وشدت الكرتون الى الجدار . وبدأت المطارق عملها فتفلطحت نهايات الحديد . وايقن الشباب انه ما من قوة تخرج العزقة عن بزالها .

اذ ذاك اطلقوا تنهدة ارتياح . ابتسموا ووحوحوا وفركوا راحاتهم . رآهم الاهلون فاسترخت خلاياهم المشدودة .كانهم افاقوا من ذهول نفضوا الرمل عن ثيابهم . التقطوا جرحاهم . ثمة جرحى وقتيلان . الدم وشم على الارض والحجارة والستائر الرمل والصوان توغلا في عمق الخيمة . انتشرا هنا وهناك ،حول جميع الاخبية التي

ببطء وحذر حول محارسهم . كل منهم ألقى نظرة غامضة نحو رقعة الكرتون التي صارت جزءا من جدار الخيمة . رغم صلابتها تهزهزت مع الجدار الجلدي بفعل الريح العاتية . وخمنوا الان انالريح لم تعد تحمل الرمل والصوان ، فقد تلاشى صوت تنقيرهما على الجدار . وظلوا بين الحين والحين يرمقون الجدار الغربي بالنظرة الغامضة نفسها .

في منتصف الليل نامت العشيرة ، حرسا ومحروسين . عندذلك برز من أحد الاخبية زول . اتجه نحو مصطبة صغيرة وتربع عليها فاتحا على ركبتيه كتابا . تناول من جيبه مسبحة . أشعل فانوسا صغيرا أنار وجهه الهرم وعمامته وشيئا من قفطانه الواسع . وبدا انه استغرق في القراءة اذ راح يترنح للامام والخلف ترنحات قصيرة بطيئة .

تبعه آخرون ، كل اتجه الى مصطبة . تربع . تناول مسبحة . أشعل فانوسا صغيرا . فتح كتابا ، وجعل يترنح، وشيئا فشيئاابدأت رائحة بخور خفيفة تنتشر في المكان . وسرت من مجموع اصوات القارئين همهمة حرص اصحابها على خفوتها وهدوئها .

فتاة تدثرت بدثار طويل ، خرجت من اقصى الشمال . تلفتت وراءها بلهفة ثم جلست عند حافة الستارة . للحال تبعتها امرأة تتوكأ على عصا ، وتهدلت على الارض . تناولت يدها المفتوحة وقربتها من فانوس صغير ، وصبت عليها نظرة فاحصة .

شاب مرق من خلف ستارته يحث الخطى باتجاه خباء آخر . عند العتبة تردد قليلا وحك ارنبة انفه . بدأ يرمي خفه وثيابه على انتظار . انزاحت الستارة قليلا فدخل حاملا أشياءه بحرص .

كهل قصير القامة اخرج راسه متلصصا ووثب فدار حول خبائه . امام اصابعه لمع نصل مدية رهيف . واستلقى لينام .

امرأة برزت من الشرق تحمل على كتفها جرة فخارية . فيخطوها تصلب الخائف واصرار المغامر العجول . عند السبيل انزلت جرتها،ومن ورائها تقدم شاب جاء عفو اللحظة فساعدها .انحنى الاثنان فوق ماء السبيل المتدفق ، وخيل انهما صامتان . ثم ذهبا معا الى الخباء الاقرب .

عدد كبير من الشباب انطلق باتجاه المدخل وغادر الخيمة .

رجل اقترب متسرقا من خباء الرجل الكهل . ازداد اقترابا وتيقن من امر ما . دار نحو المدخل . رد طرف الستارة بتؤدة . انسل الى الداخل خفيفا مسرعا .

وبدت الخيمة مثل كهف مسحور . هنا وهناك فوانيس ترسل ضوءا خافتا فقط لتعلن عن نفسها . بتناثرها بدت الخيمة كسماء تغط في الكون الصامت . هدوء جامح يمسح عليها باصابع خفية . سكينة موقوتة تتفلفل في سديمها الذي لا شكل له .ولا صوت لا نامة. ليلة كجميع الليالي ، سوى عويل الريح في الخارج . ليلة نوم واحلام ، وراحت من عناء النهار .

فجاة مزقت السكون صرخة وحشية مرعبة . صرخة انسان طعين . وللتو أعقبتها صرخة مماثلة . خلال ثوان انشقت سكينة الخيمة عن نهر من الصراخ الوحشي . وفجاة تلاشى . اربع دقائق او خمس دقائق أو خمس وفجاة تلاشى .

اقبل أهل العشيرة وسدوا مدخل الخباء . دخل منهم سبعة او ثمانية ومكث الآخرون يتبادلون احاديث هادئة . أقبل الحرس .اثنان منهم دخلا ووقف الباقون مع الواقفين . انقطع الحديث، وافسح الواقفون مكانا عند المدخل . خرج الرجال يحملون جثتين عاريتين لرجل وامرأة . تبعهم الحارسان ممسكين بالرجل الكهل ، وبيد احدهما تحمل المدية .

ـ ادفنوهما في المقبرة .

ـ غدا ، افصل .

ـ كل شيء : غدا ؟

ـ غدا ، افصل .. خذوا الرجل الى النظارة .غدا نحاكمه .

ـ انا معترف بالقتل . ادعيت حب النوم خارج خبائي لاضبطهما بالجرم المشهود . وهذا ما حدث . قتلت لاجل الشرف.

ـ مبرراتك واضحة . خذوا الرجل الى النظارة . غدا ننظر بامره.

ومثلما حضروا غابوا . عاد كل منهم الى خبائه ورد الستارة وراءه وعادت الريح الى اعوالها . اقبل الحرس وحملوا الجثتين . الى يمين المدخل العام ألقوا بهما وعادوا الى محارسهم . هذه المرة استيقظوا أخذوا يدورون في مرابع الخيمة بخطى وئيدة أثقلها النعاس . بعضهم مر امام المصاطب ، وبعضهم تجول بين الاخبية .

لم يطل بهم الوقت قبل ان تقرع الاجراس ويصيح مؤذن العشيرة « الله اكبر » لينتهي بـ « الصلاة خير من النوم » . أثناء الآذان اقترب احدهم من رقعة الكرتون وتلمسها . وبدا،انه فوجيء بأمر ما فاخذ يتشمم ويصيخ السمع مقطبا . ازدادت تشماته عددا وقوة ، واقترب فالصق صدغه بالرقعة . ثم اندفع نحو وسط الخيمة :

ـ النار ـ النار ..

وسرعان ما تجمهر حوله الحراس .

ـ نار ..نار ..

ـ اية نار ؟ ما هذا الخرف ؟.

ـ نار . نار . الحطب يحترق . العفص والدلب يحترق .

وبهت السامعون . تلفتوا بعضهم نحو بعض بارتياب وخوف .

ـ النار . النار . يا قوم . النار في الحطب .

مرة أخرى خرج الناس . التفوا حوله يستوضحونه ، فيما مد ذراعه نحو الرقعة . باقتضاب واضطراب أوضح لهم ان العاصفة أشعلت النار في الحطب الخارجي، وأن الدخان يتسرب الى داخل الخيمة وقريبا تحرق النار رقعة الكرتون .

ـ ايها الابله . العاصفة تشعل نارا ؟

ـ اسكت أنت . احتكاك الأغصان اشعلها . هيا خذوا الماء لاطفائها. هيا ، هيا ، قبل ان تحترق الرقعة .

ـ هاتوا حزم العفص والدلب .
ـ سنخرج لنسد الخرق .
ـ هيا يا شباب .
ـ اين المسؤولون عن الكرتون ؟ هاتوا كرتونة مناسبة . سنخيط الجلود من جديد مع الكرتون . الجلود مهترئة على خطوط الخياطة .
ـ هاتوا الابر والخيطان . ليذهب بعضكم بالعفص والدلب .
ـ انتبهوا جيدا . العاصفة تحمل رملا ، وحصى صوانيا .

لكن الكرتون لم يأت في الوقت المناسب . الذين ركضوا باتجاهه تعثروا بالفوضى والزحام والحيرة . وسار حاملو الحطب طويلا قبل ان يبلغوا مدخل الخيمة . أثناء ذلك ضربت حبات الرمل الاسود العيون فأغلقتهـا ، والوجوه فآلهتها . وتطايرت قطع صوانية صغيرة فجرحت جبينين وثلاث آذان وعنقا . وبدا أن جرح العنق بليغ ، اذ شخب منه الدم وسفح على الكتف والنحر .

صرخ الطبيب : ـ اليّ بالبن . اليّ بالبن .

واناخ الجريح على الارض فحشا جرحه بالبن وغطاه بقطعة قماش بيضاء ، طواها اربع طيات وربط طرفيهـا حول العنق .

صاح الرجال عند الخرق : ((هذا جيد)) . اربعة منهم سندوا رقعة الكرتون ، واثنان آخران جعلا يخيطانها . من الخارج تسلم الرجال الابرة السميكة واعادوهـا عبر الجلد والكرتون .غير ان قطعة الكرتون طارت من بين ايديهم . ومرة اخرى عادت العاصفة الى زمجرتها . ضربت الوجوه بقسوة وانساحت داخل الخيمة كالشيطان .

ـ النار ـ النار ـ أطارت الريح النار .
ـ قفوا باجسامكم بين الريح والنار . ماذا تفعلون ؟
ـ نار الكوانين نطير في الخيمة .
ـ أطفئوا النـار .
ـ يتفرجون علينا .
ـ نموت من البـرد .
ـ قفوا باجسامكم . ماذا تفعلون ؟ تنابل .
ـ أنت هـو التنبـل .

المتجمهرون عند الخرق هرعوا في كل اتجاه . بعضهم ملسوع الوجه بالشظايا المتطايرة ، وكلهم ملسوع الفؤاد . لاول مرة يحسون بانعدام الامان . لقد حرقتهم النار ، وهزت الريح ابدانهم ، داخـل الخيمـة وليس في مكـان آخر . قصدوا امكنة لـم تلفهـا ذؤابات العاصفة . جلسوا مع الجالسين هناك ولكن بعيدا عن الجمر والدفء. على كوانينهم تساقط الرمل والصوان بغزارة . بعد قليـل أطفآها . وغطياها . وقبل ان يتمكـن المنقذون من تثبيت رقعة الكرتون نهضت فوق الكوانيـن تلة سوداء انتثرت عليهـا قطع الصوان ببريق جارح .

رويدا رويدا عاد الهدوء . استمر العمل في رتق العفص والدلب على الجدار الغربي، وزيدت بشكل خاص فوق رقعة الكرتون .

عندمـا عاد حاملـو الحطب ، عطس احدهم العطسة الاولى .كذلك فعل واحـد ممـن شبكوا الكرتون . آثار العاصفة لونت وجوههم،بعثرت شعورهم وثيابهم ، وجعلت صدورهم تعلو وتهبط . وهكذا أزيح لكـل منهم مجلس قرب أحد الكوانين وقدمت لهم اكواب الشاي باحتفال . اسرع الاطباء منهم وفحصوهم ،ثم كشفوا عن اعشابهم الثمينة .وتسابق آخرون الى تدليك ظهورهم وأيديهم ، بينمـا انصرف فريق ثالث الىنزع الاحذيـة وتدليك الارجل . وملأ قلوب المنقذين والمدلكين فرحعظيم.

لم تهدأ العاصفة . لكنهـم لم يخافوا . وكلمـا زمجرت نظـروا باعجاب وثقـة الى ما فعلوه . لقد استطاعـوا في غمرة الذهول والمفاجأة كبح جماحهـا . تحدوا الرمل والصوان بأعين مفتوحة وصدور عارية. كل ما في تكوينهم من صفات نبيلة ايقظته هزة ريح ووضعته بوجـه الخطر الداهم : النخوة ، النجدة ، المروءة ، البطولة ... رعدة خفيفـة جعلتهم يبتسمون ، سرت في أبدانهم عندمـا تذكروا الذعر والفوضى اللذيـن انتشرا في عروقهم بعضا من الوقت . مرة اخرى طفح على وجوههم فرح عظيم . ولم يتمالكوا انفسهم فتبادلوا عبارات التهنئة .

ـ وغدا في باكر الصباح تنزح معاولنـا ورفوشنا تلة الرمـل والصـوان الهزيلـة .
ـ لن تستغرق اكثر من نصف ساعة ، ونرى وجه الارض تحتهـا ونوقـد الكوانيـن .
ـ لماذا لا ننزحها الان ؟ هيا يا شباب .
ـ اجلسوا في اماكنكم ولا تكونوا انفعاليين .
ـ غدا تهدأ العاصفة . لماذا نتعب انفسنا بتلة هزيلة مسخ ؟.

رجل واحد فقط جلس على مبعدة من القوم وكان كئيبا : أبـو درويش . استغرقه وجوم كئيب اعيـا فرحة الجالسين . ومن يدري فلعل الفرحـة نفسها ما أطلق في محياه حوافر الاسى ، محيا شبيه بسطح ماء عكـر مضطرب .

لم يتلفت أحد اليه . واذ اتفقـوا على موعـد الصباح، رغـم امتداد المعارضة ، انطلقت زغرودة نسوية ، اعقبتهـا صيحات مهللة وابتسامـات . وانتصب الشاعر رافعـا يديه امام صدره ، مهيئاشفتيه للكلام . قاطعته الصيحات المتجددة والاكف الملتهبة . واستمرت تقاطعه بيتـا بعد بيت ، فيمـا راح يرتجل ويراقص الكلمات . اخيرا القى بقنبلة :

شرف الوثبة ان ترضى العلى غلب الواثب ام لـم يغلب

فكأنه القاها في الحناجر والاكف . لم يكتفوا هذه المرة بالتهليل والتصفيق . نهضوا من مجالسهم ووقفوا عليهـا ، ثم نهضوا ووقعوا. ((أعد ، أعد ،)) صاحت الاصوات .

شرف الوثبة ان ترضى العلى غلـب الواثـب ام لم يغلـب
ينطح الغيـم شموخـي فعلـي جبهـة الشمس بقايا مضربي

هذه المرة غطت الصيحات على صوت الشاعر . وساد هرج ومرج، وتبودلت انخاب الشاي . من بين الصيحات علا صوت واضح يقول:يجب أن يكتب هذان البيتان بماء الذهب ويعلقـا على جدار الخيمة . وللحال اسرع الخطاطـون للتنفيذ .

في تلـك اللحظـة عطس واحد ممن انقذوا الخيمة والاهل عطسة مثيرة.وقبل ان يعـود الشاعر الى مجلسه عطس ثان من بين المدلكين. انتقل العطس من حنجرة الى اخرى حتى افرخ قلقا . التقت اعيـن الاطباء بصمت طويل . وتحول القلق الى تساؤلات .

ـ هل جاءتنا العاصفة بوباء ؟
ـ اهي تلة الرمل والصوان ما يجعلاننا نعطس ؟
ـ بل اطراف الخيمة . من تحتها يتسرب الرمل والصوانوالريح.
ـ لماذا لم تجدنا الاعشاب شيئا ؟
ـ ما العمل اذا كان الوباء حقيقيا ؟

ثم صمتوا مثل من اكتشف حقيقة كانت مختبئة في ذهنه دون ان يراها . وهتف بعضهم بتذمـر :

ـ قلنـا من زمـان ، يجب ان نبني بيتـا من حجارة .
ـ بيت لا تهزه العاصفـة .
ـ لا تأتينا منه الاوبئة . مجهز بمدافىء حديثة وجميـع آلات الراحـة والتسليـة .
ـ بيت عصري .فيه آلات لضبـط الحـرارة ورصد الانـواء . آلات تربطنـا بالحضارة .

ورد كبار المنقذين : ـ صحيح . سنبدأ في ذلك قريبا .
ـ غدا بعد ازالة التلة ، نرسم خطة لبدء العمل .

واقبل عليهم صمت مفاجىء كان اولى دلائل النعاس . بعضهـم تمطى وتثاءب . أنهوا الشاي شربا ، وتركوا نراجيلهم .

خلال دقائق أوى الجميع الى أخبيتهم . سحبوا الستائر واحكموا الصاقها . لم يبق الا الحرس والعسس ، وقد انتشروا في ارجاء الخيمة وتوزعـوا فيمـا بينهم الكوانين . لـم يبتعدوا كثيرا عن مصادر دفئهم. وعمـد بعضهم الى الكراسي الصغيرة فجلسوا ، وظل آخرون ينتقلون

واجهت الخرقين . لقد اطمأنوا الى اخبيتهم الان . لن يحدث لها ما حدث في الخرق الاول لاخبية تركها ساكنوها الى الممرات والزوايا .

وصاح احد الشباب مطلقا زغرودة فرح وانتصار . تصايح الجميع . قفزوا في الهواء . هزوا سواعدهم وقبضاتهم . تحلقوا حول رقعتي الكرتون الجديدتين في رقصة جماعية تفور نشوة .

عندئذ بدأ ساكنو الخيمة يبتسمون . اقتربوا من الاحتفال بفضول صغير . مزيد من الطمأنينة دغدغ قلوبهم . شرعوا يصدقون الفرحة ويستقبلونها . لقد انزاح عنهم كابوس ثقيل . مرة اخرى طردت العاصفة خارج الخيمة . لم يعد ثمة ما يقلقهم فجعلوا يشاركون في الرقصة ويصفقون لها .

كان لا بد من كنس الرمل والصوان عن حدود الاخبية . وراحت ايديهم تشفط بالمكانس تلك الطبقة الرقيقة وتكدسها فوق التلة القديمة . ملأهم العمل حيوية وثقة . ودغدغ قلوبهم مزيد من الطمأنينة اثر انتهاء الكنس عادوا الى اخبيتهم . استلقوا على مجالسهم ولفهم الهدوء . منهم من تناول الغداء او نام ، ومنهم من انهمك في الحديث الحار . والاخرون بدأوا يستعدون لحفلات الليل .

وعاد الشباب الى النحت والحفر . الخيمة هادئة وساكنة . لكن جو الصمت المقطوع بأصوات المطارق اطلق خيالاتهم فتفننوا في تشكيل الحجارة . نحتوها مستطيلة ومربعة ومكعبة ودائرة . قبيل الغروب ارتفعت اصوات الاحتجاج من الجهة الشمالية . قال بعض الشباب ان هذا التفنن مضيعة للجهد والوقت والحجارة . واصر اخرون على الاسلوب نفسه . انشغلوا بالجدل والمماحكة . تصايحوا وشرحوا آراءهم . ثم عمدوا الى تطبيقها عمليا . وأجريت المقارنات بين الاسلوبين ليكتشف الطرفان أن كلا منهما مصر على رأيه ، مصمم على تنفيذه .

أقبل المساء والحجارة تتقطع دون جدوى . تضاءلت حجومها حتى فقدت قيمتها المعمارية . لم تجدهم تنبيهات فريق ثالث للزمن والجهد والحجارة الضائعة .

اخيرا اتفقوا على استشارة الجنوبيين . وقال هؤلاء : لقد بنينا جدارا طوله متران وارتفاعه متران ، وجداركم ما يزال مترا بمتر . ثم عقد اجتماع طويل ، وثان وثالث . اخيرا قرروا نحت الحجارة مستطيلة او مربعة ، والعمل على وصل الجدارين الصغيرين . قالوا ان التفنن في النحت يكسب البناء جمالا استثنائيا ، لكنهم ، والعاصفة اللئيمة تقرع خيمتهم كالمارد ، قرروا التضحية بالجمال حبا بالانجاز السريع . واعلنوا للناس نبأ مثيرا : لقد قرروا شراء عقل اليكتروني . قالوا ان العاصفة التي يواجهونها من نوع غير عادي . صحيح انها حاضرة دائما . غير انها تخرق الجدار ساعة يتلاشى اهتمامهم بها او تذكرهم لها . سوف يحضرون العقل الاليكتروني ، وسوف يدرسون متانة الجدران في كل بقعة ، وسوف يقيسون شدة العاصفة ، ثم يدفعون بالمعلومات الى جوف العقل فيخبرهم متى يتم الخرق . عندئذ سوف يحسبون للامر حسابا مسبقا . سوف يكونون جاهزين بالكرتون والعزقات والبزالات .

اذ ذاك صفق لهم الجمهور طويلا . علت الصيحات الدافئة محملة بالامل والفرح . امتطى ظهر الجدارين شابان ولوحا بايديهما ، وعلى جدارين اخرين فعل الشيء نفسه ثالث ورابع . واستمر الهتاف والتصفيق حتى كاد أن يقطع سهرات الساهرين .

اخيرا شكلوا وفدا مهمته شراء عقل اليكتروني ، وارسلوه في الحال .

ثم انفضوا كل الى خبائه . بقي فرسان الجدران الاربعة . لامر ما أعجبهم البقاء في الاعالي . وطفقوا ينظرون الى الاخبية والساحة والناس ، وقد وقعت كلها تحت ابصارهم . ابتسموا وتمشوا على الجدران . نادوا فاحضرت لهم الوسائد والفرش والالحفة . وهناك استلقوا واغمضوا اعينهم .

تلاشى الضجيج وغمر الهدوء الخيمة . اقبل الليل ، عاد صوت العاصفة الرتيب ينسحب على الآذان كاصوات الزيزان في حقول الصيف . كان أقل اثارة للانتباه من اصوات الضحك والموسيقى التي رفرفت حول اخبية السهر والسمر . اصوات غنوج متقطعة ، متفاوتة النبرات ، ملصقة بوجه الزمن المسرع .

خرج الحرس الى محارسهم ، والقارئون الى مصاطبهم . من جديد اوقدوا الفوانيس . لم يكن لهم أن يرتاحوا هذه الليلة . الاصوات تقطع القراءة والنوم . الضحكات تحك مشاعر مستترة . لكن القارئين صمدوا وتابعوا دقائق واذا هم غائبون تماما عن لجيج الاخبية وضوضائها . عادوا الى ترنحاتهم القصيرة واكبابهم الطويل . وعادت اصابعهم تفرد حبات المسابح دون ان تعدها .

وحدهم الحراس قلقوا . عليهم ان يعرفوا كل شيء لئلا تفاجئهم الاحداث . وأنفذ رئيسهم سبعة يدورون بين الاخبية ويعودون بجدول دقيق عن نشاطاتها ، ليعرف كيف يوزعهم .

وذهب السبعة يطوفون في رحاب الخيمة .

بعد ربع ساعة عادوا ووقفوا امام رئيسهم .

وقرأ الاول : « حفلة تنكرية بمناسبة بلوغ محمد ابن الوجيه مرزوق العطاش عامه الحادي والعشرين يرافقها تحضير الارواح بالسلة والفنجان وتنويم مغناطيسي للشاب محمد العطاش . حفلة راقصة في معرض للاساور والاقراط والعقود مع نمرة تعري تقدمها الراقصة منى سعد » .

وقرأ الثالث : « حفلة عشاء بمناسبة سفر فؤاد شاكر وضحوك رزق الى باريس ، وستحمل العروس معها الخضار المفرومة والبرغل والزيت فضلا عن الكبة النية والمقلية والحلويات العربية للاحتفال بالحدث السعيد » .

وقرأ السادس : « مسابقة لانتقاء ملكة جمال الاخبية الجنوبية . أبرز المشتركات فيها ارليت حداد وجليلة شرف الدين ونايلة بريدي وليديا خياط وخديجة عزام ، اما الجوائز فستكون مفاجأة للجميع وخاصة الملكة الفائزة .

حفلة يقيمها علي نورالدين بمناسبة مجيء طفله الثالث الذي اسماه ايهاب . عرض لمسائل طبية وقضائية واجتماعية ونفسية يشترك في تقديمه نادي الساعة الخامسة والعشرين » .

وقرأ السابع : « آخر جلسة لنادي الاشبال الرياضي الفني ، وسيتم فيها انتخاب الهيئة الادارية التي يؤكد انها ستفوز بالتزكية . ميادة سنجقدار تقيم حفلة وداع لعشيقها امير ابوكف وستعود بعدها لمتابعة عملها التربوي في معهد (أغراس الحرية) كمديرة ومدرسة » .

واشار القائد ان كفى : « لا شيء . حفلات ومناسبات لا طعم لها ، اعتدنا عليها . لكن لا اريد ان ارى نائما منكم ولا واقفا ولا جالسا . بالامس حدثت جريمة قتل لانكم نمتم . نحن لنا صنعة هي القيام بالواجب » .

وغادرهم الى خبائه .

نظر الحراس بعضهم الى بعض ، ثم تناثروا في ارجاء الخيمة . بعد وقت قصير نامت الخيمة وحراسها . لم يبق الا القارئون والريح العاصفة . خبت اضواء القناديل . وسحت بدلا منها ذبالات الفوانيس . مرة اخرى بدت الخيمة مثل سماء مسحورة ، غامضة كمجرة مغلقة كانون .

من خباء قرب منتصف الجدار الشرقي خرجت صبية تتلوى ، تضع يدا حول بلعومها واخرى حول بطنها . سقطت باعياء . نهضت . تلوت . تجرجرت . سقطت على ركبتيها ورأسها . انطرحت على خاصرتها . استلقت على ظهرها . ارتمت يداها الى جانبها . همدت مفتوحة العينين .

من خباء ثان برزت امرأة توسط كتلة متموجة من النار . اندفعت يرعب الموت نحو ماء السبيل وأغرقت نفسها في بركته . بعد دقائق

طفت على سطح البركة جثة منتفخة .

من خباء ثالث اندفع رجل يعدو ممدود اليدين مستطير البدن . وراءه اندفع اربعة رجال يحملون المدى والمسدسات . بريق خاطف ومض وامحى . كبا الرجل ارضا ثم نهض . عند مدخل الخيمة ادركوه. بسرعة الريح ركع على قدميه . لف ذراعيه حول رأسه ورقبته . تكوم فوق بطنه وحجره . اذ ذاك انهالت عليه الطعنات والرصاصات الصامتة ، على رقبته ومنكبيه وخاصرتيه . ظل راكعا منكوما حتى انهار على الارض مشرع الصدر لمزيد من القتل .

من أخبية خلفية خرج عدد من الشيوخ . احدهم حمل على ظهره حزمة . توجهوا نحو الجدار الشمالي وطوفوه . بهدوء فتح الحزمة حاملها واخرج منها شبكة من حبال القنب . امسك الشيوخ بها . بهدوء رموها فوق الجدار . احدهم شد حبلها الرئيسي فانشدت بدهاء والتصقت بجسم الجدار بقسوة . حملوا الحزمة الى الجدار الجنوبي . أحدهم نظر الى الاعلى فوجد الشاب مستيقظا . ولوا الادبار.

من خباء في الوسط خرج رجل كهل يجر فتاة من شعرها . كلاهما صامتان . تقدما حتى ساحة الخيمة . دفع الكهل الفتاة بكلتا يديه . هوت الفتاة على صخرة . شج رأسها . صرخت صرخة مكتومة . انحنى الرجل فوقها . أمر على عنقها سكينا لامعة . صرخت صرخات مكتومة . تابع الرجل مهمته . شخب الدم كالنافورة . انهمر على الصخور . اخيرا سقط الرأس بين المقتطعات المتناثرة . رفس الرجل جسدها فانقلب على سرير من الحجارة . برز بطنها المنتفخ .

من لا مكان اقبل رجال ملثمون . تلفتوا حولهم بحذر . دخلوا خباء وسط الخيمة . اثنان منهم خرجا برجل مكموم الفم . ربطاه بالحبال. اسقطاه ارضا . رفساه . خرج الباقون يحملون صندوقا . تعاونوا على حمله اثنين اثنين . اختفوا .

رجل يرتدي عمامة وجلبابا هرول من اقصى الشرق . يده مضمومة على جراب منتفخ. عند اول الساحة تعثرت قدمه بحارس نائم . اختل توازنه . سقط الجراب وتناثرت قطع رنانة غزيرة . افاق الحراس على صوت القطع. امسك بالرجل . تفرس في ثيابه سحبه الى اقرب القارئين . تبادل مع القارئ كلاما . التفت الى الرجل . لطمه . نزع عمامته وجلبابه . اقتاده الى المركز .

صبي جاء الى لوحة بيضاء وعلق عليها صحيفة . وقف يقرأها: « حرام ارتداء النساء للثياب القصيرة لانها تظهر العورة . حرام ذهاب المرأة الى المزين لان رجلا اجنبيا يلامس شعرها . حرام ابداء المرأة زينتها لغير زوجها . حرام مشاركة المرأة في الاجتماعات العامة لانها تثير خبيث الغرائز .» ورجع الصبي الى مصطبة قريبة تبادل مع القارئ النظر والكلام وقفل عائدا الى خبائه .

من مكان ما ارتفع صوت المؤذن مهيبا خاشعا يدعو المؤمنين الى الصلاة . وسرعان ما تقاطر الناس الى جوانب الساحة . بعضهم قصد ماء السبيل فتوضأ وعاد الى الساحة . ومن مكان اخر علا رنين الاجراس عذبا صافيا .

أنهى المصلون صلواتهم . وعادوا الى الاخبية . الخيط الابيض ظهر الان واضحا خفرا . صاح ديك ونبح كلب . استيقظ الحراس فشدوا ثيابهم وتمطوا ثم شدوها ثانية . عثروا بالجثث فبداوا يسجلون المحاضر . وقصدوا الاخبية للسؤال ورئيسهم للابلاغ .

مع شروق الشمس انشق مدخل الخيمة عن جسم هائل الحجم . تهزهز وهو يتقدم في الخيمة كعملاق ثمل . حوله تكاثف عدد من الشباب يدفعونه ويتدافعون معه . وسرعان ما أزيحت الحجارة ومقتطعاتها لتفسح مكانا للعقل الجديد .

تجمهر الناس والشباب مشدوهين فضوليين . احدهم لمح الجدار الشمالي فصرخ . ركض وآخرين الى الشاب المقيد على الجدار وفكوا قيوده . وجدوه ميتا .

عادوا يسالون العقل عن القاتل فلم يجب العقل . انتابهم قنوط اليم . توقفوا عن الحركة . بعض الناس سخر وبعضهم أشفق .

وصاح احدهم : ـ المعلومات المعلومات . اعطوا العقل المعلومات.

هيأوا المعلومات بسرعة وغزارة . كتبوها ودفعوا في جوف الآلة بصحيفة ضخمة ، ثم اداروا زرا . بعد ثوان سقطت بطاقة كرتون صغيرة في جرن صغير : جميع الشيوخ هم القتلة .

سرت بين الحشد همهمة ولغط . وارتفع الصوت فصار ضوضاء وضجيجا . اقتربوا من الآلة باعجاب ورهبة . عاينوها وداروا حولها. وظلت هي خرساء كتيمة معدومة الحواس . أحد الشباب دفع اليها بورقة تحمل معلومات ، لتخرج بعد ثوان بطاقة كرتون صغيرة : مستقبلها عظيم، قائد له شأن خطير . عندئذ صدرت اصوات وصراخ وضجيج . ازداد الناس اقترابا فاضطر الشباب الى ضرب طوق حول الآلة ليمنعوهم من الوصول اليها . وبدأوا يمارسون تجربتهم المثيرة كل بدوره أسرع يكتب المعلومات عن حياته وامكاناته ويدفعها في جوف الآلة. يضغط على الزر وينتظر . وتخرج البطاقة حاملة صورة للمستقبل.

اشتدت الجلبة والتعليقات . وفي المرة الرابعة اعطت الآلة جوابا مخيفا : القتل بعد عمر قصير . وانتابت الشاب ذا المستقبل الاسود نوبة كآبة عنيفة . جلس على الارض بين سخرية زملائه واشفاقهم . جميعهم آمنوا بتبصير الآلة فآمنوا بمصيره المرتقب . اعتبروا نتائج اعمالها غير قابلة للنقاش . ههنا عقل يعمل بالارقام لا بالفراسة. ليس فنجان قهوة ولا راحة يد ، بل عقل رياضي لا أهواء له ولا حواس .

إمام هذه الواقعة عمد الشاب الى تنقيح المعلومات والارقام .وبعد حين عمدوا الى تحريفها ، ثم تزويرها . وجاءت النتائج باهرة :المستقبل المشرق ، النصر ، الرفعة ، السعادة ، الزوجة المخلصة الجميلة المطيعة النسل الكثير والعبقري ..

وراح كل منهم يستل بطاقته من جرن الآلة ويضعها في جيبه العلوي كثرت الابتسامات والتعليقات . كذلك كثرت البطاقات . وازداد الاطمئنان للمستقبل والثقة به . ازداد فرك الايدي واصوات الوحوحة. وضجت الجماهير طربا واعجابا. أخذت تطالب برؤية مستقبلها ومصيرها. اثر كل سقوط لبطاقة يرتفع منسوب التوتر والترقب، يرتفع الصياح والمطالبة .

اخيرا انتهى الشباب من عملهم . كل حمل بطاقته وانفرش على سرير من الطمأنينة والفرح .وبدأ دور الجمهور . اقترحوا التنظيم لتسهيل العملية . وسرعان ما توازى الناس صفوفا وانتظروا . صعد بعض الشباب على الجدران الحجرية . وبدأ العمل :

النتيجة الاولى : جاسوس يعمل لمصلحة المخابرات في خيمة اجنبية . مصيره الشنق حتى الموت .

النتيجة الثانية :مخلص ، رب عائلة ممتاز ،يكسب قوته بعرق جبينه ، وظيفة مجزية قريبا .

النتيجة الثالثة : ذكي، مرن ، يحسن التكيف واصلاح ذات البين. مركز قيادي هام .

النتيجة الرابعة : خائن ، كان سعيدا في الخرق الاول والثاني. مصيره الاعدام بالرصاص

النتيجة الخامسة : شارك في قتل الشاب على الجدار الشمالي. مصيره السجن المؤبد .

النتيجة السادسة : دؤوب على العمل ، قنوع ، خال من الاطماع. مستقبل حافل بالبنات والبنين .

النتيجة السابعة : معاد لنحت الحجارة وحفر الاساسات .يتكيف في المستقبل مع ضرورات الصمود بوجه العاصفة .

النتيجة الثامنة : امكانات ممتازة للعمل الحرفي . اختراع في المستقبل يحسن انتاج الحرير والاقمشة .

استمر العمل واستغرق وقتا طويلا . احد الشباب اقترح اعتقال الجواسيس والخونة واعداء النحت والحفر، فاعتقلوا . وفيما الاخرون منهمكون في رؤية المستقبل نصبت مشنقة ودق في الارض اسفين من

الخشب . شنق من يستحق الشنق ، وربط بالاسفين من يستحق الاعدام واعدم بالرصاص .

عند الظهر ،وفي قلب الحميا واصوات البشر والرصاص حدث الخرق الثالث . ثلاثة مواضع اخرى انفجرت من جدار الخيمة بدوي قاصف وهزيم مريع . تدفق الرمل والصوان كما لم يتدفق من قبل. ضربا الوجوه والاخبية والحجارة والجدران ولوحة ماء الذهب .تطايرت اثواب وعمائم ورفرفت شعور ، التفتت الاعين لتنصلب على الجدار الغربي والخروق الخمسة ، مأخوذة بالمفاجأة والذعر والسقوط .تلفتوا حولهم مثل من يبحث عن شيء غامض وبالغ الاهمية . هالهم ان يروا خيمتهم تعلو وتهبط . ومع كل ارتفاع يندفع سيل من الرمل والصوان ضاربا ارجلهم وسيقانهم مثلما يضرب سيل اخر رؤوسهم وصدورهم.

بعضهم سقط على الارض . وبعضهم مزقت الريح ثيابه وعرته . وبعضهم ظل واقفا . وبعضهم قتل . وبعضهم تعباه الذعر فانطلق يعدو بغير ما هدف . اطلقوا سيقانهم للريح . اصطدموا بالحجارة ومقتطعاتها فسقطوا وانجرحوا . اصطدموا بالستائر فقوضوا الاخبية. سقطوا في بركة السبيل . بالمصاطب . لكنهم لم يتوقفوا . ابتعدوا اولا ثم التقطوا انفاسهم ، ووقفوا يلهثون .

اذ ذاك بدأوا يفكرون . كل شيء الان في مهب الريح.خمس فجوات عراض في الجدار . سحب الرمل والصوان تنهمر على ابدانهم . رفع الكرتون اشلاء ممزقة . جسم الخيمة يعلو ويهبط كبالون مربوط . الاخبية تتساقط . لا بد ان الاوتاد تخلعت او تخلع بعضها وارتج البعض الاخر . حاولوا ان يتحركوا ، فاصطدموا من جديد بالاخبية وقطع الحجارة والجثث ثم توقفوا ثانية . كيف يتحركون ؟ الى اين؟ ما العمل ؟

تقاطر الكبار الى جدران الحجارة واجتمعوا . انتظر الناس نتيجة امرهم . لم يطل اجتماعهم . اعلنوا بيانا مقتضبا ، انفضوا : الصمود حتى تزول آثار العاصفة .

تلفت الناس حولهم في حيرة واستفهام . بحثوا عن ملجأ أومستتر.

دخلوا في اخبيتهم الباقية . استتروا بالحجارة وجمعوا حولهم نثراتها بالزوايا وبين الاخبية . غير ان العاصفة لم تترك لهم فرصة للطمانينة . لقد لاذوا بشيء ما لكنهم لاذوا به متوجسين من الزمن المقبل . من تراه يخبرهم عن آخر وتد يتخلع تاركا خيمتهم للفضاء ؟من ترى يدلهم الى ما يفعلون ؟

ولفت انتباههم صوت يصيح في منتصف الساحة :« من حسن الطالع اننا لم نمت ولم تسقط الجدران الحجرية .» وعرفوا فيه احد المؤتمرين .قال : « نحن لم نحسن استخدام العقل الالكتروني .انشغلنا عن بناء الجدران ، بفك الغاز بلهاء ونمنا فوق الجدران » .

من فوق مصطبة بين اخبية صاح احد الرجال :« هذا عقاب الله. لقد الم بنا هذه المحنة واصابتنا هذه المصيبة لاننا لم نخلص في ايماننا ولم نتق عقيدتنا في سلوكنا ولم نطهر نياتنا في عملنا . ولو اننا تمسكنا بالعروة الوثقى والمبادىء الخالدة لما تشتت شملنا وتقوضت خيمتنا . اننا مهددون بالفناء » .

وصاح ثالث : « ان السبب في هذه الكارثة تقصيرنا في استعمال العقل الالكتروني . كان يجب ان ناخذ باسباب العلم . كان يجب ان نقتني موازين حرارة ومراصد جوية فنعرف متى تهب العاصفة ونستعد لها . هذه هي الحقيقة . وهذا هو الحل: العلم ، ولا حل آخر ».

وصاح احد الشباب :« السبب هو هذا الشعب الذي لا يفعل شيئا . تخرق العاصفة جدار خيمته وهو واقف يتفرج. ينتظر معجزة تهبط على العاصفة فتوقفها وتطردها . تنابل . عشرون رجلا يحملون سياطا يسوقونها انى شاؤوا ».

وقاطعه احد الشباب : « بل نحن اهملنا الشعب » .

فقاطعه احد الشيوخ: « بل السبب انتم . الشباب الذين جعلتم خيمتنا مثل المقلع،مثل المقبرة. لو اهتممتم بالاوتاد فثبتموها،وبالجدران فدعمتموها لما حدث ما حدث . انتم السبب » .

وصاح رجل آخر : « نحن كلاب ، حشرات ، سائمة ، طوبى للبلاهة من الشرق الى الغرب » .

وصاح أحد الشباب :« نحن جميعا السبب . لم نفكر في العاصفة. كلنا » .

تعددت الصيحات وتقاطعت . انتشرت في الاخبية وبينها ، في الزوايا وفوق المصاطب . علت وتفاقمت فامتزجت بزمجرة العاصفة، واختلطت الكلمات بالرمل والصوان . وبين اللعنة والنكتة خرج المختبئون من مخابئهم ليقولوا كلمتهم . هم ايضا اختلطوا . استشهدوا بنتائج العقل الالكتروني لتبادل الاتهامات والادانات . وبلغت الاتهامات مدى لم تعد الكلمات فيه تتجاوز القول الى السمع .

وكان ثمة همس . وجوه شابة رصينة تتبادل كلمات قليلة، وهي هادئة ثابتة التقاطيع . ثم جلس الشباب على الارض وبدا احدهم يكتب. بسرعة انتهت الكتابة . نهضوا . تقدموا من اللوحة والصقوا بيانا. احدهم اقترب وقرأ بصوت عال :

برنامج للعمل

١ ـ تثبيت الاوتاد .

٢ ـ الاستمرار في البناء بالاسمنت المسلح .

٣ ـ تنظيف الخيمة واحراق الجثث والنفايات في الخارج.

ونادى : « موافقون ؟ «فمدوا ايديهم وصنعوا منها جدارا .

وضربتهم الساعة موجة رمل وصوان فقتلت اثنين،لكنهم لم يبالوا .كل واحد منهم تناول شماخا فلف به رأسه وعنقه وفمه . وببساطة نهائية توزعوا الى ثلاثة اقسام : اولها خرج من باب الخيمة وثانيها عمد الى تلة الرمل والصوان فاجرى عليها ماء فيما شرع بعض افراده بصنع مداميك الخشب المزروعة بالحديد ، وثالثها هم بالجثث فجعل يخرجها ، وبالمكانس فبدأ بالخيمة من جميع اركانها .

دمشق

هاني الراهب

صلوات للأشياء العاشقة

انني الشاعر يا مولاي ،
ضلعي ريشة
وجبيني الورقة .
وأنا الحلاج يا مولاي ،
والحلاج في كل العصور
عالق بالمشنقة .
ولــــذا
تبرك الامطار في قاعي ، وتخبو الريح في حنجرتي
وغبار الصيف زيت ، دلكت وجهي بــه الريح ، وحنت
رئتي .
ولذا ، تسمع في صوتي ضجيجا ،
ولذا ، تسمع في صوتي احتضار الحشرجه .

قتلونــي !
ولمــاذا قتلوني ؟
انني أنهض من قاع تواريخي، على كفيّ تمتد الخرافات،
فتبكي ، وتنام
تتمشى في عروقي، غير ان المدن الملقاة في القاع، مشت
فتحت ابوابها
ومشت
فتحت للداخل المتعب فخذيها ، فنام

وأنا الحلاج يا مولاي ،
لكنّ الاغاني
قتلتني .
لم ازل فوق صليب الحزن مرميا ، وكل الصلوات
صدأت تحت دمي
وفمي يحتفظ ــ الآن ــ ببعض الكلمات
صلبوها .

صلبوها في فمي .
سيدي
كل حمامات الصباح
ذبحوهــا
واعاروني الجناح

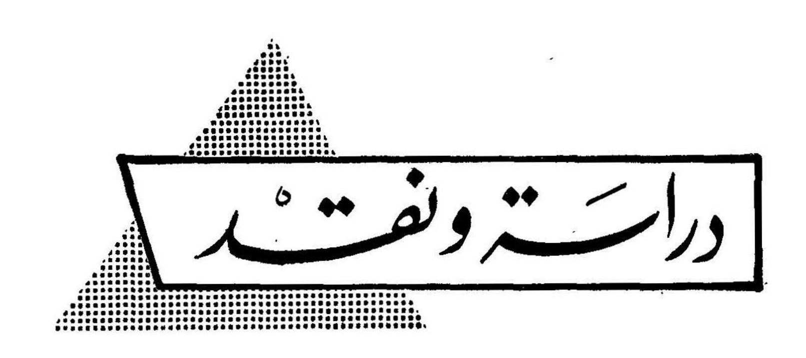
سيدي ، جئتك من قاع التواريخ ، وفي حلقي ندبه
حشرجت صوتي
وفي حنجرتي
حجرٌ يحرس موتي
انني الشاعر يا مولاي ، وجمعي امةٌ
تنحني ، تفتح نهديها الى الريح ، تغني ، تتطهر
امة كنت من الشعر ، تسوي دمعها خمرا لغلمان خليفه
امتي ، جلدي لها الارض ، واضلاعي سقيفه
انني جئت وفي حلقي ندبه
شاعرا ، يبعثني الرب اليك
فتقبّلني لديــك
سادنا يمسح عن عتبتك الحناء ،
يستقبل في الباب الاضاحي .. والنذور
سادنا يحمل في عينيه قرطاس البخور
فأغثنــي
هاربا جئت وفي حلقي ندبه
فأغثنــي
انني جئتك من ارض بها السلطان لا يعرف ربه .
وأغثنــي

انني جئتك من ارض ، وهذي الارض ، يا مولاي
امرأة تموت
رجموها ، امرأة حبلى ــ ولما سألوها ــ :
ــ عاهر أنت
ولاذت بالسكوت .
ــ عاهر انت . فقالت :
انه السلطان القى بين فخذي وطن
انه السلطان ، يا شعب ، لعلي امرأة تحمل فــي الرحم
نبيــا

ــ عاهر انت ،
فهذا الرحم لا يخصب في الصيف وليدا
عاهرٌ انت وفي الرحم وثن .

فأغثنــي
انني جئت وفي حلقي ندبه
انني جئتك من ارض بها السلطان قد ضيع شعبه

بغـداد — **نبيل ياسين**



ديوان محمد ابو سنة حديقة الشتاء

بقلم الدكتور محمد عيد

ـ ١ ـ

هذا هو الديوان الثاني للشاعر « محمد ابو سنه » بعد ديوانه الاول « قلبي وغازلة الثوب الازرق » وبين صدور الديوانين مدى زمن قصير، ولهذا دلالته بالنسبة للشاعر وشعره ، اذ يواصل الشاعر دوره الواعد ليحتل مكانه بين شعراء جيله الشباب وليؤكد معهم ـ وفي طليعتهم ـ حركة الشعر الجديد بعد ان زاد طريقة شعراء الجيل الذي سبقه، فتحملوا مسئولية الدهشة والانزعاج والمعارضة التي تلقى بها المثقفون العرب والشعراء التقليديون ـ بصفة خاصة ـ الحركة الشعرية الجديدة التي ما زالت في حاجة حقيقية للانتاج الاصيل الخصب كديوان « حديقة الشتاء » والى الامكانيات المتفتحة الجديدة التي تتاهب وتنطلق وتواصل الابداع مثل : « محمد ابو سنه » .

ولست أنوي في هذه الدراسة ان أقدم موازنة بين مرحلتين اوبين ديوانين للشاعر فان ذلك في حاجة الى جهد مستقل لم يحن اوانه بعد ، اذ يقصد به تحديد مراحل تطور الشاعر وفنه ، ومن السابق لاوانه بالنسبة لشاعرنا ان يتحمل الان هذه الموازنة فهو في بداية رحلته الفنية تهديه موهبته وثقافته الى ما يقول ، ومن الظلم ان يقال له الآن (لقد قلت من قبل ولم تقل من بعد) او العكس ،فما زالت (بعد) بالنسبة له طليقة مملوءة بالضوء .. والآمال .. والوعود .

انما الذي أنوي ان اقدمه هو حصيلة قراءة يقظة متأنية للديوان ثم معاودة للقراءة ايضا بنفس اليقظة والتأني، مع تنحية الافكار المسبقة والنظريات والمذاهب التي تلون هذه القراءة فتوجهها احيانا الى غير ما قصده الشاعر ، حتى اتيح لي ان اتودد الى شعر الشاعر وان اخالطه ثم أعايشه واتعرف عليه ، ثم تحدثت عما عرفت في هذا المقال .

وتتناول هذه الدراسة امورا اربعة هي على التوالي : دور العبارات الجاهزة ـ الحكم والامثال ـ في الديوان ـ ومظاهر الانطواء واليأس والخوف في بعض القصائد ثم قضايا الشعب وبخاصة حريته الفردية والاجتماعية التي عبرت عنها اروع قصائد الديوان واخيرا لغة الديوان واسلوبه ووزنه العروض .

ـ ٢ ـ

هناك بعض التجارب التي يتشابه في ممارستها الناس والاشياء، فاذا قدر لاحد الواعين ان يلاحظ تلك المشابهة صاغها في عبارة واحدة تستخدم كلما جدت ظروف مشابهة حيث تشيع بين الناس فيتناقلونها معجبين بها محتفين ، وربما نسيت ظروفها ومن قالها وربما لا تنطبق بطريقة حاسمة على كل شيء مشابه ، لكنها مع ذلك تبقى شائعة بين الناس تتناقلها الالسنة ، وتستخدم في كثيرمن المواقف والظروف ، وقد اطلق على هذه العبارات في تراثنا القديم اسم « الحكم » وما يزال بعض الادباء في عصرنا يؤلف ما يقرب من الامثال والحكم ليذيل بذلك فكرة قصيرة او مقالا صحفيا ، ومن ذلك ما جمعه اخيرا الاستاذ « انيس منصور » في كتاب بعنوان : (قالوا) ، وهذا ما اخترت له في الحديث هنا اسم «العبارات الجاهزة» .

وفي « حديقة الشتاء » تتناثر العبارات التي تعبر عنها احيانا مقاطع كاملة تكون هي الهدف من القصيدة كلها ، وقد يصرح بتلك العبارات بالفاظها وقد لا يصرح بها ولكن لا يخطئها التأمل اليسير لبعض القصائد ، فلنقدم اولا نماذج لتلك الطريقة في الديوان ، ليستبين لنا الرأي فيها بعد ذلك .

في قصيدة (آخر ازهار الموسم ص ١١) لقاء حدث مصادفة بين اثنين كان لهما ود قديم ، حيث دارت بينهما احاديث الود الاولى ، وفاضت بهما اللهفة والاحلام لكن ذلك كله فشل في ابتعاث حرارة العاطفة المتبردة ، حيث غمرها شبح الهجر الاسود والشتاء المظلم ، يقول :

وتوقفنا
كنا مشدودين الى ظلينا
تعجز فينا الرغبة والاشواق
لا يخطو الواحد نحو الآخر
كل يعشق نفسه
لا يهب اخاه
أكثر مما يعطيه

فالقصيدة كلها تهدف الى هذا المقطع بالذات ، ومضمون هذا المقطع ان الود الصادق تدمره « الانانية والحرص » فكل يعشق نفسهولا يعطي الا مقدار ما يأخذ وهذا المعنى تلخصه العبارة الشائعة التي تقول (الاناني من يحب نفسه ، ولا يعطي الا قدر ما يأخذ) .

وقريب من ذلك ما جاء في قصيدة اخرى بعنوان (غزاة مدينتنا ص ٢٨) حيث جاء فيها نصا عبارة اخرى شائعة عن الانانية هي(انا ومن بعدي الطوفان) وهي عبارة مشهورة استخدمت في القصيدة للدلالة على أحد اسباب التخاذل والفشل الذي يؤدي بالشعب الى الضعف والخضوع للغزاة ـ يقول :

حين اجبنا الغرقى بالضحكات
حين جلسنا نصخب في أعراس الجن
حين اجاب الواحد منا
ما دمت بخير
فليغرق هذا العالم طوفان

فالبيتان الاخيران هما نفس العبارة المشهورة التي تدل على الانانية والحرص على المصلحة الشخصية لولا ضرورة الوزن التي الجأت الشاعر الى زيادة بعض الكلمات او تغييرها والابيات قبلها تحتوي على نفس المعنى ، والمقطع كله هو هدف القصيدة كلها التي أظن – ان لم يجانبني الصواب – ان الشاعر قالها بعد ان تعشق تلك العبارة ومعناها .

في قصيدة (حتى يطلع قمر الحب ص ١٤) قدم لها بعبارة « بيرون » (ان هذا العالم شيء تافه ان اكتسب او فقد) ثم جاءت القصيدة كلها تحت عناوين ثلاثة هي على التوالي (موسيقى الاشياء – الحكمة المنهزمة – ليس صحيحا يا بيرون) وقد جاءت القصيدة كلها لتعبر عن عبارات ثلاث شائعة ، اظن انها – او قريبا منها – جالت في نفس الشاعر قبل ان ينظم قصيدته .

يقول في نهاية المقطع الاول :
في جوف الاشياء
موسيقى لا تدركها الا الروح

وهذا معنى العبارة المشهورة (الاشياء بما نحسه نحوها لا بما نراه فيها) .

ويقول في نهاية المقطع الثاني :
والعالم لا يحفل أبدا بالحكمة
القوة تحكم هذا العالم

وهذا المعنى نتيجة التأمل في العبارة المشهورة (الحق فوق القوة) ثم معارضتها بعكسها .

ويقول في نهاية المقطع الاخير :
لكن ليس صحيحا يا بيرون
أن العالم شيء تافه
وبه هذا الالم الفادح

فقد عارض كلام « بيرون » بمعنى عبارة اخرى مشهورة هي (لا حياة بلا ألم) ومن البين بعد هذا العرض الموجز للقصيدة انها قامت أصلا في ذهن الشاعر حول عبارات جاهزة مشهورة فقدمها شعرا في قصيدة طويلة استغرقت ثماني صفحات من الديوان .

وفي قصيدة (مرثية القلب الميت ص ٢٣) تعبير عن صراع مؤسف لقلب تعلق بالاوهام والامنيات الحلوة حيث لا تذبل الاشجار ولا تبطىء الانهار ولا تسقط من الليل الاقمار ولا يكذب الحب او ينتهي ، لكن الواقع لا يتفق مع تلك الاحلام ، فكانت نتيجة الصراع حتمية وهي الهزيمة المرة لها والانسحاق تحت وطأة هذا الواقع ، فعاد القلب اغنية مخنوقة والما صامتا ، بل ميتا يرثي وقبرا لكل تلك الاحزان القاتلة .

وفي تلك القصيدة المهومة جاءت تلك الابيات :
كنت بريئا لا تدري ان الايام
لا تترك من يصعد
تمتلىء يداه بضوء النجم
لا تترك نهرا يجري متجها نحو مصبه
لا تترك حبا يختبىء سعيدا في مقلة عاشق
وكما قالوا : لا يبقى الراكب فوق جواده .

وبيت القصيد هو البيت الاخير ، حيث يعبر عن الحكمة الشعبية (الدنيا ما تخلي الراكب راكب ولا الماشي ماشي) واحتوت تلك الابيات أيضا حكمة اخرى بنفس المعنى هي (أسهل ان تصعد القمة لكن من الصعب ان تبقى هناك) واظن الشاعر قد اعجب بهذا المعنى ، فتمثله ثم غناه بتلك القصيدة التي تعبر عن المرارة والالم والضياع .

ويكفي هذه النماذج السابقة للدلالة على مدى استجابة الشاعر لما يعجبه من عبارات جاهزة وان كان هناك غيرها ايضا ، فقصيدة (اسطورة ص ٥٦) تعبر عن حكمة معناها (حين نصل لما نريد يفر من بين ايدينا) وقصيدة (مأساة بطل تراجيدي ص ١٠٠) تعبر عن فكرة شائعة اظنها (اما ان آخذ دوري الحقيقي واما ان ادمر كل شيء) .

لكن .. ماذا في استخدام هذه الطريقة في الشعر ؟؟

ان بعض الشعراء الجدد – ومنهم أبو سنة – تشيع بينهم فكرة ارتباط الشعر بالناس .. بالجمهور .. بالشعب ، ويترتب على هذا الفهم ان يحاولوا استخدام العبارات الشائعة على ألسنة الناس او معانيها لتكون موضوعا لقصيدة كاملة او لمقطع من مقاطعها بقصد التعبير عن افكار الناس والتودد اليهم .

وفي هذا بعض الحق ، ولكن المآخذ التي توجه لهذه الطريقة قد تؤدي الى العكس تماما ، فتبعد الشاعر عن فنه وعن جمهوره جميعا ، لان الشاعر اذا بدأ بعبارة جاهزة ، فقد صادر نفسه ،اذ دور حول فكرتها المسلمة ليصوغها شعرا ، ويبتعد – دون أن يدري – عن المشاكل الحقيقية الحية لدى جمهور الناس ، ويدفعه ذلك بالطبع الى التجريد في صياغة الفكرة ، ما دام قد الزم نفسه بصياغة المعنى المجرد الذي حملته العبارة ، بل يدفعه في كثير من الاحيان الى افتعال تجربة ذهنية « مفصلة » على مقاس العبارة ، وكل ذلك يبعد به عن الصدق والارتباط بآمال الناس والامهم ، والتأثير فيهم .

فاذا اضفنا لذلك ان العبارات الجاهزة التي لبست ثوب الشعر في الديوان موضع الدرس كان معظمها مما يتردد على ألسنة خواص المثقفين – كما هو واضح في النماذج السابقة – ازدادت المسافة اتساعا بين ما قصده الشاعر وما أدى اليه قصده ، وكانت حصيلة ذلك كله خسارة اكيدة للجهد وللفن وللناس جميعا .

– ٣ –

النغمة الاسيانة ، والحزن الرقيق او الغليظ ، والانطواء على النفس والاكتئاب ، والاحلام المجنحة ، والنشيج الهامس او الصاخب ، واليأس الذي قد يصل الى حد القنوط ، والحديث عن الموت والضياع والاشجان ، ورؤية الاشياء مغلفة بالضباب والسحاب والدموع واستعذاب القلق والالم ، وتوقع الكوارث والفشل – كل ذلك من هموم المراهقة في حياة الناس – كل الناس – وهي من هموم جيلنا بوجه خاص ، ووراء ذلك طبيعة المرحلة التي يمر بها المراهق ، وما يصحبها من تغير وتطور في الجسم والنفس جميعا ، ومن تصور وردي للمثل والاحلام ، تلك التي تصطدم في بلادنا بالواقع الخشن ، والصراع المر بين افراد المجتمع بحثا عن اللقمة والنجاة والامن ، في ظل ظروف طبقية بشعة ونفاق اجتماعي مخيف ، وبهلوانات سياسية بضاعتها التزييف والتهريج واستنزاف نخوة الامة وحيويتها حتى النخاع .

لذلك فانه ليس من الغريب ان يستجيب المرء في بواكير الشباب لاحزان جيله ، وان يضيف لذلك من التهاويل ما يصوره له خياله واوهامه ، فيأسى دون أسى ويكتئب دون كآبة ، ويتباكى دون بكاء ، وكل ذلك يبقى مقبولا ما دام في اطار مرحلته ، مرحلة الفجاجة والمراهقة والاحلام ، فاذا جاوز هذه المرحلة الى النضج والفهم ، انحسر ذلك الضباب تحت سطوة الواقع بمرارته وبشاعته وزيفه فيتعرف طريقه في زحام الحياة ، ويجالد اسباب ارهاقه وارهاق مجتمعه محاولا التغيير ما استطاع وما استطاعت ظروفه ، فان ظل تحت تأثير الكآبة والضياع والاوهام ، فتلك ردة مدمرة واسلوب صبياني رديء .

وديوان (حديقة الشتاء) ديوان ناضج اصيل بصفة عامة ، يحتل به صاحبه مكانه في الطليعة الواعية الملتزمة ، وقد خلا من تهاويل المراهقة والاحلام لولا بقايا متناثرة فيه ترفع رأسها مرة هنا ومرة هناك ، ويرتفع نشيجها احيانا الى حد الصراخ ، وابرز ما يدل على ذلك في الديوان القصيدة التي حمل الديوان كله عنوانها (حديقة الشتاء) وقصيدة اخرى بعنوان (مرثية القلب الميت) .

فالقصيدة الاولى ـ على سبيل المثال ـ تصور بأسى كثيرا من المشاهد الخرساء ـ الجذور التي تتأوه ، الجديلة التي تتخاصم عليها الرياح ، والمقعدون الضائعون ، حتى ظلهم قد ضاع ايضا على الحوائط السوداء ، والذكريات الكئيبة ، والبذور الحزينة ، والنظرات الحسيرة، والسروة الذابلة ، والاحلام المقبورة .

ومع تكدس هذه المشاهد الكئيبة فانها تتطلع الى الربيع الباسم المشمس ليمسح عنها الآلام والاحزان ، لكن هذا التطلع ـ حتى مجرد التطلع ـ يموت في نهاية القصيدة :

لكننا هناك مقعدون ضاع ظلنا
على الحوائط الكئيبة السوداء
قد ننشد الالوان والضياء
لكننا وفي انتظار من مضوا
نظل قابعين عاجزين في حديقة الشتاء

وقد كان من الممكن ان تنتهي القصيدة قبل هذا المقطع الاخير بعد ان قدمت تبريرا لكل تلك الاحزان بانتظار من مضوا من الاهل والرفاق، والتطلع الى الربيع وعطائه الوافر من الجمال والسلام ، والتودد اليه بالخجل والمعذرة فرارا من اللوم والتأنيب لكن القصيدة استسلمت مرة أخرى لروح الكآبة والعجز التي سيطرت عليها منذ البداية فغطى نشيجها الاخير على التبرير والرجاء والمعذرة دون مقتض فني ذي قيمة .

وهنا ينبغي فهم احساس (الخوف) الذي يواجهنا اكثر من مرة في قصائد الديوان ، فهناك فرق بين الحديث عن الخوف كاحساس فردي فائل غائم الاسباب ، وبين الحديث عن الخوف كاحساس اجتماعي ممتد نتيجة ظروف متخلفة كالقمع والقهر والتمزق بين المظهر والحقيقة، وغلبة الغوغاء والجهال والسفهاء بالتحكم في قيم الناس بالطغيان والجبروت « حينئذ يوجد الخوف ، وهو خوف معروف الاسباب والظروف والحديث عنه شجاعة والتزام ، وهذا النوع الاخير هو الذي جاء في الديوان :

حين كذبنا خفنا
وفرحنا بهدايانا من سوق الزيف
هذا قدر الكذابين
الخوف .. الخوف

والكذب هنا كذب السلوك والكلام والقيم والناس ، والاشياء، حتى الاشياء كاذبة !!

جوقة مظهرية مهرجة باطشة خلفها يعشش الخوف الاجتماعي المدمر .

ـ ٤ ـ

لا ادري لم فضل الشاعر ان يسمي ديوانه (حديقة الشتاء) وكان الاولى أن يسميه (حديقة الشعب) فان أروع ما في هذه الحديقة من اشجار وثمار وازهار انما هو للشعب ومن اجل الشعب .

ان هذا الديوان يعد وثيقة ادانة حقيقية لشعبنا وجيلنا ، فهو شعب مظلوم مقهور ، ولكنه هو الذي ظلم نفسه ، انه هو الذي نسج الظلام بيده ، وهو الذي بنى حوائط سجنه وقضبانه ، ثم سجن حياته وحريته فيه ، وزاد فاقام من نفسه سجانا يراقب القضبان ويجلد الحرية .

ان الشاعر ينتقل بنا من موقع لموقع آخر ، ويطل معنا في كل موقع على العدو الرهيب الذي يغتال امننا وحريتنا ، ويستنزف حيويتنا ، ثم يشير ويلوح ويضرب الارض برأسه وقدميه ويلون صوته بالهمس او بالصراخ ، وبالافهام او بالوعيد ، وبالكلام الهادىء او بالنشيج المخنوق باللفظة والصورة والمشهد الكامل ، كل ذلك ليضع ايدينا على جراحنا التي تنزف ، ويطلعنا على سر المأساة التي قادت جيلنا للضياع والهزيمة، ونخبت منه لباب وجوده لتتركه خاويا شاحبا تتخطفه الانواء والاعاصير .. أضعف الاعاصير .

وهو يلح بصفة خاصة على اثمن قضايا الشعب وهي « الحرية » ولكن اي حرية !! الحرية في مختلف اشكالها وصورها ، الحرية من الغزاة ومن القهر والطغيان ومن اسار ضعفنا وانانيتنا وكذبنا ونفاقنا ، فالحرية التي يقف « ابو سنة » في صفها هي حرية الشعب كله ، وهي حرية تبدو في كثير من القصائد مقهورة مصلوبة بل مفقودة ، وهو يقف مع صاحب الحق فيها ـ الشعب ـ فيلوح بيده مهددا الطغاة الذين أقاموا (الخوف حارس السلطان) مبينا عاقبة الظلم ومداه ، وهو ايضا يتجول بين اولئك الذين سلبت منهم ، فيكشف عارهم وضعفهم وقبحهم ، وكأنما يقول لهم : انتم لا تستحقون الشفقة ، بل الاحتقار ، فالانسان بلا حرية خائف ، مهزوم ، موات ، وهو بالحرية شجاع ، منتصر ، حي .

ومن ابرز قصائد الديوان التي يتجول فيها الشاعر بين الشعب وحريته (غزاة مدينتنا ـ الصرخة والخوف ـ عنكبوت اللحظة السوداء ـ حلم ملكي ـ المبارزة ـ المحاكمة ـ لا ـ اسطورة بطل تراجيدي) .

فلنقرأ قصيدة واحدة قصيرة هي (المحاكمة) تقول :

يا سادتي
قد فض مأتم العزاء
فالميت الذي دفنتموه
قد قام يطلب المحاكمة
ذو المعطف السميك
يقول : انه القضاء والقدر
وبائع الخمور قال : انها الحظوظ والمصادفة
وقارىء الكتب
يقول : لم ترد حكايته
وقال ماسح الحذاء
قد كنت غائبا
ونظرتي قصيرة ولا تجاوز الجدار
لم يكشف الستار مرة لكي أرى
لم يكشف الستار
وقال زارع الحقول
الله يبعث البلاء
لكي يطهر العباد
من آفة الفساد
وقال آخرون : انها جريمته
تاريخه القيام والوقوع
وظل طول عمره لا يرفض الخضوع
الخوف قد اذله والجوع
يا سادتي
ما رأيكم في الميت الذي دفنتموه
تحاولون ان تنسوه
يقول : أنكم جميعكم خدعتموه

فهذه محاكمة من نوع غريب ، ينصب سوقها ميت مظلوم ، يقوم من جدثه بعد ان مات وشبع موتا وانفض العزاء عن مأتمه ، حينئذ ينتصب شبحه امام ظالميه الذين تقبلوا العزاء في مأتمه ويطالب بتحديد المسؤولية والادانة، فيبحث كل منهم عن تعلة كاذبة يحيل عليها مسؤولية ظلمه ، ولكنه ياخذ بخناقهم جميعا ، ويضعهم في قفص الاتهام بعد ان وصمهم بالكذب والضعف والخداع .

والميت في هذه القصيدة ربما كان رمزا لحيوية الشعب وايجابيته كلها التي ضمرت ثم جفت وربما كان رمزا لحريته ونخوته التي تخدرت ثم استنزفت ، وربما كان رمزا لغير هذا وذاك من قيم الشعب وحيواته، واولئك الذين جلسوا في مأتمه هم أنفسهم الذين أودوا به ، انهم فئات الشعب كله ، الرأسماليون والتجار والمثقفون وابناء البلد والفلاحون والعجيب ان كلا منهم يحاول ابعاد التهمة عن نفسه ، ليتحملها عنه القدر

او الحظ او الجهل او الابتلاء او استحقاق الجزاء للضعف والخنوع ، ولكن الامر في حقيقته غير ذلك كله ، ان هؤلاء الذين يبعدون التهمة عن انفسهم ليقذفوا بها هنا وهناك هم وحدهم المدانون المذلون المهانون بضعفهم وكذبهم وانانيتهم ، تدينهم القيم المهدرة والحرية المضاعة ، وهي قيمهم وحريتهم ، وما ظلمهم احد ، ولكنهم ظلموا انفسهم .

لكن ينبغي ان يفسر هنا الاسلوب الفني الذي لجا اليه الشاعر في عرض ذلك المضمون الناضج في قصائده الوطنية ، فاهم ما يميز هذه القصائد عموما الصفتان التاليتان :

١ ـ التجريد الذهني حتى فيما لجا اليه من رمز .

٢ ـ تكدس الصور اللغوية واللجوء احيانا الى اللهجة الخطابية .

ان شاعرنا يتصور موضوع القصيدة كفكرة تجريدية ، فيرتبها ذهنيا ثم يلبسها ثوب الشعر اذ يتعلق بالمعنى المجرد ، ثم يغنيه شعرا ، تماما كما لو كان المرء امام فكرة عقلية يريد شرحها لقارئه او سامعه ، وكل الفرق بين الطريقتين هو في استخدام الصورة في الشعر والكلام الموضوعي المساوي في نقل الفكرة نثرا ، « فابو سنة » يتعشق افكارا مجردة عن حياة الشعب وسلوكه واخلاقه ، لكنه لا يقدم في شعره صورا من حياة الشعب النابضة الفنية ، فينقلها حية متحركة مؤثرة ، فتدل على ما يريد دون ان يقوله هو ، ولذلك كانت معظم قصائده الوطنية تاملا عاما لا نماذج حية ، وتجريدا لا حركة ، وفكرة عقلية تفهم لا صورة نابضة تنمو ، وبعد ان يشرح فكرته بالشعر يصيح في آخرها بصوت جهير مصرحا بهدفه منها .

فقصيدة (الفدائي ص ٧٤) ليست صورة بطل في مغامرة يتسلل ويغافل ويهجم بما يصحب ذلك من مخاطرة ورعب ومفاجآت واستشهاد، بل هي حديث عن « معاني الفداء » على لسانه ـ او بالاصح على لسان الشاعر ـ فيقول : انه امتلك مصيره بشجاعته ، وان للمغامرة والخطر لذة اي لذة ، وحين يموت سيحتفي به الاسلاف الذين استشهدوا قبله، ليختم القصيدة بصيحة الفدائي بهدف القصيدة :

لا تشفقوا عليّ
فها انا الذي خسرت قد كسبت كل شيء

وفي قصيدة اخرى بعنوان (لا : ص ٩٧) تعرض فكرة مؤداها : ان الراي الحر عنوان الشموخ وان الاستسلام دليل الخنوع ، وتجلد بقسوة خسة الاحساس الاخير ـ الاستسلام ـ وتسمه بانه ذلة سببها خوفنا ، وانه يؤدي لاستعلاء الآخرين على حسابنا وجناية على الاجيال بعدنا ، لتنتهي القصيدة بهدفها في :

الا اذا رفعتم الجباه في طريقهم
السيف في وجوههم
وان نقول في شجاعة المقاتلين : لا

فالذي يتحدث هنا هو الشاعر نفسه بطريقة تجريدية يعبر بها عن فكرته ، وكان من الممكن مثلا ان يقدم صورة حية من صور الشموخ من اولئك المعذبين من شعبنا الذين يتحملون في جلد آلامهم ، ويبصقون في وجوه جلاديهم ، فنحس ساعة سقوطهم وموتهم انهم في قمة الانتصار ، وانهم اعظم قدرا ممن اضطهدوهم .

وحتى عندما لجا شاعرنا الى الرمز ـ وهو في قصائد قليلة ـ استخدم ايضا رموزا من صنعه ، ثم رتبها ذهنيا لتقول ما يريد ، كقصيدة (المحاكمة) التي مر ذكرها وايضا آخر قصائد الديوان (ماساة بطل تراجيدي) ، فلم يختر مثلا رموزا من التاريخ او الاساطير الدينية او الشعبية لتشف بعرضها شعرا على ما يريد الشاعر دون ان يصرح به.

وخلاصة هذه الفكرة كلها ان قصائد الشاعر الوطنية ـ في معظمها ـ تشرح افكارا تجريدية بطريقة مفروضة من الخارج ـ من الشاعر ـ دون ان تدل بنفسها على المقصود عن طريق الشفافية والايحاء.

وقد ترتب على ذلك ـ وبسببه ـ ان لجا الشاعر كثيرا الى حشد الصور اللغوية ـ التي قد تصل احيانا الى عشرة ابيات ـ حول المعنى الواحد ، دون ان تبني شيئا جديدا او تنمية في القصيدة انها اشبه « بالترادفات اللفظية » وان كانت صورا شعرية ، وهي دليل على البراعة اللغوية لا اكثر ـ وفي الديوان حشد هائل من هذه الصور ، ولنتامل هذه الابيات :

وتساءلنا
أي غزاة جاءوا في منتصف الليل
رجموا بالاشجار بعيدا عن مجرى النهر
هدموا أعمدة الضوء
رحلوا بالازهار الى مقبرة وحشية
وضعوا سيفا بين شفاه تدنو من عنقود القبلات
داسوا بالخيل جبين المعبد
طردوا منه الصلوات
صرخوا في وجه الفجر

فبعد البيتين الاولين تكدست سبع صور تدل على (الدمار والخراب للمدينة) لكن كل تلك الصور لم تقدم نموا لتجربة القصيدة او بنائها ، فبقيت الفكرة واحدة تدور في اطار لغوي فقط .

كما ترتب على الافكار التجريدية ايضا ان لجا الشاعر احيانا الى لهجة خطابية « عنترية » لا تتفق مع طبيعة الشعر الجديد الذي يسري الى الروح في رفق ، وينساب ساكنا كالضوء بعد ان تخلص ـ كما قالوا ـ من ضجة الاوزان والقوافي في الشعر القديم ، ومن علو الصوت للالقاء في المحافل والجموع ، فمن لوازم الخطابة الانفعال والصخب واستخدام أدوات التوكيد والامر والنهي بصورة اليقين والحسم والزجر ، والتجربة الشعرية الجادة الرصينة لا حاجة بها الى تلك اللهجة التي انزلقت اليها احيانا بعض مقطوعات من قصائد الديوان ، فلنتامل هذا المقطع في نهاية قصيدة (الجثة الحمراء ص ٩٤) :

فلتخرج الرياح من مغارة الدخان

وليقبل الفرسان
لا تركبوا الخيول ان تناسلت من الكلاب
ولا تعلقوا تعويذة الجبان
على جبين هذه المدينة الكثيرة الاعداء
ولتخرج الغربان من نوافذ القلوب
لتصدح الطيور بالغناء
فلتخبروا الاطفال والنساء
بالكف عن اذاعة الرثاء

فقد نصب الشاعر مهرجانا للشهيد ، ووقف يخطب في هذا المهرجان آمرا وناهيا وزاجرا وداعيا للغارات والفرسان والخيول والغربان والطيور والاطفال والنساء ، مع ان تجربة « الشهادة » لو جاءت في مشهد مواطن عادي يموت في موقف الحفاظ على الارض او المبدأ او الحرية ميتة عادية مؤثرة ، لعمقت في نفوسنا اعتزازا به وباستشهاده اقوى كثيرا من هذه الطريقة الخطابية الزاعقة .

— ٥ —

من أفدح الاخطار التي تهدد الشعر الجديد اليوم ما يعود الى اللغة والوزن ، فبعض من يحترفون هذا الشكل الجديد يجهلون هذين الامرين جهلا شائنا ، فيخرجون على ما يطلق عليه « منطق اللغة » ويقصد به صحة مبنى الالفاظ ومعانيها ، فيستخدمون اشتقاقات غريبة، حروفها عربية وصورتها لا هي عربية ولا اجنبية، او يستخدمون الكلمات العربية بمعان بعيدة كل البعد عن مفهومها الحقيقي ، او يستخدمون جملا كاملة معناها في « بطن الشاعر » فقط لاختلال التركيب والاعراب فيها ، او يستخدمون عبارات كاملة « توليفة » مفهومها غامض غموضا يصل الى حد الاحالة تحت اسم الصور او الرمز او ما شئت من الافتراءات ، ناهيك بمن يخرجون عن الوزن العروضي تماما ، او يخلطون بين التفاعيل بطريقة صبيانية رديئة يضج منها الخليل ونازك وكل علماء العروض في القديم والحديث .

ما علينا .. فلهذا حديث آخر ، والمهم هنا ان ديوان (حديقة الشتاء) يكاد يخلو من تلك العيوب تماما ، فهو يستخدم الالفاظ بطريقة سليمة واضحة ، وهو يبني جملة خالية من الاضطرابات والخطأ ، وصورة محكمة متماسكة لا غموض فيها ولا احالة الا ما ندر ، ومن هذا النادر ص ٢٩ :

هل كان القمر صديقا للاشباح
من أوقف زحف الوردة نحو النجم

فالصورة في البيت الاول غامضة ، وفي الثاني بعيدة عن التصور ص ٣٢ (عن الحرية) :

حطت صرختك الوردية
فوق ملايين الاشجار

فالصرخة هنا صرخة الحرية الذبيحة ، فهي صرخة الرعب او الالم، لكنها غير « وردية » على كل حال .

ص ٩٨ :

لاننا نضم في صدورنا
عزائما في رقة البخار

فهو يقصد بذلك « عزائم خائرة منهوكة » والبخار ليس كذلك ، فهو قوي جدا ، قوة تسير بها القطارات والسفن والطائرات ، فليت لنا مثل هذه العزائم يا صديقي !!

وبعد

فلعلني قد استطعت ان افهم ما قرأت ، وان افسر ما فهمت ، وان اقدم لقارىء هذا الديوان من بعدي ما يهديه بين مروجه وادغاله .

القاهرة — محمد عيد

وجه أمّي والسفر

صوتك الدافىء يخضرّ على ارصفة المنفى ،
وفي غابات أحزاني يحبو
كلما ألقيت مرساتي بميناء اغتراب
شدّني للوطن النائم
في قلبي جرحا
وطني المزروع
في اقبية التاريخ رمحا
دونه الغربة تمتد على صمت خطاي
— لاهثا — أعبر جسر العالم المنهار ، اجثو
في انتظار القمر المصلوب — خفاشا —
على بوابة الليل ،
ادقّ الحجر النابت
في وجهي جدار
ويرنّ الصوت ....
يرتدّ الصدى :
« بابل شاخت
بابل في معصم الريح سوار
وخضاب دمها
بيع بأعراس التتار
فلمن توقد في صومعة الذكر
شموع النذر
تجترّ انتظاراتك في قاع المفار ؟ »
لدمي النائم في عروة صدر الارض
حنّاء لاعراس التراب
لدمي كل انتظاراتي ،
شموعي ،
أبجدياتي الكئيبه
لدمي اهتف باسم الجرح
في أروقة الصمت — وصوتي
مطر يلهب أعناق السحاب —
حاملا جمجمتي في طرق العمر حقيبه
ملؤها كل متاعي :
وجهها المطلي (بالنابالم)
وجهي المستباح
وجه أمي :
دامع العينين ،
مصلوبا على كف الرياح

بغداد — عبد الخالق الركابي

قصيدة وقصيدة مضادّة

القصيدة الاولى :

سألت امي : كيف ينضج الرغيف ؟
ــ شيئان يا بني :
خميرة طازجة
النـار
فوقـه
وتحتـه .

يـا حَبّ البازلاء الأصفر
كيف نضجت ؟
ــ الشمس
الشمس
الشمس
ورجلي في الطين
الطين
يا لوز القطن الأخضر
عالمك المغلق هذا ، عالمك الاملس
كيف تفتح ؟
حتى فار على الجنبين نسيجا شفافا ، رؤيا
ــ السرّ في ضوء القمر
ضوء القمر
ضوء
الضوء
والخميرة الطازجة النادرة الوجود

الفاكهة الخضراء ، مُرّة
الفاكهة الحلوة ، تسقط
امـا عطبة
او في مرحلة النضج الزائد
يا مرحلة النضج البكر ، ويا موتا خصبا
اقبـل
اغمرني ، اغمر شعبي ، احرقنا بالنار
بنيران الثورة والصدق المفقود .
يا مرحلة النضج البكر ، ويا موتا خصبا يتدفق
خضّب ارجلنا بالحناء وايدينا بالدمّ
الضوء
والخميرة الطازجة النادرة الوجود
يا زمنا يقتلني ببطئه الصمود

القصيدة المضادة :

. . . .
اما أنت تحيّرني يا ثمر الموز
تقطع مثلي ، اخضر في مقتبل العمر ، برقّه
تقطع بالسكين الحادة ، تبتر
تلقى في أقبية مظلمة رطبة
تسجن في الثلاجات
في أحضان رفاقك ترقد ، تهدأ
كلّ داخل جلدته الخضراء السحلية
حول الساق الأمّ الزمن المـوت الحبّ الالـم
الظلمة تلتف
تتقوس حول بقايا الذات المذبوحة
حتى لا يسكب ما في داخلنا من دفء ودقيق
وبطء
في أعمق أعماق الظلمات
يتحول هذا الصمت الجاف ، حنينا وعصارة
يبتلّ دقيقك ، يصبح سكر
ينضج هذا الخبز
وينضج صدقا وحلاوة .

يكفينا ما نملك
لا نحتاج لشيء ، فالشبّاك
يفتح للأعماق
والضوء بداخلنا
مفتاح الجنة في بطن السحلية .

يسرى خميس

ربابة أبي زيد الهلالي

آه هات آه هات
وانحنى فوق الربابة
وترا هشا وصوتا جرّحته الكلمات
يـا ابا زيد الهلالي
ايها الوجه الذي غاب على صهوات ريح
دمنا الآن يسيح
وعلى كل طريق
صخرة ملساء ملساء ، وسيف من نضار
ولعاب القادم الذاهب اصوات تصيح
وانـا وحدي في الدرب ،
ودربي آه لوّ تعلم ناحل
رغم ان الشعر في خير وصوت الاسطوانة
يطرب الكاسات والجدران والتبغ
ويغتال الاهانه
يا ابـا زيد الهلالي
يا ابا زيد الهلالي
يا ابا زيد الهلالي
بح صوت المطرب المهووس والدنيا
كما الدنيا ، وجدي لا يزال
يعرض الموال في الساحات جدي لا يزال
فارسا دون حصان
وحصانا دون فارس
والعباءات التي تحجب الشمس عن الارض
-وتزري بالفوارس
مزقا صارت على الابواب
شارات حـداد
لم يعد طارق فينا ، غير انا
قبل ان نعبر جسر العار احرقنا الجياد

* * *

يا ابا زيد الهلالي
مجدك الميت في المقهى كؤوس فارغات
ومقاعـد
مجدك الميت قاعـد
لم يعد اسما على كل شفاه الفتيات
مجدك الميت مـات
والمواويل التي عاشت على رمل البحار
ذبلتها سنوات القحط والعقم
وبؤس الانتظار
حين القى المطرب المهووس ما في فيه
من شكوى ومن حمى احتضار

* * *

آه هات آه هات
وانحنى فوق الربابه
تتدلى الاحرف العرجاء في الصمت
فيسقيها لعابه
هو من عشرين من ستين من الفي عام
لم يزل يزرع هذا الساح بالدود
ويصطاد العظام
لم يزل ظل حراب
كسّرتها « المومس العمياء » في ليل ،
ومدتها لهذا الشرق عنوان كتاب

* * *

يا ابا زيد الهلالي
لم يمت مجدك فينا غير انّا
حين نمنـا ،،،
سرقت منا البغايا
كل ما كنا نذرنا
لمواعيد الصبايا

بنغازي ـ الجمهورية العربية الليبية

خالد المحادين

قصة تقليدية

قصة بقلم الأمين الخمليشي

ـ هـل تراهـا ؟
ـ نعـم .
ـ هل ترى البغلين اللذين بقرب البئر ؟
ـ نعم .
ـ انهما يحملان الماء اليها .
ـ ولـم المـاء ؟
ـ ليعجنوا به الخبز ويغسلوا الذبيحة .
ـ دار كبيـرة .
ـ هكذا نراهـا .

كان ذلك في يوم قائظ من ايام الصيف ، بياض الشمس يقـع على الحقول المحصودة فيحولها الى مرايا ، وهم في الطريق الـى القرية المجاورة لحضور جنازة امراة ما .

ـ فمتى يصل ذلك اليوم ؟ أم سياكلنا الدود قبل ذلك ؟.

ـ لا .

ـ أمه ايضا تريد ان تراه قاضيا ، اما انا فكل همي ان اراه عالما كبيرا ، سأحفظه الالفية والحديث وسيدي خليل ليكون بحـول الله مالك هذا العصر . حكت لي أمه اخيرا انها رات في منامها ان..

اقتربوا من دار الجنازة ، سحب العم يده مـن فـوق رأس خيرون (✶) . الوصول الى الدار من الجهة الملائمة يتطلب منهم ترك الطريق التي ظلوا يمشون فوقها حتى الان الى طريق اخر . قصدوا اليه . هي ذي باب الدار . تحت لوزة كثيفة الاغصان ، قبالتها تجمع نفر من الرجال . بالقرب منهم ، قرب مزبلة ، بعض النساء.رد الرجال على تحية القادمين . وقفوا معهم . ابصر خيرون رجلا قصيرا ، أبطن، تلف رأسه عمامة بيضاء ، يخرج من باب الدار ويتقدم منهم . التفت الاب والعم نحوه وصافحاه . قالا له ذلك الكلام الذي يقال في هذه المناسبات . اطرق الرجل براسه الى الارض وظل صامتا . ظـل صامتا حتى خيل لخيرون انه ابكم . ولكنه فجاة اخذ يتكلم :

ـ الاعمار بيد الله . الحمد لله . الحمد لله على أي حال . قلنا مرض عابر ولكن الرب اختارها الى جواره . دفناها قبل ساعة ..

تبادل العم والاب نظرة وبدأ كما لو انهما يريدان قول شيء، لولا ان الرجل تابـع :

ـ انتظرناكم ثم خفنا ان تؤخركم ظروف . حقيقة نحن نأسف لعدم حضوركم ، انما دائما هناك ظروف ..

ثم وضع يده على راس خيرون وأضاف :

ـ ابن مـن ؟

بينما كان أبو خيرون يجيب الرجل ، كان خيرون يحس بشيء ثقيل فوق راسه ، ولكن ماذا بامكانه ان يفعل ؟

ـ تفضلوا الى الداخل . الطلبة في انتظاركم .

تخطوا عتبة الباب وعبروا فناء واسعا يتقدمهم الرجل حتى وقف بهم على عتبة باب غرفة غصت بالرجال . حتى ان خيرون دهش لعدد احذيتهم الموجودة بالباب . نظروا كلهم صوب الداخلين ولكن بعضـا منهم فقط رد على تحيتهم . ما ان افسحوا لهم امكنة للجلوس حتـى رفع احدهم يديه واضعا اياها على اذنيه ، مغمضا عينيه وصائحا باعلى صوته مستعيذا بالله من الشيطان . لحظة وكان الجميع يرددون معه آيات السورة التي حط عليها ، طه . كانوا يقراون باصوات عالية ، يميلون رؤوسهم في كل الاتجاهات ، تنفتح افواههم عن آخرها فتبدو عذبات السنتهم منتصبة كرأس افعى . مع تسلسل الآيات ، ظن خيرون انه يكتشف امرا عجيبا : ثم دبيب منافسة بين الحاضرين ، منافسـة مخفية لكن عنيفة كنار تحت الرماد فيمن منهـم يملك اعـذب الصوت وأشد الحنجرة . فكل واحد يريد انتهاز الفرصة مجربا مالديه مـن الحيل حتى يغطي صوته أصوات الاخرين او على الاقل كيلا تغطيـه هي . اطربه الاكتشاف فركز سمعه ونظره عسى ان يتوصل الـى معرفة الافضل ، وسيخبر اباه بهذا حالما تتاح له الفرصة . واذا بلكزة تأتيه في جنبه ، لكزة تعقبها نظرة (وكلاهما من عند أبيه) يـدرك معانيهما جيدا . وعندئذ فقط تذكر وصية أبيه وهمـا واقفـان بحذاء جدار الضريح ينتظران قدوم العم : اقرا باعلى صوتك حتى لايشكوا في حفظك له (القرآن) . تنفس ثم دفع الهواء من رئتيه بشدة فانطلقت صوته على الفور حادا ناشزا وسط ذلك الخليط من الاصوات . وقد بذل كل جهوده ليحافظ على حدته الى النهاية . وكان يفكر وهـم يدنون من نهاية السورة فيما اذا كانوا سيتوقفون عند النهايـة ام سينتقلون الى السورة التالية . انمحى السؤال من ذهنه بعـد ان رددوا السورة احدى عشرة مرة . آه على تلك الادعية . هو وحـده الذي لم يكن يحفظها . لم يحفظه اياها ابوه قط . هو المذنب ، ابوه. ورغم انه لم يكف طيلة الوقت عن تحريك شفتيه ، مقلدا حركـات شفتي وجه يقابله لحيته كالثلج ، فقد اجتاحته رغبة حادة الـى التبول . اما الوقت الذي استغرقته تلك الادعية ، فقد بدا له كأنما هو اطول واثقل شيء يمكن ان يوجد في هذه الدنيا .

(✶) خيرون ، شخصية يتتبع المؤلف تطور حياتها وحياة البيئة التي تعيش فيها في أقاصيص مختلفة .

احان وقت الاكل ؟ رمى الفتـــى الاحول الـذي اقتحم عليهـم الغرفة بالمناشف الى وسط الحلقة وجعل يطوف على الحاضرين بالطست والابريق . ذهب الطست والابريق . دخلت اطباق الخبز ، تـــوزع الناس الى مجالس ، اللحـم بالبطاطيس ، كـل ولا تحشم ، الخبـز حار والمرق مثله او اشد ، كل ولا تحشم ، خذ هذه اللحمة ، لمـاذا لاتزيد هذه ؟ اكلت مافيه الكفاية ، كل واسكت ، هيه ، الماء ، ايـــن الماء ؟ هذه الشحمة ، زدها ، لااقدر ، لاتقل لا ابداً ، زدها ، الا تسمع؟ ساتقيا . لا . هكذا . انت لاتاكل شيئا فكيف تريد ان تكبر ؟ آخ ، نعذبك ياولدي ؟ اذهب ، لاحاجة الى ذلك . من يقيم الشاي ؟ اعط ارفع ، الحمد لله ، الله يخلف ويغفر ، اتغسلون ايديكم ؟ ماذا ؟ ولماذا للسي عبد النبي فهو يعرف له ، كيف تريدونه ياناس ؟ قوي ، كيف حال ابنك ياحاج ؟ عافاه الله ، ما احر هذا الصيف . ماذا ؟ ما احـر هذا الصيف . آه ، من يبقي زيادة ، طيب ، ارفع ، الله يجعـــل البركة ويخلف ويغفر لنا ولموتانا .

دخل زوج المتوفاة وقال :

ــ سادتي الطلبة ، اريد ان تقراوا سلكة علـــى المرحومة ، عليهـا وعلى والدي وعلي انا ايضا .

قال الذي وضع يده على اذنه في اول الامر :

ــ على الراس والعين . ثم وقف وجعل يعد الحاضرين .

قال الاب مجيبا على سؤال الرجل :

ــ تسعة عشر .

ــ لا ، ثمانية عشر فقط . رد احدهم من زاوية .

ــ وهذا ؟ (قال الاب ذلك وامسك بكتف ابنه) ، هذا ، حسبته اولا ؟

ــ هل يحفظ القرآن ؟

ــ هل يحفظ القرآن ؟ طبعا يحفظه . وهل كنت لاصطحبه معي لو لم يكن يحفظه ؟.

لم يجب الرجل ، ولكن آخر علق :

ــ انه يبدو صغيرا جدا .

ــ صحيح ، ولكنه مع ذلك يحفظ القرآن . ها هو ذا امامك ، اساله فيما تريد .

لم يعقب الرجل بشيء ، التقت عينا خيرون بنظرات عمه فابتسم له العم بلطف ، عاد الاب يقول :

ــ ها هو ذا امامك ، هيا ، اساله ، لماذا لاتساله ؟

كان العم لايزال ينظر الى خيرون ويبتسم بلطف .

ــ لن أسأل احدا . افعلوا ماشئتم .

قال الرجل الواقف :

ــ خلاص ، ما دام يحفظ القرآن فهو معنـا .

ثم جعل يوزع الاحزاب على الحاضريـن .

خرج الرجل الابطن زوج الميتة . علت اصواتهم مـــن جديـــد . فوضوية هذه المرة . وفكر خيرون : لا شك انهم فـــي الخارج يسمعون اصواتنا بوضوح . العابرون من بعيد ، الواقفون تحت الملوزة ، النساء في الغرف الاخرى ... وتلك التي توفيت ، اتسمعنا ؟ بالطبع تسمعنا : الآن ، الملك منكر يقف في مواجهتها ، اكبر جبل فـــي الدنيا يهوي غائصا الى قرار الارض تحت ضربة دبوزة ، يسالها : من هو ربك يـــا امراة ؟ والمراة تحس بعطش محرق ، وابليس الرجيم يلوح قبالتها ملوحا بابريق فيه سراب ماء يقول لها : قولي انا ربك اسقيك وانجيك ، قولـــي انت ربي ، فتهم بالهتاف : انت ربي ، اسقني ، ولكن فـــي نفس اللحظـة يصلها هذا القرآن فتجيب : لا ، الله هو ربي .. فيسالها نكير ، ذلـك الملك الآخر ، وبيده ملقطه الناري الذي يستطيع ان يقتلع بـــه الجبل الغائص ويعيده الى مكانه من ظهر الارض ، وما دينك يا امراة ؟ فيتمثل لها اللعين في صورة شيخ كثيف اللحية ، اصلع ، ويقول لها : قولـــي لا دين لي ، انقذك .. فتهم بقول ذلـك ، ولكـن هـذا القرآن يصلها فتجيب : لا ، الاسلام ديني .. فيتهيا الملك منكر .. ايه ، اين انـــا ؟ فجاة ، اكتشف ان تصوراته قفزت به الـــى حزب لا يمت بصلة الـــى الاحزاب المقررة له . ارتبك ، وارعبه ان يكون قد فطن اليه احد . اي فضيحة سيسببها لابيه آنذاك . تلفت حواليه وسرعان ما ادرك انهـم غارقون في احزابهم وانهم في شغل عنه وان لا احد يفطن الـــى احد . وقال بعد ان تطلع الى وجهيهما ان اباه وعمه قد نسياه ايضا . فاطمان وبدأ يبحث عن طريق العودة الى الاصل لولا ان فكرة سقطت على ذهنه فجاة : لماذا لا تواصل قراءتك للحزب الذي وجدت نفسك فيه ؟. ولكن في ذلك مخالفة لترتيب القرآن ، وقد يكتشفونني وفي ذلك فضيحة .. لا . لن يكتشفك احد . الا ترى ان كل واحد منهم مشغول باحزابه ؟.. اما ان في ذلك مخالفة للقرآن فليس في ذلك اي مخالفة . كله قرآن اوه ، اني احس بالصهد . كل هذا لا يهمني . متى تكون لي انا ايضا عمامة بيضاء ؟ كلنا سنموت ذات يوم ، فيا رب اعطنا الجنة .. اللغط يرتفع فجاة . ساقفز الى الربع الاخير من الحزب الاخير .. وسارفـع صوتي الآن اكثر .. ها بعضهم يتوقف .. ساقول صدق الله العظيـم واتوقف بدوري . لم يبق الا واحد .. احس بالبول .. هـا هـــو ذا بدوره يقول صدق الله العظيم . قرانا الفاتحة جماعيا ، رفعنا ايدينا بالدعاء للميتة .. واحد يدعو والبقية تردد آميـن . ختمت السلكة . هبط على الغرفة سكون مفاجيء . دخل زوج الميتة وبيده نقود . اسرع من هب الى تسلم النقود كان اعرج . تعالى اللغط من جديد . مـــال خيرون على ابيه وهمس له بانه يريد ان يخرج . نهـره ابـوه بنظرة قاسية فعاد يهمس : « اريد ان ابول » . اذعن ابوه لطلبه فنهض واقفا وغادر الحجرة ولغطهم يلاحقه الى ان عبر الفناء ووجد نفسه وحيدا في الخارج . مشى بحذاء حائط وعندما بلغ نهايته انعطف مـــع الحائط الآخر ثم رفع جلبابه الى وسطه واخذ يبـول على حجر بلـــذة . الـى الامام منه كانت تقوم مجموعة من اشجار اللوز توشك رؤوسها ان تتلامس محشورة وسط صبار منتشر بكثافة . لمح من خلال الصبار صبيا صغيرا ينظر اليه وهو واقف تحت تينة . اجفل الصبي وهـــو يبصر خيرون يتقدم نحوه عبر الصبار واسرع باخفاء يده اليمنى وراء ظهره . صبـي قذر ، فوق عينه اليسرى دمل ، تتولى من قمة راسه ضفيرة من الشعر . تراجع خطوة الى الخلف وتغضن وجهه آيـة على تهيئه للبكاء ، ولكـــن خيرون ابتسم له فبدا على الصبي نوع من الاطمئنان . وعندئذ استعاد يده من خلف ظهره وبسطها في وجه خيرون فبدت في وسط راحتــه الصغيرة تينة سوداء . تحسس خيرون التينة فوجدها ساخنة كما لـــو رفعت على التو من فوق النار . اشار الصبي الـــى اغصان التينـــة فوقهما وقال :

ــ تقدر تطلع ، اختي نفيسة تقدر .

ــ مـــن نفيسة ؟

ــ اختـــي .

ــ وانت ولد من ؟

ــ انـــا ...

سمع خيرون خشخشة خلفه فالتفت فراى طفلة حمراء الشعر تخرج من بين الصبار وهي تشد سروالها الى وسطها . صاح الصبـي لما رآها ووقف بجانبها متشبثا بثوبها . تبادلت الصبية نظرة استطلاع

مع خيرون ثم قالت له وهي تنظر الى زخارف الطاقية الموضوعة فوق راسه :

ــ جئت مع الناس ؟

ــ نعم . جئت مع أبي لحضور جنازة المرأة التي ماتت هنا .

ــ أنا بنت رجل المرأة التي ماتت . وهذا اخي . وام هذا هـي التي ماتت .

قبل ان يتمكن خيرون من قول أي شيء رمى الصبي بالتينة التي في يده وسط الادغال وهو يقول :

ــ ماما ماتت وهي ما ماتت ماما علاش ؟.

نهرت نفيسة اخاها فعاد الى هدوئـه . حاول خيرون ان يفهم شيئا ولكنه لم يفهم أي شيء . ربما فهمت البنت انه لم يفهم فجعلت تشرح له هذا الذي لم يفهمه حتى فهم . ولكنه بعد ان فهم لـم يعرف ماذا يفعل . عندئذ جذبته البنت اليها قائلة :

ــ هـل تلعب ؟

ــ العب مـاذا ؟

ــ نلعب لعبة العروسة . سهلة . انا انعس علـى ظهري وانت فوقي ، ثم تنعس انت على ظهرك وانا فوقك .

تطلع خيرون فيما حوله بحذر وقال :

ــ اين ، هنـا ؟

ــ نعم ، هنا . لا تخف . لن يرانا احد .

ولكن اخا البنت هتف في احتجاج :

ــ وانـا ؟

ــ حتى انت ستلعب ، ولكن من بعد ، حتى نبقى وحدنا .

قالت البنت وهي تستلقي فوق محل من الارض مظلل . ثم رفعت ثوبها ، وهبطت سروالها الى ما تحت ركبتيها . واستلقى خيرون فوقها، واحس بلذة عذبة وهو يلمس فخذيهـا البيضاوين ، ومـدت البنـت اصابعها الى ما بين فخذيه ، وضمته اليها ، وفي تلك اللحظة جـاءه صوت ابيه مخترقا اذنيه. انتصب واقفا مذعورا وفيما هو لا يزال يتلفت حواليه تكرر النداء . انطلق وسط الصبار يحط قدمه اينما كان حتى اوقفته قامة ابيه .

ــ اين كنت ؟ كنت افتش عنك لنرجع الى دارنا ..

اطرق براسه الى الارض متحاشيا نظرات ابيه فرأى الحجر الذي سبق له ان بال فوقه .

ــ هيـا .

وجد نفسه في الطريق المترب مرة اخرى .

ــ عمك لن يعود معنا ، سينتظر حتى يبرد الحال قليلا .

وعندئذ تذكر كيف انه تركهم في الغرفة يتصايحون وخرج ليبول .

ــ قسمت الفلوس واخذ كل واحـد نصيبه . عشرون بسيطـة للواحد ، انا وانت اربعون بسيطة . ولكن اياك ان تقول ذلك لامك ..

ــ لمـاذا ؟

ــ لانها تريد ان اشتري لها حزاما بينما انا سادفع هـذه الفلوس فيما هو أهم . قل لها اذا سالتك انا لم اكن معهم حين وزعوا النقود ، وانا اعرف ماذا اقول بعد ...

الطريق لا يزال طويلا ، والشمس حارة .

ــ هناك رجل في (مراحة) اذا لم يمت هذه الليلة مات غدا .. استعد .

الآن فقط تيقن خيرون ان اباه لم يبصره . وشيئا فشيئا بـدأ يستعيد تفاصيل اللعبة . يا لها من لعبة لذيذة . سيعلمها لابنة عمـه وسيلعبها معها كلما سنحت له الفرصة . سيلعبها مع ابنة عمه دائما .. ولن يذهب مع ابيه الى اية جنازة اخرى .. وفكر خيرون بان هنـاك اشياء كثيرة لا يزال يجهلها ، ولكنـه سيتعلمها جميعـا ذات يوم .. وعندئذ ، اخذ حمار ينهق .

الرباط — **الامين الخمليشي**

أربع ظواهر طبيعية

١ ــ التعرية

كان يقال ان ما تتركه الرياح
على الجبال والسهول من تغيرات
يحدث بعد فترة طويلة الزمان .
(انتهت العبارة)
تغير المكان
تغيرت معالم الحضارة
لم تترك اليوم على اشيائنا المريرة
حتى ولا اشارة
فالريح والعواصف المطيرة
لم تكن العواصف التي تهب في مشارف الجزيرة
تغير الشارع والبيوت والعمارة
أو تحرق الزهور في الحديقة
في فترة زمانها دقيقة .

***

٢ ــ درجات الحرارة

في نشرة الاخبار
يصرح المذيع في الليل وفي النهار
ارتفعت (حرارة الاجواء)
دائرة الانواء في المطار
سجلت السبعين في « نيسان »
سجلت التسعين في الاغوار
وارتفعت (حرارة الدماء)
تصاعدت بخار ..

***

٣ ــ الشروق والغروب

يا ايها الانسان
يا ايها المطمور
كيوسف في جبه ، يعانق الاحزان
يبحث عن نافذة للنور
قميصه المبتل بالدماء والدموع
وانتم الذين تحلمون في الرجوع
سيقذف النهار بالدلاء
لكم ، وتخرجون للحياة والسناء

***

٤ ــ الزلـزال

ستعلمون
ستعلمون ما يكون
اذا أصاب الارض مرة جنون .

بصرة ــ العراق — **محمد صالح عبد الرضا**

المتنبي في مرآة العصر

بقلم احسان الملائكة

النقاد والباحثون في مسائل الفن اجمعوا على ان الفنانين ومن جملتهم الشعراء يتفردون ـ دون الناس ـ بمشاعر واحاسيس ومنازع ومشارب ، يصح ان نعتبرها امورا ملازمة لشخصياتهم تميزهم عن غيرهم ، وتكاد ان تجعلهم طبقة خاصة في المجتمع الانساني ـ اذا صح التعبير ـ ويبدو ان الفنان يتفاعل مع المحسوس والمعنوى من الاشياء بطريقة مغايرة لما لدى الناس ، فهو يسمع ويبصر ويدرك بشكل لا يخطر لهم على بال . الرسام بيكاسو ـ على سبيل المثال ـ اعطى لوجوه (اشخاصه) لونا ازرق في فترة من فترات تطوره الفني .وقد فضل هذا اللون على لون الجلد التقليدي الذي استعمله الكلاسيكيون في رسومهم ، لانه وجد في الزرقة تعبيرا اكثر تلاؤما مع الفكرة التي يقصد توضيحها . وصحيح ان محاكاة الطبيعة هي احدى غايات الفن غير ان تلك المحاكاة لا يجوز ان تكون عمياء او جامدة . والرسام الموهوب هو الذي يعرف كيف يكتشف وسائله الخاصة في نقل الوقائع الى صور واشكال .

لقد كان احمد ابو الطيب المتنبي (٣٠٣ ـ ٣٥٤ هـ) احد اولئك الفنانين ، اذ ظلت شخصيته سرا مغلقا حير النقاد وما زال يشكل علامة استفهام كبيرة . فاذا شئنا ان نزيح الستر عن خفايا تلك النفس فان علينا قبل كل شيء ان نضعه في مكانه الطبيعي بين افراد جماعته من كبار الفنانين . والفنان يتفرد دائما بخلال وشمائل وطباع وعادات تبدو بالقياس الى ما هو معروف عند الناس شديدة الغرابة ولا يمكن تبريرها او استساغتها ، اراد الشاعر ابو العتاهية ذات مرة ان يعلن للناس توبته وزهده فاشترى من الفخار (حبّا) ضخما وفتح فيه اربع ثغرات ثم دخل فيه وجلس مخرجا اطرافه الاربعة من تلك الفتحات ، واعلن انه سيعيش على هذا الحال عقابا لنفسه ! ولما سمع تشايكوفسكي الموسيقار الروسي ان المرأة التي يحبها ستهجره صمم ان ينتحر . وكان قرب داره بحيرة قد جمدها الشتاء فخاضها حتى بلغ منتصفها ثم وقف هناك لا يريم ، معتزما ان يموت ، ولكن الناس لحقوه واعادوه الى بيته ! وكان الشاعر ابن الرومي لا يفتح باب منزله صباح كل يوم الا بعد ان يحدق في الطريق ، من ثقب خفي في الباب ليرى اول عابر سبيل ! فان كان مقبول الصورة استبشر وفتح ، وان رأى انسانا مشوه الخلقة او قبيح الصورة تعوذ بالله من الشيطان وعاد الى داخل المنزل ، وقد فارقته نية الخروج ذلك اليوم !!! والحق ان تلك المسالك الشاذة هي مظاهر تلازم حالة النبوغ . ولو كان الفنان انسانا طبيعيا مثل بقية عباد الله ، لما احتاج الى الفن يعبر به عن افكاره ومشاعره ومقاصده . ان شعوره المستمر بانه غريب ومتفرد وغير منسجم يجعله يبحث عن المخرج والملجأ ، عن السلوى والعزاء في الخلق الفني ، وكأنه يسعى الى تبرير مواقفه الشاذة غير المألوفة .

وحين أطل المتنبي على هذا العالم كانت الحضارة العربية الاسلامية قد بلغت ذروة نضجها . وتملك نفوس المثقفين في ذلك العصر شعور غامر بالرضى والبهجة والازدهاء ، فمن جهة كان الاسلام قد منح الناس حالة باهرة من اليقين الذي لا تشوبه شائبة من القلق او الشك . ومن الجهة الاخرى قام المعتزلة بدورهم الكبير في المزاوجة والتوفيق بين الفكر اليوناني والحضارة الاسلامية ، بعد ان نقل المترجمون فلسفة ارسطو وافلاطون وسقراط وغيرهم الى اللغة العربية . وكان من اثر ذلك كله ان ازدهرت حركة التصنيف والتأليف والترجمة والنقل ، وعكف رجال الفكر والفن والادب على الانتاج ، وصنفت الالاف من الكتب بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الانسانية .

وولد ابو الطيب في احضان الفاقة ، وعانى في طفولته اشد صنوف الالم ، فقد امه صغيرا ، وشهد بعينيه فظائع القرامطة حين كانوا يغيرون بين حين وآخر على مسقط رأسه : الكوفة ، مدينة العلم والادب ، فيعيثون فيها فسادا ثم ينهبون كل ما تصل اليه ايديهم ، ويعودون الى مخابئهم في الصحراء دون ان يستطيع الخليفة المستضعف ان يوقفهم عند حدهم . وكان العراق مسرحا للاضطرابات والشغب ، وكانت المجاعات والطواعين والثورات تتعاقب على الرعية (اي الشعب بمفهومنا الحديث) والتي كانت الضحية الاولى والاخيرة لفساد الاوضاع .

اما الامراء والوزراء والتجار وملاك الارض او من يسمونهم (بالخاصة) فقد كان لهم شأن آخر . وكان على المتنبي منذ شبابه الاول ان يعيش حياة مزدوجة ، فهو الشاعر المدلل المقرب للخواص ، وهو ذاته الرجل العادي المعرض دائما الى صنوف الاذى كبقية ابناء الشعب .

وفي هذا المقام يجب الا نغفل الاشارة الى مسألتين هامتين :

الاولى ان الثقافة قديما كانت وقفا على الطبقة المتنفذة ومن يدور في فلكها . واذا اتيح لواحد من (الرعايا) ان ينهل من منابع الثقافة فانه سيتحول بالضرورة الى الطبقة الخاصة ، لانه حينئذ لن يجد لنفسه مكانا بين افراد طبقته الاولى . والمسألة الثانية هي ان الادب القديم لم يكن له اي مجال للازدهار والتفتح الا في قصور الامراء والوزراء حيث تتقارع الافكار وتتبارى الاقلام وتتنافس المواهب وتوهب الجوائز بسخاء لمن يشهد له كبار المتخصصين بالتفوق . ومن جهة اخرى فان الامراء والوزراء محتاجون الى الشعراء مضطرون الى خطب

ودهم بكل وسيلة ، ذلك لان الشاعر كان في الماضي يقوم بمهمة الصحافة والراديو وموظف الدعاية في زماننا ! وعلينا ان نتذكر ذلك جيداً كلما تعرضنا لدراسة ادبنا العربي في عصور ازدهاره ، والا فسد حكمنا ولم يعد له من قيمة .

ان الباحث في سيرة المتنبي المتتبع للدراسات المكتوبة عنه قديما وحديثا لا بد له ان يتفق مع القاضي الجرجاني (1) فيما ذهب اليه من ان اهل الادب يختلفون في ابي الطيب ، فهم بين فئتين (فاما مطنب في تقريظه ، منقطع اليه بجملته يشيع محاسنه اذا حكيت بالتفخيم ويميل على من عابه بالزواية والتقصير ، واما عائب يروم ازالته من رتبته ويجتهد في اخفاء فضائله وتتبع مسقطاته) . ولم يقف هذا الامر عند حد النقد الادبي بل ان الرجل لقي من اعدائه العنت والاذى ، وكان كثيرا ما يلوذ بالصبر او يتكلف اللامبالاة ، وحين تطفح الكاس وينفد صبره ينفجر في ثورة عارمة ، وينسب حقد اعدائه عليه الى الحسد ، ولن ندهش بعد هذا ان وجدناه يبالغ في الفخر بنفسه حتى يجاوز كل حد . اذ كان شعوره بعظمته الشخصية يعيد اليه راحته المسلوبة فتهدأ نفسه ويسكن قلقه .

وثمة موهبة اختص بها ابو الطيب دون الشعراء ، كان ذا قابلية خارقة في اثارة غيظ (الكبار) منه . دعاه الصاحب بن عباد ، وكان مقصد الادباء والشعراء ، وتلهف الى قدومه ، ولكن شيئا بدا للمتنبي ، فأدار وجهه ، ورفض أن يلبي الدعوة ، ولم يكلف نفسه حتى الاعتذار !! ومن ذلك اليوم انحاز الصاحب الى جانب الاعداء مع ان الروايات تشير الى شدة اعجابه بشعر المتنبي . ثم الف كتابه في (الكشف عن مساوىء شعر المتنبي) . وطمحت نفس الوزير المهلبي الى مدائح ابي الطيب وارسل اليه يستدعيه ، وما كاد ابو الطيب يرى احوال المهلبي الماجن حتى اشمأزت نفسه فغادر المكان ولم يعد اليه !! وابى ان يمدح المهلبي ! فهاج الوزير وماج ، وأسرع يغري الماجنين من شعراء بغداد ويؤلبهم عليه.ولم يكن ابن حجاج أو ابن سكرةفيحاجة الى منيحرضهم على ابي الطيب ، اذ كان الحسد يتأكل قلوب صغار الشعراء جميعا . كما يروي الثقات . ولم يكتف المهلبي بكل ذلك بل بعث اليهالاديب المعروف بالحاتمي يناظره ، وكانت النتيجة ان ظهرت (الرسالة الحاتمية) تلعن وتشتم وتلصق كل نقيصة في خيال كاتبها ، بالمتنبي !

وفي بلاط سيف الدولة الحمداني غضب ابو فراس الحمداني من تيه ابي الطيب وترفعه وكبريائه وابائه ، فكان يؤلب عليه ادباء البلاط من مثل ابن خالويه وابي علي الفارسي .

ولم يكن الامر بافضل من ذلك في بلاط كافور الاخشيدي بمصر . فقد برز له الاعداء ، وكان منهم الوزير ابن حنزابة ، الذي ذكر الخطيب التبريزي في شرحه لديوان المتنبي انه المقصود ببيتيه :

وماذا بمصر من المضحكات	ولكنه ضحك كالبكا
بها نبطي من أهالي السواد	يدرس انساب اهل الفلا

وتمت المأساة واكتملت فصولها حين اسود قلب فاتك الاسدي بالحقد عليه ، فجمع له جمعا من قطاع الطرق ، وهاجمه وقتله في معركة غير متكافئة .

ولو رجعنا الى ديوان الشاعر نتفحصه ونتامله لتكشفت لنا الحقيقة : حقيقة مشاعره ازاء مواقف الاعداء . فهو يشكو الدهر ، ويتوجع من كيد الناس واصفا اياهم بالسفلة والصغار والطغام والحساد والمتشاعرين والكذابين يقول :

افاضل الناس اغراض لذا الزمن	يخلو من الهم اخلاهم من الفطن

او يقول :

ابدو فيسجد من بالسوء يذكرني	فلا أعاتبه صفحا واهوانا
وهكذا كنت في اهلي وفي وطني	ان النفيس غريب حيثما كانا

او يقول :

أعادي على ما يوجب الحب للفتى	وأهدأ والافكار في تجول
سوى وجع الحساد داو فانه	اذا حل في قلب فليس يحول

او يقول :

ارى المتشاعرين غروا بذمي	ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض	يجد مرا به الماء الزلالا

او يقول :

ودهر ناسه ناس صغار	وان كانت لهم جثث ضخام
وما انا منهم بالعيش فيهم	ولكن معدن الذهب الرغام
وشبه الشيء منجذب اليه	واشبهنا بدنيانا الطغام

ولم يغب عن باله أنه غريب بين الناس . يقول :

وحيد من الخلان في كل بلدة	اذا عظم المطلوب قل المساعد

ولو تساءل متسائل عن مظاهر الشذوذ في خلق المتنبي ، وعن علة كراهية كل اولئك الناس له فانه سيجد الجواب الشافي في احاديثهم عنه . فلنصغ جميعا اليهم ولننصت جيدا . يقول ابو القاسم الاصفهاني (1) (المتنبي في الجملة خبيث الاعتقاد ، كان في صغره قد وقع الى واحد من المتفلسفة فهوسه واضله . اما ما يدل عليه شعره فمتلون ، فمرة يذهب مذهب السوفسطائية ، وطورا الى مذهب التناسخ ، واخرى الى مذهب الفضائية ، او الى مذهب الشيعة ، او مذهب من يقول بالنفس الناطقة او مذهب الحشيشية) . !

ماذا ترى – ايها القارىء في احكام هذا المتأدب الاصفهاني؟ اتوافقه على ما نسبه الى الشاعر من خبث المذهب استنادا الى مزاعمه المضطربة المضحكة وغير المنطقية التي ان دلت على شيء فعلى انه يهرف بما لا يعرف ويتدخل فيما لا يفهم ؟ اما اذا شئت ان تفهم سر الحاحه على نسبة الضلالة الى الشاعر ، فان عليك ان تعلم ان الاصفهاني انما الف كتابه لبهاء الدولة البويهي ردا على دفاع ابن جني عن صديقه المتنبي . اما البويهيون فلهم حديث طويل – ليس هذا موضعه – مع شاعرنا المتحمس لقومه العرب المفرط في حبه لهم .

ويمضي الاصفهاني في حديثه قائلا : لما انشد المتنبي كافورا قوله:

اذا لم تنط بي ضيعة او ولاية	فجودك يكسوني وشغلك يسلب

قاصدا ولاية صيداء ، اجابه كافور (لست اجسر على توليتك صيدا لانك على ما انت عليه تحدث نفسك بما تحدث . فان وليتك فمن يطيقك ؟) وهذا الخبر ظاهر التمعل والكذب . اذ كيف يعقل ان يحاور رئيس امتد سلطانه من مصر الى الشام الى الحجاز ، رجلا يأتي اليه لنيل هباته بمثل هذه الطريقة ؟

ثم لا يكتفي الاصفهاني بايراد تلك الاخبار التي قصد بها ان يضع من منزلة المتنبي ، وانما يختم حديثه بالتهجم على الشاعر تهجما يثبت تحيزه وسوء نيته . يقول (ولم تكن في المتنبي فروسية وانما كان سيف الدولة سلمه الى الرواض فاستجرأ على الركض ، فاما استعمال السلاح فلم يكن من عمله ! اما عن شعره فهو سريع الهجوم على المعاني يقبل الساقط الردىء كما يقبل النادر البديع . وفي متن شعره وهي ، وفي الفاظه تعقيد وتعويض) !! وبهذا يفضح الاصفهاني نفسه بنفسه ويجاهربالعداوة وتكاد الفاظه تصيح معترفة بانه رجل مأجور يكتببعد ان قبض الثمن .

لقد انصب اهتمام حساد المتنبي واعدائه على بذل محاولات يائسة القصد منها التهوين من شانه في عالم الشعر ، والبحث عن نقائصه وتعداد التهم والعيوب والسقطات عليه ، فعل ذلك الحاتمي في رسالته سيئة الصيت ، وفعله ابن سكرة وابن حجاج في هجائهما المخزي ، ولكن جميع محاولات هؤلاء باءت بالفشل والخذلان ، لان سيرة المتنبي وشعره يكذبان كل ما ذهبوا اليه . لقد كان شوكة في حلوقهم .

---

1 الوساطة بين المتنبي وخصومه – القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي .

1 – ايضاح المشكل لشعر المتنبي – ابو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الاصفهاني .

وما اصدقه حين وصفهم ووصف نفسه بقوله :

جوهرة تفرح الشراف بها   وغصة لا تسيغها السفلة

كان ذلك موقف الاعداء . اما الوفائع ، اما سيرة الشاعر ، اما شعره ، اما روايات أنصاره فانها الابواب التي ندخل منها الى عالمه لنتعرف اليه ونكتشف الحقيقة بأنفسنا . وسنورد احدى تلك الوقائع :

يقول ابو الطيب :

اذا صديق نكرت جانبه   لم تعيني في فراقه الحيل
في سعة الخافقين مضطرب   وفي بلاد من اختها بدل

ذلك كان لسان حاله بعد خيبة أمله في كافور الاخشيدي . وشعر كافور بنوايا ابي الطيب واقشعر بدنه حين تخيل ما سوف تجود به قريحة الشاعر ضده ، فرصد عليه العيون يرقب حركاته ويترصد خطاه ليحول بينه وبين مغادرة ارض مصر . وكان المقام قد طال على ابي الطيب وأحس بأنه يختنق . ودارت في رأسه الافكار :

ليس عزما ما مرض المرء فيه   ليس هما ما عاق عنه الظلام
واحتمال الاذى ورؤية جانيه   غذاء تضوى به الاجسام

وهل هرب من صديقه وأحب الناس اليه سيف الدولة علي ، ليعيش مع عبد (مرت يد النخاس في رأسه) :

يهون على مثلي اذا رام حاجة   وقوع العوالي دونها والقواضب
اليك فاني لست ممن اذا اتقى   عضاض الافاعي نام فوق العقارب

ومضت الايام والاسابيع فهدأ كافور واطمأن ، بعد أن أحكم طوق الرقابة حول ابي الطيب . ولكن أنى له ان يعلم بما كان يجري ؟ ففي عشية كل يوم كان الشاعر الحذر يخرج الى ظاهر المدينة ، قاصدا مشارف البادية ومعه كل ما خف حمله من متاع وكتب وطعام وماء ، يخفيه هناك استعدادا ليوم الرحيل ، ثم يعود الى المدينة ينشد الناس قوله :

ذراني والفلاة بلا دليل   ووجهي والهجير بلا لثام
فاني استريح بذي وهذا   واتعب بالاناخة والمقام
ولما صار ود الناس خبا   جزيت على ابتسام باتسام
يحب العاقلون على التصافي   وحب الجاهلين على الوسام
اقمت بارض مصر فلا ورائي   تخب بي الركاب ولا امامي
قليل عائدي سقم فؤادي   كثير حاسدي صعب مرامي
وضاقت خطة فخلصت منها   خلاص الخمر من نسج الفدام
وفارقت الحبيب بلا وداع   وودعت البلاد بلا سلام

وكان له صديق ذو صلة بالاعراب وله دراية بمسالك الصحراء فأعانه في كل حاجته وسهل له سبيل الفرار . وفي فجر العيد وكان كافور على عادته يقسم الصدقات على الفقراء . تحركت قافلة صغيرة تضم المتنبي وعبيدا له يحملون أمتعته وكتبه ويرافقونه في الرحلة الطويلة . وسار الركب في تيه سيناء سالكا سبلا مجهولة لا يعرفها غير اعراب البادية ، ومتغلغلا في اعماق الفيافي المرعبة التي يلفها السكون والوحشة ولا يسمع فيها غير عزيف الريح وكأنه وسوسة الجن ! وعلم (الاسود) بهرب الطريدة . فارسل يسد عليه مسالك السفر جميعا وبعث الى القبائل القاطنة على الطريق يأمرها بملاحقة الشاعر وهيهات!

وبعد ثلاثة اشهر بلغت القافلة الكوفة . ثم وردت الاهاجي واحدة بعد الاخرى تصك اذني كافور . ودوت الحواضر والبوادي بالمقصورة الخالدة :

الا كل ماشية الخيزلي   فدى كل ماشية الهيذبى
وكل نجاة بجاوية   خنوف وما بي حسن المشى
ولكنهن حبال الحياة   وكيد العداة وميط الاذى
ضربت بها التيه ضرب القمار   اما لهذا واما لذا
لتعلم مصر ومن بالعراق   ومن بالعواصم اني الفتى
واني وفيت واني أبيت   واني عتوت على من عتا
ونام الخويدم عن ليلنا   وقد نام قبل عمى لا كرى
وكان على قربنا بيننا   مهامه من جهله والعمى

هذه الحادثة تلقي الضوء على أحد جوانب شخصية ابي الطيب فقد وجدناه رجلا ابيا لا يقيم على ضيم ولا يستكين امام القوة ، ولا يحاول مخادعة نفسه وتمنيتها الاماني :

ليس التعلل بالآمال من أربي   ولا القناعة بالاقلال من شيمي
ردي حياض الردى يا نفس واتركي   حياض خوف الردى للشاء والنعم
ميعاد كل رقيق الشفرتين غدا   ومن عصى من ملوك العرب والعجم

ولقد كانت ارادته من حديد وكرامته فوق أي شيء في الدنيا :

غثاثة عيشي ان تغث كرامتي   وليس بغث ان تغث المآكل

لقد كان ازاءه هدف يسعى اليه ويبذل دونه حتى الحياة :

يقولون لي ما أنت في كل بلدة   وما تبتغي؟ ما أبتغي جل ان يسمى

انه لا يعجب الا بالابطال ولا يتعشق الا المجد والخلود . وكم يحتقر ذلك الصنف من البشر ، الذي يأتي الى الحياة ثم يذهب ، وكأنه لم يكن ولم يوجد :

في الناس امثلة تدور حياتها   كمماتها ومماتها كحياتها .

بل انه يكاد يشذ عن الطبيعة البشرية . فالناس ينشدون الراحة والرفاهية والسعادة والطمأنينة والاستقرار ،اما هو فاقصى لذته في الاخطار والمتاعب والحركة والسفر والمغامرة :

سبحان خالق نفس كيف لذتها   فيما النفوس تراه غاية الالم

ولكن ما سر هذا الحب هذا الوله بالاخطار والمشاق ؟؟ فلنستمع الى جوابه :

تقولين ما في الناس مثلك عاشق   جدي مثل من أحبته تجدي مثلي
محب كني بالبيض عن مرهفاته   وبالحسن في اجسامهن عن الصقل
وبالسمر عن سمر القنا غير انني   جناها احبائي واطرافها رسلي

اما المتع الرخيصة التي يتقاتل من اجلها الناس ، فهي لا تثير لديه اي اهتمام :

ومراد النفوس اصغر من ان   نتعادى فيه وان نتفانى

فاذا شئت ان تتعرف الى سر فؤاده وتزيح الستار عن هوى قلبه فسوف ترى انه لا يتعشق سوى النفوس الجميلة ذات الشمائل الحلوة فذلك وحده الذي يثير اعجابه وافتتانه :

الى ذي شيمة شغفت فؤادي   فلولاه لقلت بها النسيبا

فهل نعجب بعد هذا اذا رأيناه يصفي الود ويبذله كله خالصا لصديقه علي (سيف الدولة الحمداني) البطل المقدام ، والاديب الالمعي ، والعربي الشهم اذ يرى فيه تحقيق آمال قومه العرب في النجاة من مطامع الفرس والترك والروم :

لحب ابن عبدالله اولى فانه   به يبدأ الذكر الجميل ويختتم
أطعت الغواني قبل مطمح ناظري   الى منظر يصغرن عنه ويعظم

اما مفارقته لصديقه الحبيب سيف الدولة فتلك هي الواقعة الثانية التي نستطيع بها ان نزيح حجابا آخر عن شخصية المتنبي . ولقد ظلت علاقة المتنبي بالامير سيف الدولة لغزا من الالغاز ، وكثيرا ما اوقعت المؤرخين والادباء في حيرة شديدة، فلم يجدوا لها تفسيرا ولم يتوصلوا الى اي حل للغز. ولست أنوي في هذا المقام التعرض لذلك الموضوع اذ انه اوسع من ان تستوعبه هذه المقالة . ولكنني ساكتفي بالتحدث عن موقف المتنبي من صديقه الامير بعد ان وقعت القطيعة بينهما وانقطع حبل الود .

لقد أكره أبو الطيب على مغادرة حلب بعد ان زادت المضايقات من ادباء البلاط دون ان يحرك سيد البلاط ساكنا . وخادع نفسه ومناها بان سيف الدولة لا يعلم بما يجري . وراح يلفت انتباهه ويحذره وينذره :

يا من يعز علينا ان نفارقهم   وجداننا كل شيء بعدكم عدم
ان كان سركم ما قال حاسدنا   فما لجرح اذا ارضاكم ألم
اعيذها نظرات منك صادقة   ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع اخي الدنيا بناظره   اذا استوت عنده الانوار والظلم
سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا   بانني خير من تسعى به قدم

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي ... واسمعت كلماتي من به صمم
انام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم
ومرهف سرت بين الجحفلين به ... حتى ضربت وموج الموت يرتطم
الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ولما تحقق لديه الا جدوى من العتاب وان قلب صديقه قد تغير عليه ، لبس الليل درعا ومضى الى دمشق التي كانت تحت سلطان الاخشيديين فدعاه كافور الى مصر ليمدحه .

ودخل ابو الطيب على كافور لينشده اولى مدائحه فماذا قال ؟ لنستمع :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا ... وحسب المنايا ان يكن امانيا
تمنيتها لما تمنيت ان ترى ... صديقا فاعيا او عدوا مداجيا
اذا كنت ترضى ان تعيش بذلة ... فلا تستعدن الحسام اليمانيا
حببتك قلبي قبل حبك من نأى ... وقد كان غدارا فكن انت وافيا
واعلم ان البين يشكيك بعده ... فلست فؤادي ان رأيتك شاكيا
فان دموع العين غدر بربها ... اذا كن اثر الغادرين جواريا
اذا الجود لم يرزق خلاصا من اذى ... فلا الحمد مكسوبا ولا المال باقيا
رأيتك تصفي الود من ليس صافيا ... افل اشتياقا ايها القلب ربما
خلقت الوفا لو رجعت الى الصبى ... لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وهكذا يوجه الحديث لا الى الممدوح الجديد المتلهف الى القصائد التي ستخلده ، وانما الى نفسه يحاول تسليتها عن الماضي الجميل عن عهد سيف الدولة وترسم امام اعيننا صورة شديدة الوضوح للصراع النفسي الذي كان يعذب روحه .فهو حائر بين كبرياء نفسه وهوى قلبه، وهو يتوسل الى قلبه تارة ويوبخه اخرى ، لعله يعينه على التجلد والصبر ، ولكن عبثا فالدموع تكاد تتفجر من بين الالفاظ الحزينة المؤثرة ، وهو سيتجرع كأس العذاب حتى الثمالة .

ويبذل كافور محاولات وجهودا لاستمالة قلب الشاعر ويقدم الهدايا والاموال ، ولكن روح ابي الطيب ترفرف ابدا على بلاط سيف الدولة ، والفراق صار شغلا شاغلا له، فهو لا يعبأ حتى باصول المجاملة :

فراق ومن فارقت غير مذمم ... وأم ومن أممت خير ميمم
رحلت فكم باك باجفان شادن ... علي وكم باك باجفان ضيغم
فلو كان ما بي من حبيب مقنع ... عذرت ولكن من حبيب معمم
رمى واتقى رميي ومن دون ما أتقى ... هوى كاسر كفي وقوسي وأسهمي

وحين يصحو من الحلم الجميل متذكرا انه يخاطب كافورا لا سيف الدولة يستمر في خشونته نحو كافور المسكين ، لانه في الواقع لا يفكر فيه الا كوسيلة يتحدى بها سيف الدولة . يقول مخاطبا كافور :

ابا المسك ارجو منك نصرا على العدى ... وآمل عزا يخضب البيض بالدم
لمن تطلب الدنيا اذا لم ترد بها ... سرور محب او مساءة مجرم

وتمضي الايام وتنقضي الشهور ، والاموال تنفق على الشاعر بسخاء في مصر ولكن قلبه حزين يائس وتعيس :

بم التعلل لا اهل ولا وطن ... ولا نديم ولا كأس ولا سكن
سهرت بعد رحيلي وحشة لكم ... ثم استمر مزيري وارعوى الوسن
وان بليت بود مثل ودكم ... فانني بفراق مثله قمن !!

ويأتي عيد ويذهب عيد ولكن دنياه سوداء كالحة :

عيد باية حال عدت يا عيد ... بما مضى ام لامر فيك تجديد
اما الاحبة فالبيداء دونهم ... فليت دونك بيدا دونها بيد
يا ساقيي اخمر في كؤوسكما ... ام في كؤوسكما هم وتسهيد
اذا اردت كميت اللون صافية ... وجدتها وحبيب النفس مفقود

ثم يغير ابو الطيب نهجه ويرفض ان يمدح كافورا بل يتحول الى هجائه ، وهو ما زال في مصر ، وحينذاك يتخذ من شخص سيف الدولة عزاء وسلوانا كي ينسى حقارة كافور وضعته (ذلك كان رأيه في كافور) :

اريك الرضى لو أخفت النفس خافيا ... وما انا نفسي ولا عنك راضيا
فان كنت لا خيرا افدت فانني ... افدت بلحظي مشفريك الملاهيا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ... ليضحك ربات الحجال البواكيا

انه جذل سعيد بهذه اللهجة القاسية اللاذعة لانه يدري بمدى فرحة سيف الدولة حين سيسمعها وسيتشفي بمنافسه كافور وبذلك سوف يستعيد رضاه ، وسيتصالحان من جديد !! وبالفعل فقد عاد سيف الدولة يسترضي شاعره بالهدايا الثمينة يرسلها بيد ابنه الامير الشاب كي يتأكد المتنبي من معزته في قلب صديقه القديم ، ويقبل ان يرجع الى بلاطه . ولكن الشاعر كان قد عرف من اخلاق سيف الدولة ما يمنعه من ذلك فراح يكاتبه متظاهرا بانه سيعود وهو لا ينوي العودة!!

اما الواقعة الاخرى التي ترسم صورة دقيقة لخلق المتنبي والوقائع اكثر من أن تحصى لو كان المجال يسمح ـ فهي حادثة سفره الى شيراز ـ فقد تاق عضد الدولة البويهي الى مدائح المتنبي اسوة ببقية الامراء المعاصرين له ، فبعث الى الوزير الكاتب ابن العميد يأمره ان يسعى في اقناع الشاعر بالسفر اليه . وكان المتنبي حينئذ في ارجان مع ابن العميد ينشده مدائحه الرائعات ، ويعلن استغرابه من قابلية هذا الكاتب الكبير في الجمع بين المتناقضات :

ما تعودت ان ارى كأبي الفضل وهذا الذي اتاه اعتياده
عربي لسانه فلسفي رأيه فارسية أعياده !

وفي الطريق الى شيراز مر ابو الطيب بشعب بوان وهو متنزه ساحر المناظر أسر لب الشاعر ، ولكنه لم يستطع ان ينسى ان اهل هذا المكان هم اعداء قومه العرب ، فاشار الى ذلك في ابياته المؤثرة التي قالها في وصف الشعب :

مغاني الشعب طيبا في المغاني ... بمنزلة الربيع من الزمان !
ولكن الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان

وأبت عليه مروءته ان يترك فرصة مثل هذه تمر دون ان يستفيد منها ، ففارن بين الشعب الاعجمي ودمشق العربية ، وافتخر بالكرم العربي المشهور وكأنه يعرض ببخل اهل شيراز ! وحين دخل على عضد الدولة جابهه بقصيدته الغريبة المطلع :

اوه بديل من قولتي واها ... لمن نأت والبديل ذكراها

ووجدناه مرة اخرى يعاود محاولته السابقة في ذكر دمشق وحمص وخناصرة ، وكأنه يريد ان يذكر عضد الدولة بانه عربي شديد الاعتزاز بقومه وبعروبته وبذلك يرفع من منزلته في عيني ممدوحه ولو بالرغم عنه :

شامية طالما خلوت بها ... تبصر في ناظري محياها
كل جريح ترجى سلامته ... الا فؤادا رمته عيناها
أحب حمصا الى خناصرة ... وكل نفس تحب محياها
حيث التقى خدها وتفاح لبنان وثغري على حمياها

تلك مواقف وطنية يقفها ابو الطيب في وقت او زمان لم يكن الناس يميزون مثل هذه المشاعر ، اذ كانت الروابط المعروفة هي روابط الدين والروابط المذهبية القبلية . ولعل تلك الغيرة والحمية الوطنية هي العلة الرئيسية التي بغضت المتنبي الى بعض المستشرقين الاوروبيين في العصر الحديث ، فهم يهاجمونه في كتبهم بمناسبة وبدون مناسبة.

اما شعره فهو سجل دقيق وصادق وكامل لسيرته واخلاقه اذ انه لم يكتب بالمداد وانما سطر بدم القلب ورعشات الروح والمرء حين يعجب بشعر احد الشعراء يسعى للاطلاع على سيرته ورأي معاصريه فيه ليزداد له تفهما ومنه اقترابا . اما اذا فتح ديوان المتنبي وبدأ يقرأ فيه . فانه لن يحتاج معه الى شيء . ان شعره سيغنيه عن كل شرح وكل وصف وكل تفسير . سيرى الشاعر امامه : رجلا مؤمنا بالبطولة متعشقا للمثل العليا ، لايعرف هدفا للحياة اسمى وانبل من نيل العلى وتحقيق الامجاد .

جدّ ابو الطيب في البحث عن الجمال ، شأنه في ذلك شأن كل فنان على وجه الارض ، فاين وجده ؟ لقد رآه متجسدا في النفس البشرية حين تتسامى الى اقصى درجات العظمة والكمال . وهو في

قمر الصباحات المنتحرة

لي صباحاتي أذا ما احترقت ضوء فتيلا
وصباحاتي أذا أحتقرت في مقبض الباب ،
لتستجدي العويلا
وصباحاتي أذا ما انتحرت عاما قصيرا أو طويلا .
معتما كان مداري ،
غرقت كل نجومي في سماء باهته
ألف عام أغبر ، تطوي ليالي عصور ميته
قمري الناحل ما نام ليالي الموت ،
ما نام ليالي الزوبعه
طالما سال حليبا في الخيام
كورته امسيات الجوع أطباق طعام
وسريرا ناصعا تفرشه أنقاض تاريخي ،
وأشلاء عظامي
في سماوات انكساري واحتقاري
قمري كان صعودي وانهياري
حارسي الليلي في صيف المنافي والسجون
شده الجلاد جرجا ساطعا فوق الجبين
من مدار مغلق حول مدار
لمدار مغلق حول مدار
قمري كان هواي الساهر العين ،
على بؤسي حنيني

وعلى طول انتظاري
فارسا منطفئا بين جدار وجدار

* * *

قمري الناحل مطروح على باب الظلام
طائرا في طائر الرعب المدمّى
عائدا من سفر الدهر ،
ومن منفى الخيام
عابرا ألف مدار ومدار :
عبر الصيف الذي ينسل ،
من أفق محمّى
وشتاء ناحلا ينحل اوجاعا وحمّى
وخريفا طاعنا يمطر عتمات ودها .
عابرا ألف جدار وجدار :
عبر النهر الذي ينساب في موت بطيء
عبر النهر ، ليحيا النهر في الموج الوضيء
وهج يسطع حتى القلب في كهف وطيء
وهج يطلع من جرح الى ليل صدىء

* * *

قمري يطلع من كل جدار وجدار
عابرا ألف مدار ومدار
وأنا من وجهه ، أفرش باحات لعيني ،
وباحات لداري
وأنا أوصد للعالم أبواب الظلام
وأنا أسند للعالم أنقاض الايام
وأنا أبدأ للعالم أحلام النهار

الخرطوم — **عبد الرحمن عبد الله**

ذلك لم يقنع بان يكون حامل مثل وحسب ، بل كان مثقفا على الطريقة الاسلامية الحقة (على المؤمن ان يزيل الباطل بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، وان لم يستطع فبقلبه ، وذلك اضعف الايمان) فليس بعجيب بعد هذا ان يشتد اعجابه بالامام علي لانه يرى فيه تحقيقا لقولـه :

الرأي قبل شجاعة الشجعان — هو اول وهي المحل الثاني
فاذا هما اجتمعا لنفس حرة — بلغت من العلياء كل مكان

وهكذا نجد المتنبي يخالف غيره من الناس في مسألة أساسية : ان الرؤى وعالم الواقع يمتزجان في نفسه ويتشابكان بحيث يعجز عن التمييز بين الحقيقة والخيال . بين ماهو كائن وما يجب ان يكون ، بين صلابة العالم المادي الذي يعيشه وبين دنيا المشاعر الشفافة التي يحسها دون ان يلمسها . كان يحلم دائما بالنفوس الحلوة التي تشغف فؤاده فلماذا لايجدها بين الناس ؟ ذلك هو سر مبالغاته المشهورة في الافتخار بنفسه ، والتمدح بشمائل زعماء زمانه . ولم تكتف عيناه برؤية دنيا الواقع وحده وانما امتدت رؤياه الى عالم المستقبل الجميل حين سيتعلم الناس الا يفصلوا بين القول والفعل ، بين المثل الاعلى وتحقيقه . لقد كان يضنيه ان يرى العامية والبشاعة والصغار والشراهة واللؤم والخسة هي المظاهر السائدة المتغلبة على حياة اغلب الناس ،وكان يتصور انه يستطيع اذا حكم ولاية او ولايات ، ان يغير هذا الواقع المر ويبدله الى عالم جديد نبيل مثالي — ربما على طريقة افلاطون في جمهوريته الفاضلة . وكان يرى انه اجدر الناس بتحقيق ذلك الهدف لشجاعته وعفته وابائه وترفعه عن الدنايا والصغائر .

وفي سورة الحماس والاندفاع الصادرين عن قلب فنان طفل ،غفل عن مسألة أساسية ، اذ نسي ان القابليات والمواهب على اصناف، وان من كان ميدان بطولته الشعر والفن ، يعجز انيقفز على حبال السياسة، لاسيما في تلك الاوضاع الفاسدة التي عاصرها .

لقد كان شعر المتنبي ملحمة رائعة قدمت اصفى صورة للانسان حين يريد ، وحين يختار ، وحين يعرف السبيل السوي الذي ينبغي له ان يجتازه فيمضي فيه بعزيمة تهد الجبال . وكان يسعى الى المجد فحصل عليه ، ودخل اسمه في سجل الخلود . وما كان اصدقه حين قال :

وما الدهر الا من رواة قصائدي — اذا قلتشعرا اصبحالدهر منشدا

بغداد — **احسان الملائكة**

مدينة الزوابع الملفقة

تسهر حتى الصبح في خمارة الحاره
عارية ترقص والانوار
تفتض من رحم الدجى غشاوة البكاره
ليامع الاسفلت والحجاره
وتفتح النوافذ المخضبه
بالازرق الداكن ضاع الازرق المعار
فالليل جنسي العبير فاضح الاسرار
فيها ، وكل خمرة قديمة مجربه
تـــدار
ليسكر السواح والسمار
تصفق النضاره
في المسرح المنهار
لجوقة التمثيل والمهاره
كانما المغول ما مروا بها
كانما المغول ما دكوا من الاسوار
في الصيف اعلاها ولم يعسكر التتار

* * *

سألت في الصباح جاري
مــا آخر الاخبار ؟
اجابني بحرقة وبانكسار
تجمع الشرطة حول الدار
وداهموا ابواب ماري
مسكينة ماري
كم تكره التحقيق والشرطه

* * *

مدينة الزوابع الكثيره
رهيبة عيونها المثيره
ووجهها المليء بالطلاء
يهجره الطلاء في الظهيره
فتبرز الملامح الكسيره
عيونها الرمداء
وشعرها المجزوز والاثداء
والوجنة المريضة الدماء
تدل في مشيتها الفريره
فتفضح الاضواء
ما فعل الغريب بالاميره

* * *

فتيان عبس يلعبون بالسيوف والنبال
ودونهم اميرة القبيله
مقصوصة الجديله
مسبية ، والارض والجمال
والعقل والتفكير والآمال
لا كنت يا نبال
لا كانت السيوف والرجال
وامرأة تصيح بانخذال :
. . . .
والمعتصم
رايته في وجه جاري
تشغله اخبار ماري
لا كنت لا كانوا ولا كان
أكاد ان اجن من ذلي وعاري
يصفعني
في كل لحظة حزيران

سوريا ـ البوكمال
مروان الخاطر



عندما يتكلم (كانت) عن الزمن كشكل خارجي للتجربة انما يوضح أهمية الزمن في انتظامه الاحداث وكل ما في العالم ، في رابطة تأريخية . فهو يمنح كل شيء حدوثا متجددا وخلودا . وهو في الوقت نفسه الفاء مستمر لهذا الخلود . والزمن ليس اتفاقا او ترتيبا يلجأ له الانسان في عملية خلقه عالما منظما معقولا . بل هو قوة تبتدىء بابتداء جذور العالم وأصوله . وهذه القوة مرتبطة مع النواتات ومتطورة معها بحيث لا مفر من الزمن كمرافق عريق لابتداءات الحياة واستمراريتها القائمة . والزمن هنا لم يكتسب هذه الاهمية العقلية الفائقة الا عن طريق الانسان . فالانسان مخاط بالزمن في حين انه هو الذي يعطي للزمن هذه التسمية .

وعندما نتكلم عن الشاعر لا بد ان نتفق على زمنين: الزمن الصوري والزمن الاخر . والزمن الصوري هو الزمن الذي تنبثق فيه القصيدة. ويكون هذا الزمن مملوءا باعتمالات معينة أوبأفعال ترسم انعكاساتها على الشاعر . وهذا الزمن بالضبط هو زمن ميلاد القصيدة .والصورية فيه لكونه جزءا من الزمن العام . ولكن الزمن الاخر هو المهم بالنسبة للقصيدة ، لانه زمن القصيدة الانطولوجي والذي يستمر مع القصيدة عبر أجوائها وحركتها . وهو عموما يرافقها في الكينونة والتصير والانقطاع . ان الشاعر يعمل دوما على استحصال زمن جديد لقصائده . وهو في انفلاته من الزمن العادي ، وترتيبه الاعتيادي انما يختلق زمنا جديدا . وهذا الزمن الجديد المختلق يختلف كليا عن خصائص الزمن الفعلي لكونه لايمتلك ماضيا وحاضرا ومستقبلا . أي انه يحطم التقسيمات الزمنية المعروفة بحيث تتبلور فيه وحدة زمنية هي كتلة من (الماضي والغد) معجونة في آنية الشاعر . ان استحصال زمن جديد آخر هو مايميز الشاعر الملهم عن (الشاعر) الذي يكتب شعرا. فالذي يكتب شعرا جيدا – غير ملهم – تتداخل لديه الوحدات الزمنية وهو تارة ينفلت من عادية الزمن ، وتارة اخرى يقع في قصيدة زمنه اليومي . لذلك لايستطيع أبدا ان يقدم تجانسا في جو القصيدة حيث تمتزج لديه الرؤى الشعرية مع القصيدة في النظم .ولا بد هنا ان تتفكك القصيدة وتتحول الى عطاء واحد ظاهريا يمتلك الوحدة السطحية فقط في حين انه تتلملم الصورة والافكار بدون وحدة عميقة وبدون ترابط حي منسجم . ان الشاعر وبعد ان تتوافر لديه كافة شروط التواجد الشعري يلج زمنه الخاص وهذا ما أكسب الشاعر الملهم طبيعة صوفية وقتية . ان الزمن الجديد هذا هو (زمن الغيبوبة) بالنسبة للمتصوفة . وهو بالاساس يتشكل مع الرؤى الحقيقية . اما الرؤى الزائفة فلا تستطيع ان تضمن الزمن الجديد الضروري لعملية الخلق الشعري . ان هذا الزمن المستحصل والذي يقف على مسافة من الزمن الحقيقي يمتلك حقيقة كونه خلاصة نقية ، وشفافية تظهر خلالها ملامح الكون والعالم الارضي ؛ وهو في الوقت نفسه الزمن الذي يستطيع وحده المضي الى جوهر الاشياء وعمق الحقيقة الكونية الكبرى وغير المدركة . وهو من هذا الاساس زمن بطولي جريء لانه ينتهك حرمة مجهولات عديدة وجملة من عوالم (التابو) . وهذا الزمن اللاطبيعي وغير العضوي الذي يحل في وقت ما مع ظهور الانبثاق الداخلي هو زمن الشاعر الحقيقي . وعندما يكون الشاعر مزيفا او يستطيع أن ينجح لحين ما في تقديم دفقات عاطفية او صور ذهنية او حسية جيدة مدعومة بقابلية معينة في البلاغة والاقتباس وضبط شكلي للايقاع ، فانما يظل أيضا مقطوعا من الزمن الحقيقي للشاعر . ان استحصال الزمن المزيف وافتعال ايجاد رؤى ، والجواس في عالم وهمي مفترض بادعاء وتكلف لايمكن ان يحول في احشائه بذور الشعر الحقيقي .

اننا عندما نتكلم عن هذا الزمن – زمن الشاعر – فاننا نتكلم عن طلاق جديد ، هذا الطلاق هو ايعاز للذات بضرورة الانفصال والاستغراق في النشوة الجديدة والمعرفة المرتقبة . ولكن هذا الطلاق ليس انفصالا ابديا بل انه في الابدية ، يحتضن الاتصال والوجوه والحركات . وفي كل الدرجات ومهما تكن عزلة الشاعر المقدسة – ساعة الخلق الشعري – فالشاعر يظل محافظا على هويته كابن طبيعي للكون والاشياء حيث تتجسم في كلماته تعبيرات الحياة وأسرارها .

وفي الشعر الروحي – ولا أقصد بالروحي هنا الفهم المدرسي – يبدو واضحا تآلف الشاعر مع زمنه . حيث يتضح التآلف مشجعا خالقا أنيسا . وفي الشعر الرومانسي ايضا يتعلق الشاعر بزمنه ولحد ما . ولكن هل ان ذلك الزمن الجديد متوفر أثناء عملية خلق القصيدة بالنسبة للشاعر الواقعي والجماهيري مثلا ؟.. وهنا لابد من القول ان هذا الشاعر الواقعي او الجماهيري بقدر مايكون مخلصا لقصيدته ، مخلصا لموضوعه ، متفاعلا معه بتجذر وامتزاج كلي يشغل ساحة الشاعر فان الزمن الجديد يتوفر تحت ضمانة الحس الداخلي والاختيار المتاصل وبذلك تنبثق الى الوجود قصيدة جيدة جديدة .

وبخصوص هذا الوضوع – موضوع الزمن – يبرز تساؤل مهم جدا هو عن مدى ارتباط الزمن بالارادة ! والحقيقة ان في الامر عقدة ما . فلو أمكن القول بان الزمن ليس ارادة بل هو انبجاس جديد مرتبط بمداهمة رؤى واخيلة معينة تغزو وعي الشاعر ، وبالتالي

لانستطيع الارادة ان تتوصل الى ايجاد نمو لهذا الزمن أبدا ، نكون قد ختمنا على الوعي بالشمع الاحمر ، ونفينا الطاقة الانسانية كارادة كفعل حي ، كعلاقة وحيدة ضد العدم . ولو انتقلنا الى الضد وقلنا أن الزمن ارادة ، فمعنى ذلك اننا نجعل من الاخيلة واستحصال الزمن الشعري امكانية سهلة تتعلق بقوة الارادة وتتحول الاشعار الى أنماط أفعال منظمة ومصففة باختيار فيقدم الكثيرون بناء يسمى (الشعر) وهو مجرد من اي شحنات شعرية أو أي منطق داخلي او عذوبة نسقية.

اذن فالشعر ليس عملا اراديا كاملا ، وكذا ليس عملا لا اراديا كاملا . الشعر هو تواصل الارادة بالالهام . والزمن متأثرا بالارادة على اعتبار انه ياتي بعد مرحلة من الوعي والتكشف المستمر والفهم الحاد. وهو لا ارادي على اعتبار انه لم يأت بناء على طلب او توسل ، بل ينبثق متوافقا مع نفسه حسب الانعكاسات التي تؤثر على طقس الشاعر ، وحسب احتداماته الداخلية . اي انه متأثر بالارادة على اعتبار انه لايتهيأ لدى اولئك الذين لم يخلقوا أنفسهم عبر المجاهدة الشاقة والوعي الثاقب . وهو ليس عملا بأشارة من الارادة لكونه يمثل حالة مفاجئة . وهذا الزمن ـ زمن الشاعر ـ وليد الاتحاد بين الارادة واللا ارادة ، بين الوعي واللاوعي . هو زمن موسيقي ، مضطرب تجوس فيه روح الشاعر بكل حرية ، وتخلع باستمرار أغطية كثيرة وتزيح ركاما من كلمات تعقد الطريق امام التكشف والصرخة الحقيقية. فيه ينكشف قوة (اللوغوس) والاصوات المتكسرة على جرف العالم والاصوات التائهة ، والحركة السرية للموجودات . وهذا الزمن ليس حضاريا ، ولكنه نفس حضاري يرافق الحضارة ، يبتعد عنها . يختلي بها ، يواجهها ، يصادمها ، يدعمها ويقذف الشتيمة بوجهها . انه روح الكون الذي لايمتنع عن الكون ولا يقدر ان يحط الرحال . يتكلم عن النقاء والصور المثلى ، ويهين غباء العالم ولكنه لايحلم . انه يحلم ولا يحلم كما يقول (نوفاليس) . وفي كل الحالات ، والرؤى والاخيلة والانفعال الشعري والاشواق الانسانية ، تستقطب القصيدة الاجواء الواضحة والمجهولة لتساوي الحياة (الواضحة والمجهولة ايضا) وتحتضن الزمن كله . وكما يقول (بيرس) عن الشعر : (انما يعرف لنفسه انه مساو للحياة ذاتها . الحياة التي ليس عليها ان تبرر الا نفسها ، وفي ضمة واحدة ، كأنها قصيدة واحدة كبيرة حية يحتضن الشعر في الحاضر كل الماضي والمستقبل .)

وهذا الاحتضان الذي تقوم به القصيدة للماضي والحاضر والمستقبل ، هو الاحتضان الذي يتآلف مع اشعاعات العالم الازلية . وهو الطريق الوحيد لملاحقة الحقائق والكشف عن الجوهر الذي تلتف حوله الاجساد الشيئية وحركتها القائمة .

ولذا فان زمن الشاعر هو الزمن المحدد في رؤية الشاعر الصلفة ازاء الغموضات والاحاجي الكبرى . وهو زمن نشط جدا تقترن به الافكار بتداع حيوي مؤهل لتوفير شحنات فذة يقذفها الانسان في تخطياته .

الشعر والموسيقى

الشعر ليس اضافات نثرية تقدم مجموعة تضمينات . الشعر في الاصل مضمون مموسق . ان الكلام الذي يصوغ موسيقى لذيذة ولا يكف عن ايصالها ، بل يكون جوا رحبا يمنح الانغام جولتها الوحيدة ومتنفسها الوحيد . ومن هنا كانت للانضباط الموسيقي أهمية قدسية خاصة . فمنذ (الخليل) حتى الان والشعر العربي التقليدي مرتبط ارتباطا وراثيا هائلا ببحور محدودة موضوعة . وهذه البحور لم تكن في الاصل وضعا قانونيا مفروضا . بل هي كانت وبالضبط مجرد استقراء واحصاء لاوزان الشعر العربي . لذا فقد كانت تسجيلا تاريخيا فذا لاروع الانطلاقات الشعرية الخصبة وكانت عرضا ثمينا وموسوعيا للروح الموسيقية التي لا تخضع بسهولة للتحديدات الكلامية . وحفاظا منا على شرف انجاز (الخليل) كعمل تاريخي جبار في حقل الشعرلابد ان نؤكد خصائصه التقدمية بشكل يضمن استمرار حياته كفعل تقدمي خلاق . وهذا لايكون الا بمحاولة واحدة هي ان لانسمح للشعر ان يكون ميدانا لتطبيق بحور الخليل . وبالتالي لاتتحول هذه البحور الى معوق يقتل الموسيقى الشعرية ويتلف في نفس الوقت جدة المضامين والانتباهات الحدسية والتأثرات الحسية.

ان (فيليب سدني) في كتابه (دفاع عن الشعر) بقوله : (ليس النظم الموزون الا زخرفا لايبرر ان يجعل من الكتابة شعرا . والوزن والقافية لايجعلان من الرجل شاعرا .) كان قد أوضح حقيقة هامة عن الشعر الحقيقي . وكما أوضح ايضا الكاتب الفرنسي (فنلون) بان (النظم آفته القافية) . ولم يجيء مصداق ذلك في أوروبا بل تبلور كحقيقة وكتطور تاريخي في الشعر في قارتنا ايضا فانبثقت طرق عديدة في التعبير الشعري . وكانت كلها متفقة على دور الشعر الحقيقي : (انه يكشف الحجاب . انه يظهر الاشياء عارية في نور يهز الغافل . ويظهر تلك الاشياء المدهشة التي تحيط بنا وتسجلها حواسنا تسجيلا آليا .) كما قال (كوكتو) . أما الكلام عن لاهوتية (العروض) فقد تحدثت منذ القدم أرض العرب بلسان (أبي العتاهية) : (أنا أكبر من العروض !) ولكن ، حيث ان النقطة الخطيرة التي تتشبث بها الفرق الشعرية على اختلافها هي نقطة (الموسيقى) ، اذن .. لابد من تبيان شيء ضروري حول الموسيقى .

الموسيقى نفسها هي غير محددة وغير موضوعة ضمن قوالب ورسوم . الموسيقى ليست تقليدا لاصوات مجموعة واضحة وظاهرة بل هي بحث مستمر لايقف عند حد عن الاصوات الهائلة والسرية التى تحكم عالما بأكمله . هذه الاصوات نفسها ليست مانسمعه او نحس به فقط ، بل هي الاصوات التي ينسب لها أنها السحر . وينسب لها انها كلمة المطلق . وتظل هي قائمة كانعكاس وحيد يثبت الكون من خلاله وجوده .

والكلام عن الموسيقى بمصطلحات (النغم) و (الايقاعات الهارمونية) و (السونيتات) ليس الا شكلا للشيء الجوهري وهو (الروح الموسيقية) . اننا نتكلم عن الروح الموسيقية التي تعيش مع كل الاشياء ، والتي تعطي حتى للصمت نفسه نغما خاصا . هذه الروح الموسيقية لاتقع أبدا تحت حصر ، وفي الشعر لاتحتكرها البحور ولا استحداث البحور . بل انها تظل طليقة جائلة بحرية غير مدركة، فآنا تكون في قصيدة عمودية وآنا في مجزوءات وآنا اخر في قصيدة نثر . ومسالة ان تكون الروح الموسيقية هنا عقارا يحوزه طرف معين هي مسالة ليست أكثر من ان تكون مغالطة مؤقتة . والشعر نفسه ليس اقتصارا على القصائد ، بل انه كروح موسيقية يدخل في العالم من خلال النوافذ الجمالية العديدة . ولقد أوضح (جاك مارتيان) ذلك بقوله : (الشعر لايعني فنا معينا من فنون الكلام فحسب ، انما هو الروح التي تنساب انسيابا خفيفا في جميع الفنون) ، وبمعنى آخر يقصد (مارتيان) ان الشعر هو الحياة . وحيث ان الحياة تتجدد في البرهة الواحدة كحركة وتجاوز مستمر فلا بد ان تكون في الشعر خاصية الحركة المتجددة . فالشعر عدو السكون ، والتأمل نفسه عند الشاعر هو نظره ازاء عالم شديد الجيشان . وحتى عندما يكون التأمل موقفا ازاء صمت أبدي او استرجاع بطيء لذكريات ، فهو يخفي تحت سطحه حركة متجاوزة .و (الايقاع المتساوي) كموسيقى لايستطيع ان يمنح الحياة شكلها الشديد الحركة الشديد التجاوز عبر التمثل في القصيدة . انه ينجح ولحد ما في أن يقدم المضمون والانعاشات في حالتي ((الفرح والحزن)) ولكنه يعجز ولحد ما ايضا في ايجاد حركة موسيقية حرة متجاوبة مع نقاء المضمون وحركة الوجدان . ولهذا فقد كان جهد (عزرا باوند) مثلا في ايجاد الايقاعات المتعددة في القصيدة الواحدة : (النظم تابع لتدرج النغم الموسيقي لا لتتابع الايقاع المتساوي) يمثل وعيا حقيقيا لضرورة احاطة الشعر بحركة الحياة وحريتها . ان تعدد الايقاعات هذا عند (مس لويل) و (باوند) والذي احتاجه الشعراء بعد ذلك للتوصل الى

تفاهم اكثر مع انفسهم ، كان اكثر انسجاما من استعمال الايقاع الواحد المعاد .

وهذا التعدد كفل للرؤيا الكونية راحة اكثر في اطلاق أوسع مجال روحي للافكار . وهو في الوقت نفسه لايمثل تعددا استفزازيا يكون الايقاع فيه كالنشاز بالنسبة للاخر بل ان وحدة هارمونية توطد التآخي الايقاعي والانسجامات اللونية . والشعر كفعل فني ايقاعي يتفق مع التطورات الموسيقية في مهمة تذليل التناقض القائم بين (الحس) و (التكشفات الحدسية) من جهة ، وبين التعبير الشعري أو الموسيقي من جهة اخرى . والقدرة التعبيرية لايمكن ان تحتاج الى شيء سوى الى المزيد من الحرية . ان ابيات القصيدة الواحدة في الشعر العمودي هي اجزاء متساوية في بناء موسيقي . وان وحدة البيت تخلق خلال ذلك أسيجة محددة تحجز الحرية ، فيضطر الشاعر ان يمارس حريته بالقدر الممنوح له . وحيث نرى مبدئيا ان دين الشاعر الوحيد هو حريته فمعنى ذلك ان الاطار الايقاعي القديم لايمكن دائما ان يحل تناقضه القائم مع حرية الشاعر وحركته الوحيدة الا بعدم القداسات العروضية التي ساهم اعداء (الشعر - الانسان) انفسهم في تحجيرها كأوثان او اخلائها من روحها .

ان الشعر الحديث قد قدم اسهاما ثوريا في عملية الخلق الفني وفي تفجير الطاقات الخبيئة والاكثر وعيا لطبيعة حرية الانسان . وهو لم يقدم على تحطيم وحدة البيت فحسب ، بل ان وحدة التفعيلة نفسها بدت ليست المقاس الوحيد والشروط للتعبير عن توتراته ونزعاته وبوحه المستمر بنداءاته . لذلك فقد أضحى التطور الحاصل في القصيدة العربية ليس محاولة مجددة تعاكس القديم ، بل اختيارا من خلال الضرورة ، الضرورة في ان يتكافأ الحس والموسيقى واللغة والمعاني في وحدة واحدة . فبقدر ماتكون الحالة النفسية للشاعر متغيرة او غير مخططة ، ينبغي ان تكون الوحدات الايقاعية قادرة على امتصاص الشحنات الوجدانية للشاعر ، بحيث يكون هذا الامتصاص ايجابيا خصبا يعبر اولا وبكل جلاء وحرية ، ويعطي ثانيا اضاءة اكثر واسترمازا اكثر . فالاحاسيس المتحركة لايمكن ان تستوعبها أشكال موسيقية رتيبة كليا . وحركة الحس في الاسراع او الابطاء او التوقف ، وكذلك طبيعة الذاكرة وبحث الرؤى الحدسية وتكوين الانسان الفريزي والذهني يحتاج بالمقابل الى حرية كاملة للايقاع الموسيقي الشعري ، يطول او يقصر ، او يتجزأ او يلتم او يرفض نفسه ، حتى ينجح في ان يكون معادلا موضوعيا يتطابق مع شرط الشاعر الداخلي ومسيرته أفقيا او عموديا .

والروح الموسيقية تتحمل كل ذلك . وما دامت الكلمة نفسها تمتلك جوا موسيقيا تشيعه حروفها ، وما دامت الكلمة تنجح في اصطياد الحدوس الانسانية والانفعالية الداخلي ، اذن فهي قادرة - وحتى اذا انعدمت التفعيلة - ان تقدم شعرا .

ولا بد من استخلاص نقطة وهي : مادام التجديد في الشعر يحتكم الى التجديد في الموسيقى ، اذن فاعداء التجديد الشعري والمغامرة الشعرية هم انفسهم اعداء التجديد الموسيقي ، ولكن عندما قال (افلاطون) : (حذار ! فالتجديد في الموسيقى افساد لكل شيء ، وكما يقول « دامون » - واني اوافقه على ذلك - ان كل من يمس قواعد الموسيقى فانه يهز في الوقت نفسه القوانين الاساسية للدولة) (يجب اذن أن ننظر الى الموسيقى كما لو كانت حصنا من حصون الدولة .) فهل معنى ذلك ان تاريخ الموسيقى انصت مطيعا لقولة افلاطون ؟ طبعا .. لا ، والسيمفونيات المجيدة والابداعات الموسيقية الرائعة شاهد على ذلك . فالموسيقى ليست نظاما وليست مجموعة خطوط لاخيار لنا في سواها . وكذلك الشعر ! وبذلك يستطيع الانسان أن يقول كما قال (كيركفارد) : (انني أكون !)

بغداد **عزيز السيد جاسم**

الوأد الجديد

أترى موسيقى الكلمات انتحرتْ ..
في وجع الكاسْ ؟
أترى عاشقة الليل بكتْ ..
خوفا من همس الحراس ؟
أترى طلعة هذا المجد الباقي ..
ضاعت في وهم الناسْ ؟

* * *

- هل ضاع الواقع يا أختاه ؟
هل ضعت أنا ..
أم ضاع اللهْ ؟؟
الطفل القادم من درب الشمس ..
قتلنـــاهْ .
الحلم الليلي المنهارْ ..
حفظنـــاهْ
والله يصيح من التوراة :
« سلاما .. يا شعب اللهْ » .
والهي ..
ما ذنب الهي ..
هذا الطفل الورديْ ..
لمـــاذا وارنياه ؟
طفلي .. كلي .. يمضي
وينادي : « أماهْ » .
أأمزق نهديّ وابكي ؟؟
اني أبحث عن طفلي ..
دلونـــي ..
اعطوني طفلي ..
واطفلاهْ

* * *

- موسيقى الكلمات انتحرتْ
واللحن الرائق تاهْ
الاخت الثكلى تبكي
ويمين القاتل في يسراهْ
وأنا ما زلت أنا ..
تيارا يبحث عن مجراهْ

طارق عون الله

لعبة الخوف ...

قصة بقلم حسن محسب

التصق بجدار مليء بالثقوب ، محاط بالهدد . التصقت ذقنه بياقة قميصه المبتلة . تدحرجت انفاسه لاهثة . عوى كلب هزيل ناحل الشعر وانكمش خلفه . عادت الارض تهتز .. بم بم .. يووو ...

صاح صبي يحمل على راسه جريدة الخبز : « الصواريخ العميا.. » وانطلق بدراجته في اتجاه المخبأ . « بم » خرساء هذه المرة .. تصدع جدار عمارة في نهاية الطريق .. توالت الانفجارات ممتزجة بالانهيار والهدد .. قفز الكلب الهزيل ، وفي لمحة كان يختفي في المخبأ . احس بوحدته .. ازداد التصاق ظهره المبتل بالعرق الى بقايا الجدار .

ـ « الوقفة هنا خطر .. »

ـ « اردت ان اقول له انها فرصة العمر .. »

ـ « .. من مصر الصديقة ؟.. »

« قلت اقدم له بطاقتي الصحفية .. ترددت .. »

.. ـ تبادل الشابان الطويلان الشاحبان ، ابتسامة غامزة . حاول ان يبتسم لهما .. لكنهما اسرعا الى المخبأ .

.. انهار جدار قريب ، كشف الغبار ـ بعد لحظة ـ هري البيت القديم .. استطاع ان يميز وقع العصا الغليظة على الاسفلت المهشم . رفع ذقنه قليلا عن ياقة القميص . التقت عيناه بساق الرجل .. الوحيدة .. تقفز بالتبادل مع عصاه . توقفت الساق والعصا امامه .. اتجهتا اليه .. لفحتوجهه انفاس الرجل ، ورائحة الشيشة والبصل..

سادت نغمة الانهيار من حوله .

ـ « المخبا اكثر أمنا ياولدي .. »

ـ ...« تركز اهتمامي كله على بضاعة الرجل .. »

عاد يقول : « العمر لايضيع هدرا .. »

... « ماأشهى السميط والبيض في صندوقه الخشبي الصغير! »

يئس الرجل . ابتعدت عصاه وساقه الوحيدة ، في ايقاع مضطرب .

* * *

..في ثانية واحدة ، تناثرت العربة الكارو .. واشلاء صاحبها .. على الاسفلت . خارت قوى الحصان العجوز .. حمحم وسقط مذبوحا بجوار الاشلاء .

.. حدق طويلا في خيوط الدم . تابعها وهي تنساب متعرجة الى حفر الطريق . صدم احد الخيوط الداكنة الساخنة بقطعة صلب ... تلفت حوله .. اندفع رأسه .. صدره .. ذراعاه .. ثم ساقاه وقدماه ..اقترب من الحصان المذبوح . اتسعت عيناه . انتفض جسده المبتل بالعرق والدم . رفست قدماه الهزيلتان ، الهواء المثقل بالتراب ثم سكنت حركته .

* * *

.. كنت فرحا بنجاحي في امتحان القبول . كنت اصر على ان اسوق العربة وحدي هذه المرة . انشغل ابي في حفر السباخ في الزريبة . لم انصت طويلا لتحذيرات أمي .. قفزت مرحا خفيفا الى عريش العربة . التقطت اللجام والكرباج من القربوس فوق ظهر الادهم. على عرين العربة جلست مدليا ساقي في معلمية . لسعت الحصان بالكرباج الكنبريت وصاح صوتي في الادهم بنزق : « شي .. ى..ى». فاندفع رافعا أذنيه في ثقة كبيرة .

.. صرخت دجاجة جارتنا ام الباز ، ثم رفرفت بجناحيها وماتت في مجرى عجلة العربة . اشتبكت ام الباز وامي في عراك طويل .لامني أبي ، وهدد بقصف رقبتي عندما اعود من الحقل . حاولت تبرير ماحدث لكن أبي شوح براحته المغطاة بروث البهائم ، وبصق في راحته الاخرى، وعاد يعزق الزريبة بفأسه .

* * *

.. انحنى بجوار رأس الحصان العجوز . اغمض عينيه .. كان جفناه ساخنين .. اختفى بياض عينيه . بحث عن رأس صاحبه .. فكر ان يذهب الى المخبأ . كانت اكوام الهدد تزداد ارتفاعا ..

.. عادت اختي من الحقل صارخة . صراخها لم الشارع كله امام الزريبة . لطمت امي وجهها .. صبغه الطين بالسواد . خلع أبي قميص الشغل .. وجرى زاعقا : « ياخراب بيتي .. »

.. في ترعة ام شوشه ، كان الادهم غريقا ، والعربة بحمل السباخ تلصقه في الطين . سقط الرجال في الترعة ، خوضوا في الماء ، واحضر احدهم « شرشرة » وقطع الاحزمة وحملوا الادهم الى الشط .

.. التقطت شاظية صغيرة بجوار رأس الحصان المذبوح ..كانت ملوثة بدمه . أطبق عليها أصابعه. حاصرته الانفجارات . اتجهت قدماه الى الرصيف . ارتمى على كومة احجار خلف جدار . انغرست في ساقيه مخالب قطة .. أبعد قدمه عن ذيلها .. لملمته حول مؤخرتها ، وغطست خلف حجر كبير . لم يعد يسمع تنفسها .

.. ملأ التراب عينيه . لفه الظلام فجاة . انهار جدار قريب .. قفزت القطة . اصطدمت براسه .. تجاوزته واختفت في لمحة .

.. عندما عثروا عليّ بعد بحث طويل ، وجدوني في كومةحلفاء على شاطىء الترعة الاخر .. كانت رائحتي تثير القرف .. وكان سروالي مبتلا .. ضربني ابي حتى أدمى وجهي بسبب ذلك ، وحمل جثة الادهم

.. وضعها على العربة وجرها بمساعدة امي .. وفي الجرن سلـخ الفرابلي جلـده .

***

.. خلف حجر ، بال ، ثم استدار وجلس في مدخل بيـت متهدم .. فكر في شراء سجائر . اكتشفت انه جائع .. تذكـر بائـع السميط والبيض الاعرج . كانت الشاطئية في راحته . اصابعـه تطبق عليها . تناثر الغبار . اغمض عينيه .

.. فجاة . خيل اليه ان احدا يغني . فتح عينيه . رآه صبيـا صغيرا يحجل أمامه .. ويغني : « بم بم .. بم بم . » توقف الصبي وسال : « ماما .. ماما .. انت خايفة ؟!.. »

كانمـا الاشياء بداخلي تتلاحـق . جذبتني براءة الطفل . وقف امامي لايخفي دهشته . ابتسمت له .. ابتسم .. ضحك ، ونظـر الى امه .. اهتزت الارض تحتنا وتشقق الجدار . اتجهت سحابـة دخان راكنة نحونا . وجدتني احتضن الطفل وامسك امه بيدي . سرنا كالخرس .

.. في ثانية ، صرخت المراة وغطت عينيها بيدها .. وجحظـت عينا ابنها وازداد انكماشه في صدري .. وبال على نفسه . كان بائـع الخبز على دراجته يندفع امامنا .. تدحرج راسه فجاة على الاسفلت وطرطشت الدماء الساخنة . قبل أن ادرك ماحدث صدمت الدراجـة بشريط السكة الحديد .. سقطت وبائع الخبز فوقها بلا راس . لاحظت ان يديه لم تفلتا « الجادون » .

ـ « شيء فظيع !.. » وصمتت كمن يتلوى مكتوما . اردت ان اقول لها : « اننا في مصيدة .. » لكنني عجزت عن الكلام . اكتفيت بان هززت راسي . أضافت المراة كلمة او كلمتين .. لم اتبينهما . لف الطفل ذراعيه حول عنقي .. ونام .

.. انهار جدار كشف عن عنكبوت دورة المياه ، ثم غاب كل شيء في التـراب ..

ـ « المخبا ..؟!» .

ونظرت اليها . رفضت الفكرة براسها . واصلنا سيرنا . شريط السكة الحديد يمتد بجوارنا بطول « الكورنيش » .. بور توفيق علـى مرمى البصر . كانت رائحة الاحتراق تزكم أنفي . أظلتنا سحابة كثيفة السواد .

قالت : « الزيتية تحترق .. »

قلت : « وبور توفيق .. »

.. اهتزت الارض ، لم يعد انهيار البيوت يدهشني . عبـرنـا شريط السكة الحديد .

ـ « .. من مصر ؟!... »

.. تذكرت ماقاله الشابان الطويلان الشاحبان : « مصر العديقة»

.. حاولت ان اخفف من خوفي .. قلت :

ـ « ارسلتني المجلة لاكتب لها عن مدينة الحرب .. » .. اردت ان اضيف ان مجلتي لاتهتم بغير نجوم الفن .. لكنني ابتلعت ذلك .. وابتسمت .

.. رفعت ذراعي لاتجه يسارا .. تابعنا سيرنا . تجاوزنا جامـع سيدي الغريب . اقتربنا من القوارب المقلوبة على الشط . لفنا الصمت. رائحة الموت تملا انفي . انفجرت الدانات قويـة مخيفـة هذه المـرة . ارتعشت . التصقت المراة بي ضممت الطفل اكثر الى صدري .. توالت الفرقعة . سالتهـا عن المخبا بالحاح . قالت انهـا لا تعرف .

.. لم يكن هناك وقت للدهشة او للتساؤل . حاصرني الخوف.. وسحابات الدخان الاسود المشتعل تزيد من ذعري وانقباضي ..

.. جذبني الى القوارب المقلوبة . زحفنا تحت احدها . تكومـت على نفسي . بذلت جهدي حتى لايصحو الطفل . « منذ اعوام تركـت القاهرة الى قريتي . حبست نفسي في الدار نحو ثلاثـة اشهر بجوار امي .. ثم اعادني الجوع الى عملي .. » ..

.. قالت : « بيضربو من الجبسات .. » واشارت باصبعهـا فـي الاتجـاه الاخـر ... خلف رأسهـا تماما . ملا انفجار الدانات وصفير الصواريخ اذني .. ملاتهما تماما . « غطست مرة في ترعة «ام شوشه» انشغلت باطفاء عطشي .. كنا في شهر الصيام . تركت ابي يغتسـل من التراب والعرق ويتوضا .. قلت له ساستحم . ومـلات بطني بالماء. عندما وقفت وراء ابي لنصلي « العصر » تلقلق الماء في بطني الخاوية وفضحني . »

لكزتني بيدها .. قالت :

ـ « خايف ..؟ »

ـ « أبدا ..! » واغمضت عيني . سيطرت على الرغبة فـي الانكماش .. بذلت جهدا حتى ابتسمت لها . كنت ارتعش . انشغلت بالتعرف على المكان .. تجويف القارب عميق ، بـه شباك صيـد مهملة .. رائحة الاحتراق تمـلا انفي . ظلال القوارب المقلوبة تتداخل وتتقاطع فوق رمال الشط . طقطقة الخشب واضحة .. كـان ابـي يقطع فرعا من شجرة الصفصاف ، احمله الى الدار نستدفىء به فـي ليالي الشتاء ..

..كانت مياه الخليج راكدة ، فوقها طبقة ممزقة من الزيـت ومخلفات البواخر . رائحة البوار والهدد تملا الافق وتحجب الرؤيـا .

قلت : القوارب تحترق .

قالت : « ربنايستر ! ..» . كانت ترتعش .. جسدها ينفض .. كومت ساقيهـا ثم فردتهما . زحفت احـدى قدميهـا والتصقت بقدمي . . شعرت اكثر بخوفها . نظرت اليها . لم اكن قد رايـت وجهها بعد . في العشرين من عمرهـا . ممتلئـة الشفتيـن والصـدر والردفين مصفرة الوجه .. اذابت الدموع كحل عينيها .. صار هالة سوداء بجوار خديها . وكانت صديقتي تعتنـي بكحل عينيها .. ومرة زرتهـا في مسكنها ، لم تكن تتوقع ذلك . ارتبكت .اعتذرت لها، وشعرت بالاسف فعلا لانني رايتهـا بلا كحل في عينيها .

.. سرى الدفء قليلا في ساقي . امتدت يدها تربت على الطفل النائم بيننا . ضاقت المسافـة بين ظلال القوارب .. قفزت عينـي من فوق الرمال الى شعرها الذي فقد نظامـه وتناسقه . . كـان مهوشـا حول وجهها وفوق كتفهـا وصدرها . رفعت قدمي ووضعتها فوق قدميهـا .. وعيناي في عينيها . بعد ثانية .. اهتزت خيـوط الرؤية بيننا . وافزعتنا دانة مدفع مزقت اخشاب بعض القـوارب. اهتز قاربنـا المنكفىء فوقنا . زحف الدخان والغبار ورذاذ الماء الـى مخبانـا فاغمضت عيني في استسلام . كنت دائمـا اشعر بالخوف كلما زارتني صديقتي في مسكني .. او اتصلت بي في عملي .

***

.. تناثرت الرمال حولنا .. لسعتني . نظرت الى عينيها وتبادلنا ابتسامة مهزوزة . كان ابي يزهو بي كلمـا رأى بنتا تشيل معي خط القطن .. تقطف من خطها لوزة ، ومن خطي لوزة .. وهي تغني « ياخولي الجنينة ..» . لكنه عندما كبرت وصرت اتمـرد علـى العمل اجيرا في ارض التفتيش » كـان يهددني بتطليق امي . في مرة رآني اغـازل بنتا في غيط الذرة ـ وقت غداء الانفار ـ فضربني واقسـم بالطـلاق ليشربن من دمي حيـا اذا انا عدت الى ذلك .

.. ضممت الطفل الى صدري ومسحت على شعره . ارتعشـت ابتسامتهـا المخطوفـة .

« بيضربو من كبريت او الشط .. »

ـ « يعني بعيد ! .. »

« ابتسمت . كانت يدهـا فوق ذراعي التـي اطوق بها الطفل .. ساقي كانت بجوار ساقها . ابتسمت لها . راودتني رغبة في ان احكي لهـا قصـة قراتهـا عن حرب الهكوس .. لكنها فاجاتني :

ـ « على فكره .. انت خايف ..

قلت : « جدا ..»

.. ضحكت ، وقالت : « رأفت لم يعد يخاف .. لو كان صاص كان لعب لعبة الـ .. بم بم .

قلت : هو صغير على الخوف .

قالت : « في يونيه » دخل تحت السرير وبال على نفسه ..»

صمتت فجأة .. غامت عيناها . انشغلت برأفت .. ضممته الى صدري وقبلته .« كدت افقد ابني حسام في حديقة الحيوانات » .

***

.. تذكرت كل شيء .. لحظة اللقاء . اردت ان اسالها عن زوجها .. عن بيتها .. نظرت اليها ، خجلت .. ترددت اخيراً قلت لها: « البقاء هنا مخاطرة ..

قالت : « هاجرت من عامين .. كان يزورني كل شهر . قال لي آخر مرة ان بيتنا انضرب ..»

.. اهتزت الارض .. رجتنا بعنف . ازداد التصاق اقدامنا . « سقطت عريشة البهائم عندما انكسرت العروق المسوسة . انهارت السقيفة وفوقها احمال من الحطب والدريس وقش الذرة . انكشفت الخنافس ومرق ثعبان الى الزقاق . ولولت امي .. هرع الجيران وساعدوا ابي في انقاذ الجاموسة والحمارة من الموت .. يومها قالت امي ان العين اصابتنا .. وسخر منها ابي لاننا لا نملك فيهما غير ربع خلفهما ..»

قالت : كان متزوجا من امراتين غيري . رات الدهشة في عيني، فابتسمت وقالت : « كانت له زوجة في الزعفران .. وزوجة في المطرية .

– .. وانت في السويس . خطر لي ان اقول لها ان السويس وحدة الى حد غريب .

ضحكت .. وقالت : كان صيادا . زارني في مديرية التحرير من ستة شهور .. بعدها انقطعت اخباره . فلقت عليه ..»

.. توالت الانفجارات . اشتد اهتزاز الارض تحتنا . التصقت السيقان اكثر .. قبضت اصابعها على ذراعي . وعوى كلب ،واندفع تحت القارب .. صدم بي ،فاسرع الى القارب المجاور .. رقد يلهث، وعيناه تحدقان في عيني .

.. تلاصقت ظلال القوارب المقلوبة .. وامتزجت سحابات الدخان الكثيفة بظلام الغروب .. وتنهدت ايزيس . غمغمت بصوت خافت: « تمنيت ان يكون اهل او اقارب هنا .. « واضفت لنفسي : انني اكره العودة او الكتابة للمجلة .. فكرت في اشياء كثيرة احكيها لها ..لكنني اكتفيت بالنظر الى عينيها ... كانتا في لون العسل الاسود المخلوط بالطحينة . قالت : باع البيت انفاضا .. وتركني !.

.. انفرست اصابعها برفق في شعري . احتوت راسي براحتها . قالت : « اهلي .. واقاربي .. كلنا لاجئون ..» ربت على شعرها المتناثر فوق صدرها .. ابتلت اصابعي بالعرق بين نهديها . « في شهر العسل .. اخذت زوجتي الى نزهة في النيل .. بللنا اصابعنا بماء النهر وتبادلنا تعويذة السعادة والخصوبة ..»

***

.. غمغمت في ارتباك .. اتعرفين :« هناك فرق كبير بين الحرب هنا ، وبين الحرب التي ارسلوني للكتابة عنها ..» خفتت الانفجارات، لكن الدوي ظل يملأ اذني .. تحول الى طنين عنيف .. ازدادت رغبتي في تدخين سيجارة . تذكرت « عم عزوز » العجوز .. بقال قريتنا الذي يبيع للناس بالاجل ويتقاسم معهم المحاصيل كل موسم .. ضحكت وقلت لها : « اتعرفين . كنت اشرب زجاجة بيرة دائما كلما اضطررت للادلاء براي .. »

.. هزت رأسها .. وربتت بيدها على طفلها النائم في حضني ...

وابتسمت . قلت لها واحساس بالاسى يغمرني :« فشلت عدة سنوات في ان يكون لي زوجة وطفل .. كنت اخاف ان يموتا جوعا ..

.. بعد لحظة ، احسست بطعم الصمت الذي يلفنا ...انسحب الكلب بعينيه البراقتين الى الطريق . تابعته .. وقف غير بعيد يبول ..ثم انكب يشمشم في الركام والهدد بحثا عن شيء ياكله ..

قالت انها تشعر بالجوع ، ومسحت وجهي براحتها . منذ عامين زرت امي في القرية . كانت امام الفرن تسوي ارغفة الخبز ..انحنيت اقبل يدها المعروقة فاحتوتني في صدرها ، وتركت اثرا من الدقيق والعرق على قميصي ووجهي وشعري .

.. قالت وهي تنهض :« ساشتري سندويتشات من شارع المحطة .. وسجائر .. » ثم اختفت في الظلام . هزني ذلك من الاعماق .ذات ليلة خرجت زوجتي لشراء شيء للعشاء،ضايقها احد الشبان فتشاجرت معه . قلت في نفسي لا بد ان اعترف لها بانني زوج واب لثلاثة اطفال ..

.. طال غيابها .. شعرت بالبرد يلسعني .قبلت الطفل ثم وضعت راسه فوق كومة الشباك الممزقة التي وجدتها في جوف القارب المنكفىء، وغطيته بقميصي .وانا اهمس له بحكايات شبح الجوع الذي يقلبني كثيرا ويحاصر اولادي ...اخافني السكون المريب ..

فقلت للصبي النائم : اتعرف .ثم رويت له شيئا من شقاوة الاولاد ... ثم زحفت من تحت القارب .. جلست بجواره .. أسندت ظهري الى مؤخرته ووضعت يدي على دفته الخشبية المكسورة .... وفجأة تفتت الصمت ، واشتعل الظلام يلهب مدافع تقذف بشراهة من جبل « عتاقة » .

القاهرة — حسن محسب

اسرائيل باطل الاباطيل وقبض الريح !

ـ تتمة المنشور على الصفحة ـ ١٠ ـ

جاء من ((اور)) وكان تعريفهم لا يزيد عن تعريف جماعة بدوية متنقلة.

نترك مناقشة الحق التاريخي المدعى ، لانه من دواعي السخرية والتندر ان يأتي انسان ما الى انسان آخر في بيته ويطلب اليه اخلاء ذلك البيت محتجا انه وجد في كتاب ادبي ، هو الاخر بحاجة الى براهين كثيرة لاثبات صحة عقول الذين كتبوه ، ان مكان هذا البيت كان قبل الفي سنة لاحد الذين يتبع دينهم . واذا كان ما يرد من اسماء امكنة في الكتب يبيح لورثة ذلك الكتاب المطالبة باحتلال تلك الامكنة ، فانهم ليمكن لنا نحن ان نطالب بانقرة لانها وردت في شعرنا الجاهلي . واذا كان لكل انسان ان يحتل موطن فكرة يتشيع لها ، او موطن دين يعتنقه ، فهل كانت الصهيونية تستطيع ان نجد لها موطىء قدم في العالم كله !

اننا لا ننكر على اليهود ان يتذكروا ماضيهم . فتذكر الماضي من مميزات الانسان . ولكننا ننكر ان تصل حماقة هذا التذكر الى حد اغتصابنا بقعة من ارضنا يزيد وجودنا المستمر فيها ما عدا الوجود الكيفي عن ١٥٠٠ سنة . ونوجد في نفس الوقت في المناطق المحيطة بها بالجهات الاربع . ثم أن تتخذ هذه البقعة قاعدة للاستعمار تهدد بقاءنا كأمة تمتد ارضها في قارتين من الخليج الى المحيط . ثم ان تدق الصهيونية اجراس الخطر بهذا العنف الذي لايقف دون حد الابادة ، وكأن كل ما ذاقه اليهود من الاهانة خلال وجودهم كله على ايدي غير العرب يجتمع مرة واحدة لتقاصصنا به الصهيونية بلا هوادة . هذا هو ما ننكره ، ونحن نستغرب طيش الصهيونية تجاهنا.

نحن والاقليات العنصرية :

لم يثبت حتى الآن ، رغم براعة الصهيونية في الدعاية وجرأتها على الادعاء ، ان اليهود عرق انبتته البشرية ، متميزا عن غيره ، فيما انبتت من عروق . بل هم جماعة بدوية ثم دينية ، تقلبت فيما تقلبت به جماعات كثيرة من عبادة مظاهر الطبيعة والحيوانات حتى عبادة العجل . وبالحري انهم جماعة فكرية اتخذت المظهر الديني كأي دعوة فكرية في العصور القديمة . ومع هذا .. فحتى التساهل بافتراض هذا الوهم ، انهم اقلية عرقية ، لا يزال لها بعض بثورها في مناطق من الارض العربية ، فان اليهود ليسوا الاقلية الوحيدة التي لها وجود كيفي بين العرب . فالعرب قد آووا وتقبلوا حتى الاقليات العرقية في العصور القديمة والحديثة على السواء . ولكن هذه العرقيات وعت مصائرها واعترفت لمن آووها وشاركوها ارضهم ومرافقهم العامة بالفضل الى درجة انها ربطت مصيرها بمصير العرب الا اليهود ، فما بالهم ؟

دولة لتفادي الاضطهاد :

يقول اليهود انهم منبوذون من العالم ، وظلوا عرضة للاضطهاد الى ان جرى لهم ما جرى في المانيا النازية .. ولكي يتفادوا الاستمرار فيما رافقهم عبر العالم ، فقد اهتدوا بالصهيونية الى اقامة دولة ... الخ ...

ولكن ما ذنبنا ، نحن العرب ، في كل ما تعرضوا له عبر العصور وعبر العالم ؟ اذا كان اضطهادهم ونبذهم من العالم يرجع الى حب ذلك العالم للاضطهاد والنبذ ، او يرجع الى قلة ادب اليهود وسوء تصرفهم تجاه الذين يؤونهم ، فما هي مسؤولية العرب في حب غيرهم للنبذ والاضطهاد ؟ واذا كانت الثانية ، فهل نحن المسؤولون عن قلة ادب اليهود وسوء تصرفهم اكثر من اليهود أنفسهم ؟ اذا كان قد سبق لليهود ان أقاموا ، في ظلمات التاريخ ((مملكة)) في بقعة صغيرة من فلسطين فكم عاشت تلك المملكة ، وهل كان العرب هم الذين قوضوا اركانها ، وشردوا اليهود في شرق العالم وغربه ؟

انهم يقولون ، ونحن ايضا نقول ، بفخر او باشد الاسف ، اننا وهم ساميون ، ولغتهم شقيقة لغتنا . ولكن ما الاضطهاد الذي انزلناه بهم ، ونحن أقوى ما نكون وهم أضعف ما يكونون ؟ هل لقيناهم بقيراط من الكراهية التي لوفوا بها في اوروبا ، شرقية او غربية كانت ؟ فكيف ينصبون علينا باحقادهم الزمنة على غيرنا ، وبعقد نقصهم المقرحة التي الحقها بهم غيرنا لقلة ادبهم وسوء تصرفهم ، كيف تباد هنا الصهيونية باحتلال ارضنا وبالقتل الذي لا احتياط فيه ؟ عذبوا في اوروبا ففاتتهم الرجولة هناك ، ثم حملوا الوسائل التي عذبوا بها وجاءوا يستدركون رجولتهم على أرضنا وفي شعبنا ! ماذا سببنا لهم ؟

ان حظنا منهم كحظ اي بلاد في هذا العالم . لدينا اقلية منهم كما لدى العالم منهم أقليات . فماذا يلزمنا بان نفسح لهم مكان دولة في ارضنا ؟ لو كان في ارضنا متسع . لو كانت فلسطين بلا اصحاب لو انهم لم يبادهونا بالذبح والتشريد واحتلال الارض . لو انهم لا يهددوننا بالابادة صباح مساء . لو كانوا لا يستعينون بالاستعمار لفعل ذلك كله . هل كان بين العرب من يبخل على اليهود بان يعيشوا أقلية دينية بيننا كتلك الاقليات العرقية التي اندمجت بالعرب ، لها ما لهم وعليها ما عليهم ؟ اما ان يأتوا بهذه الحدة ويضربوا بهذه الشدة ، وبناء على فكر صهيوني ومخطط استعماري ، فهذا ما لا يسعنا قبوله ، ولا الاستسلام لمنطقه وواقعه وتعقله .

الصهيونية والانخداع بغرور القوة :

ليست الصهيونية أول قوة غازية تطيش طمعا بالارض العربية. فقديما طمعت فيها الحبشة محرضة من بيزنطة . والفرس البست طمعها حجة طرد الاحباش . ثم اجتاحها بنسب متفاوتة : المغول والصليبيون والاتراك والاستعمار الحديث . وكل موجة من هذه الامواج اندفعت فوق ارضنا باخرى من الحقد الصهيوني وبمثل وحشيته وعنفه . وكل موجة من تلك الامواج كانت اضعاف الصهاينة عددا وعدة . ومع هذا ، فأين هم المغول والصليبيون والاتراك والاستعمار الحديث ؟

نترك لاسرائيل ان تستعمل المنطق والواقع والتعقل بالاجابة عن هذا السؤال . ان التاريخ يقول اننا دفعنا اثمانا باهظة للتغلب على تلك الامواج الغازية الطائشة . هذا صحيح . ولكنه كم يشرفنا ويشهد لنا بالاصالة . فقد نضعف احيانا ، ونغلب حينا على بعض ارضنا اما الذين غزونا فاين هم ؟ فهل لدى الصهيونية غير وسائل تلك الامواج الوحشية ؟

اسرائيل والطريق المسدود :

اننا ، كما تقول اسرائيل ، نهدد اليهود ان سنرميهم في البحر. واذا كانت تعد هذا خطأ منا ، وهو مجرد تهديد لم ينفذ منه شيء فهل كانت الصهيونية على صواب ، وهي تنفذ رمي الفلسطينيين ، الذين لم تستوعبهم وسائل قتلها وذبحها ، الى العراء ؟ ثم اين طيش ذلك القول ، الذي ما تزال وسائل اعلامها تضج به في طول العالم وعرضه ، من طيش موشى ديان وزمرته بتهديدهم ان لن يكون مصيرنا ، في سورية ومصر والاردن ولبنان والعراق ، باقل رعبا من مصير الفلسطينيين ؟ هل تريد ان نقابل وحشيتها بالاستسلام ، وان نترك حقنا لباطلها ، وان نموت نحن لتحيا هي ؟ ومتى كان الانسان ، عربيا او غير عربي ، يحني رأسه للخطر الماحق المحدق به ؟ هل تظن ان ضربها لمدننا ولقرانا من حول فلسطين كفيل باستسلامنا ؟ اذا كانت ترانا قد هذا عندها الى هذا الحد ، فانه لا يزال لدينا الفرصة في ان نموت دفاعا وكفاحا وليس استسلاما . ان حق اختيار الموت ، ما دام لا

مناص منه ، لا يمكن أن يعيبنا به أحد .

لماذا تستنكر اسرائيل ان نعاملها حسب نص توراتها : السن بالسن والعين بالعين ؟ هل سن الصهيوني من ذهب وسن العربي من خشب، وعين العربي من بلور وعين الصهيوني من نور ! هل البقاء للصهيونية وحدها وغيرها مجرد نسمة هواء عابرة في الفضاء ؟ الصهيونية تطارد آيخمان فتخطفه من الارجنتين لتقتص منه في تل ابيب . هذا حق لها . اما ان نحاول نحن استرجاع ارضنا ومطاردة الصهيونية على هذه الارض ، وقد انزلت بنا اضعاف ما أنزله ايخمن بها . الصهيونية اختلت ارضنا . آيخمن لم يحتل لها ارضا ، ولم يهتك لها مقدسات ـ ان نقاومها وهي تفعل بنا ما لا يجهله احد ، فمن يلومنا في ذلك ؟

اذا كانت اسرائيل تتخذ القوة الوحشية لفرض وجودها الذي لم يتجاوز بعد اثنين وعشرين عاما ، أفلا يجدر بنا نحن ان ندافع عن وجودنا الذي يملأ تاريخ هذه المنطقة ؟ انها تخوفنا بالثمن الذي سيكلفنا اياه هذا الدفاع ولكن هل لنا ، وقد فرض علينا ذلك، الا ان نتذرع في مواجهتها بالصبر والتضحية اللذين تذرعنا بهما في كسر الامواج الغازية التي سبقت الصهيونية الى بلادنا . وهل كان للارض من رأسمال غير دم ابنائها لينفق في الدفاع عنها ؟ اذا لم ندفع هذا الثمن افلا نصبح ذات يوم بلا ارضنا ، وتمسي ارضنا ذات يوم بلا ابنائها . فعلى اي شيء تتكل الصهيونية باشادة هذه الدولة التي اغتصبت لها الارض ولا تفتأ تحشدها بالسكان والسلاح ؟

اذا نفت الصهيونية انها ليست « موضة » جديدة للاستعمار ، بل انها مجرد مستفيدة من الاستعمار ، واذا استمرت بالتوكيد المرة تلو المرة انها قادرة على مواجهة الدول العربية ، منفردة ومجتمعة وتقدمية ورجعية ، كما لا تنفك تقول، فالى اي مدى ستكون القوة مجدية ، والى اي يوم سيظل الضرب العنيف مخيفا وضامنا للبقاء ؟ هل سيفتح الضرب العنيف طريق البقاء ام سيؤدي بها الى عقبة لا تستطيع تجاوزها ولا البقاء عندها ؟

ان الارهاب بالضرب العنيف جربته القوى الغازية الوحشية، ولجأت اليه الدول الاستعمارية ، مضافا اليه عامل الزمن والاكتشافات العلمية والدراسات النفسية ، فكان ان صار بالقوى الوحشية الى الانكشاف السريع والانقراض، وبالدول الاستعمارية الى التقلص ثم الاكتفاء بما وجدت عليه نفسها من أرض الاجداد . فهل لدى الصهيونية اكثر من تلك التجارب للقوة والعنف ؟ أم أنها تتخذ القوة وسيلة الى التعايش السلمي ، كما تتخيل مع سكان هذه المنطقة ؟ اذا كانت التجارب الاولى باطلة ، فان المحاولة الثانية المغلوطة اشد بطلانا . ان الصهيونية قطعت على اليهود الطريق منذ ان بدأت تمشي فيه، لان تقتيلها للسكان وتذبيحها اياهم وتشريدهم واغتصاب ارضهم ، لا يمكن ان ينساه ولا يتجاوز عنه حيوان اعجم ،فكيف ان ينساه ويتجاوز عنه الانسان العربي الذي يجعل كرامته فوق وجوده !

صحيح ان اسرائيل باحاديثها الموجهة ونصائحها للنازحين الفلسطينيين تدعوهم ب « الاخوة » وتظهر من اللين في تلك الاحاديث ما لا تذكر معه مذابح قبية ودير ياسين وضرب المخيمات، ولكن هل هي باحاديثها هذه تحملهم على اليأس ونسيان بلادهم ، كما تقصد، ام انها تثير بتلك النصائح اكثر مما تهدىء وتذكر بالعداء اكثر مما تنسي ؟ انها تتكلم من مركز القوة معتبرة أن القوة هي كل شيء للغالب وكل شيء على المغلوب . وتنسى بأن القوة ، والقوة الاجنبية بخاصة ، ما كانت ابدا ولا قط ، وسيلة للسيطرة على شعب في ارضه . وهذا هو التاريخ امام الصهيونية فلتتصفح منه ما تشاء قبل ان تصل الى العقبة التي لا تستطيع تجاوزها ولا البقاء عندها .

الصهيونية غزو أوروبي :

ونظل مع الواقع ما دامت اسرائيل تفترضه وتدعونا للاخذ به . ولكننا الآن مع واقع اسرائيل بالذات . ولنقل ، ايضا ، انها مجرد مستفيدة من الاستعمار ، وليست جلدا من جلوده التي ما يفتأ يظهر بها ... ان اسرائيل لا تستطيع ان تنفي ان فكرة ايجاد دولة لليهود انما نبتت في خيال يهود اوروبا ، وليس في خيال يهود هذه المنطقة. والاشخاص الذين حضنوا هذه الفكرة ، وضمنوا لها حرارة الاستعمار حتى فقست ،هل كانوا يهودا شرقيين ام غربيين ؟

لقد سبق لهذه المنطقة ان عرفت الغزو الاوروبي في أوقات دوافع مختلفة . عرفته على ايدي الذين فقدوا مناصبهم واماراتهم في اوروبا ، فابى عليهم طموحهم ،او انهزامهم هناك ، الا ان يحملوا الصليب الذي انبتته هذه المنطقة سلاما ليهاجموها به حربا واحتلالا ومستغلين اقدس شيء لاخبث غاية . وشهدته على ايدي الاستعمار الحديث ، الذي لم نكد نتخلص من مظاهر غزوه ، حتى تجدد ، ولكن بمظهر الصهيونية ، وكأنه قد وجد فيها كل ما كان ينقصه من ذرائع التمركز . وتتشدد الصهيونية بنفي انها ليست حركة استعمارية مدبرة على اساس عنصري تجهد في فرضه . ولكن هل كان سعيها يعنى اقامة دولة لليهود في هذه المنطقة بقدر ما تعني ان تكون هذه الدولة جزءا من سوريقي اوروبا من آسيا وقاعدة عسكرية امامية تحمي اوروبا من البربرية « كما يحلو لهرتزل ـ احد مؤسسي الصهيونية ـ ان يقول .(1)

ان اسرائيل كانت ، ولا تزال ، « مستطيعة بغيرها » . وهل كان ذلك الغير الذي استطاعت به الاستعمار البريطاني ،وهل الغير الذي لا تزال مستطيعة به الآن الا الاستعمار الاميركي المتعنت ؟ وهذا ما يشحذ فينا العزم ، ما دامت قد وضعتنا في خط مواجهة مصير محتوم، الى ان نقاومها كما قاومنا الاستعمار . وثمنها هو نفس الثمن الذي لا تزال الشعوب المستعمرة جاهدة في دفعه . ان الصهيونية احرى منا باستعمال المنطق الصحيح لتتعظ بتصفية الاستعمار . ولو كانت مخلصة في المنطق الذي تهول علينا به لاستدلت هي به على زوالها ما دامت لا تزيد عن فرع من شركة الاستعمار .وهذا ما يجعل الصهيونية تخطىء ايضا مرتين في منطقها الناتج من مقدمات القوة والعنف في الضرب ، لانها كانت نفس مقدمات الاستعمار . واذا لم يكن علينا ان نواجهها كدولة اجنبية فلا بد لنا من مواجهتها كوجه آخر من وجوه الاستعمار التي أريق ماؤها في معظم مناطق العالم .والراي العام العالمي الذي خدعته زمنا ما سيستفيق على هذا الواقع ويكفر عن انخداعه .

تبصير بالمنطق والواقع والتعقل :

ان الصهيونية وان تشبهت بالاستعمار احتلالا لارض وبطشا وحشيا بسكانها ، فانها لا تشبه دول الاستعمار من ناحية أهم ، كان أجدر بالمنطق الصهيوني ان يضعها في الاعتبار الاول . الاستعمار الفرنسي لما صفي ،وجد الفرنسيون المتوزعون في المستعمرات بلادا يرجعون اليها . ولما غرب الاستعمار البريطاني عن الامبراطورية التي كانت تتحدى الشمس ان تغرب عنها ، بقي للانجليز جزيرة يقبعون فيها. والاستعمار الاميركي حين سيلحق بسابقيه ،سيجد الاميركيون فوهات آبار بترول ومناجم وآلات زراعية يجترون ندمهم من حولها . اما اليهود الذين تأبى الصهيونية الا ان تحشدهم في هذه المنطقة ولا تفتأ تشن بهم حملات التقتيل والتدمير والابادة ، فالى اين يلجأون اذا ما قاضاهم العرب هذا الحساب الفادح .. اذا ما قام الاخ يثأر لاخيه .. اذا ما راحت الام توقظ عظام ابنائها لتشق بها قلوب الذين قتلوهم .. اذا ما هب اصحاب الاعراض المهتوكة يردون اعتبارهم ، واصحاب الارض المسلوبة يسترجعون ارضهم !

هل نحن الذين نقول سنرميهم في البحر، ام ان الصهيونية هي التي لم تترك مكانا لليهود الا البحر ! لماذا تبالغ الصهيونية في احراجنا وتحشد اليهود في هذا المأزق ؟ لماذا تركب هذه المعادلة الشيطانية : العرب والفناء واليهود . ولا تترك لها حلا الا « مجهول » القتال ؟ لقد

(1) تيودور هرتزل ، الدولة الصهيونية ، لندن ١٨٩٦، ص ٢٩ .

تعدت القضية فلسطين كجزء من الوطن العربي ، وتجاوزت الفلسطينيين كجزء من الشعب العربي ،وصار كل عربي من الخليج الى المحيط ، امام معركة المصير التي فرضتها الصهيونية فرضا .. ومن لم يمت بالسيف مات بغيره . هنا ، فلتستعمل اسرائيل المنطق والواقع والتعقل. فنحن ما اردنا باليهود شرا ، ولكن الصهيونية هي التي ارادته بنا وباليهود على السواء .

اسرائيل والغرور :

يحلو لاسرائيل ان تنعت بعض الزعماء العرب بالغرور ، فتدرج في هذا المجال وتجمح . ونحن لا نريد ان نحرم فم اسرائيل حلاوة هذا النعت . ولكن اذا قسنا مصيرنا كأمة منتشرة بين الخليج والمحيط بمصير الصهاينة الوافدين كمجموعات غازية الى هذه المنطقة فاينا يكون المغرور ؟ تهدد .. ستحتل ما بين الفرات والنيل واطرافا من الجزيرة العربية .. ستضرب مئة مليون عربي . ولكن هل هذا التهديد منطق وواقع وتعقل، ام غرور وطيش وحماقة ! صحيح ان بريطانيا كانت تضرب سكان مستعمراتها . ولكن بمجندين من مستعمرات اخرى ، ولم يكن - ما عدا القواد - بالانجليز . فماذا كانت عواقب الاحتلال والضرب ؟ وصحيح ان اميركا تحارب في فيتنام بقوة مئتي مليون اميريكي ،وكذلك ماذا اغل هذا الضرب حتى الآن ؟ ترى ، بكم مليون ستحارب الصهيونية ، ومن هو المغرور .. بل من هو الاحمق ؟

احتلت فلسطين ؟ وقديما ((خربت اسرائيل ، ولم يعد لابنائها وجود . واضحت فلسطين ارملة لمصر)) .(٢) وحدها ،فكيف وقد اضطر العرب جميعا لان يكونوا في معركة المصير ؟!

مرة اخرى مع الوهم القومي :

واخيرا ، لا بد لنا من الوقوف مرة اخرى عند وهم الصهيونية الذي ((عكرت)) به الرأي العام العالمي واصطادت به فلسطين ولا تزال تتاهب لاصطياد اكثر من فلسطين ،وهو : القومية اليهودية .فالصهيونية كما توهم ،حررت ارضا اضاعتها قبل الفي سنة فقط ، وقد وجدت وصفها في التوراة ووعدا من ((يهوه)) بالعودة .. وعلى هذه الارض كانت عرفا الخ ... فالى اي مدى يصح هذا الادعاء ، ويخول الصهيونية حق احياء تلك الدولة ؟

ان المؤرخين ، على اختلاف تعريفهم للتاريخ ، لم يعتبروا التوراة ((كتاب تاريخ)) .بل ((هي وجهة نظر خاصة ((لاناس يلعنون انفسهم فيها بلا مراعاة لاي شرط آخر .ومن يلعن نفسه بهذا السخاء وبهذا الصدق ماذا يهمه ان يلعن كل شيء آخر ؟ انهم يصرخون فيها بالويل والثبور على انفسهم . ولو كانوا عرضوا على ((لجنة طبية)) في ذلك الوقت ، هل كانت تتردد بالحكم على عقولهم بالاختلال وعلى انفسهم بالانحراف ؟ وما داموا في مثل هذه الحالة ، فماذا يردعهم ان يصبوا الويل والثبور على العالم كله ؟ واذا كانت المطالبة بفلسطين وطنا ((قوميا)) لهم على هذا الاساس ،فهل يحق لشخص احب فتاة ونظم فيها قصيدة أو كتب فيها قصة ، ان يطالب باولادها وباحفادها لان اسم امهم وجدتهم ورد في شعره او نثره ؟

فمتى كان اليهود في فلسطين ، ومن هم الفلسطينيون ؟ يقول فاليري اتكنسون : ((ان الاسم الحقيقي لفلسطين جاء من الفلسطينيين الذين لم يستولوا على ارضهم (غزة) مطلقا ،حتى ولا من قبل الملك داوود . وكان السكان الاصليون خليطا من الساميين قبل ان يأتي اليهود من اور ، وحتى اورشليم كانت مزدهرة قبل ان يستولي عليها الملك داوود بثماني مئة سنة (٣) .

فاليهود ، اذا ،لا يمتون الى فلسطين بصلة النشوء اطلاقا . وانما تفرض اي مجموعة بدوية وافدة سيطرة مؤقتة ، كذلك فرض اليهود مثل هذه السيطرة الموقتة الى ان انقسمت ((يهوذا)) الجنوبية عن ((افرايم)) الشمالية ، وكان بينهما من العداء ما ادى الى انهيار الاثنتين في مدة قصيرة .(٤) وهذا يعني ان اقامة اليهود ((مملكة)) في جزء من فلسطين كان اغتصابا وقهرا ، كما هو حال الصهيونية الآن .واذا كان الاحتلال يعطي المحتل حق انتسابه الى الارض التي احتلها فترة قصيرة من الزمن ، فالانجليز ، اذا ، صاروا هنودا وعربا ، والاتراك صاروا عشرات القوميات ، والفرنسيون صاروا صينيين وافريقيين وعربا الخ...اذ ان كل دولة من هؤلاء قد لبثت في البلدان التي احتلتها اضعاف اضعاف ما عاشته مملكة يهوذا وافرايم في جزء من فلسطين. واذا كان للناس الحاليين حق امتلاك ما مر به اسلافهم ، فيحق لنا نحن ، اذا ، امتلاك سمرقند التي أسسها في سالف الاوان احد اتباعه اليمن اذا جعلنا صحة اخبار التوراة بمستوى صحة اخبار تبع !

وادعى للتندر من ادعاء الصهيونية فلسطين ادعاؤهم قومية يهودية. اذ ان سلامة اي عرق من البشرية لم تسعها ذمة أشد القائلين بالقومية تعصبا حتى وان بقي هذا الشعب في الارض التي انبتته آلاف السنين . فكيف تضمن سلامة ((عرق)) في حالة عصب العينين والافتراض ان اليهود عرق ، وفد على فلسطين وفودا، واضطرب بينها وبين مصر ، وغضب عليه الرومان اكثر من مرة ،ثم حمل الى بابل مغضوبا عليه ايضا ، وتفرق في العالم مشهورا بالغضب . واي ساب في تلك العصور كان يعف عن مسبباته واي غاضب كان لا يطفىء غضبه في نساء المغضوب عليهم ! فمن يستطيع ان يأخذ على ((ذمته)) ان يهود اوروبا الشرقية والغربية ،ويهود اي مكان في العالم ،هم من اولئك الذين مروا في فلسطين ،وحتى كدين ، كان اليهود يغيرون كما يقول رودنسون ،دينهم حتى قيام الثورة الفرنسية .(٥)

فليت اسرائيل تستعمل المنطق الصحيح وليس منطقها الخاص . واذا كان اعجابها بدعايتها و((واقعها)) القصير قد انساها ((التعقل)) الذي تفرضه علينا ، واذا كانت قد اغترت بانخداع العالم بها ،وبضمان بقائها من قبل شركة ضمان الاستعمار الاميركية ، فان العالم سيجد متسعا يلوم فيه نفسه على انخداعه ب ((باطل الاباطيل)) والذين يتكلفون ببقائها قد يجدون تحت اقدامهم ارض بلادهم يعيشون عليها، كيفما كان ، بعد ان يروا الصهيونية ((قبض الريح)) .اما الصهيونية وقد اخذت تحشد اليهود في فلسطين وتشن بهم غارات التدمير والابادة على العرب ، فهل تركوا لانفسهم متسعا يعيدون فيه ما صرخ به يهودي قديم : ((ويل لي يا امي لانك ولدتني انسان خصام وانسان نزاع لكل الارض ، لم اقرض ولا اقرضوني، وكل واحد يلعنني .. ملعون اليوم الذي ولدت فيه . ((آمين ! مرة اخرى ، فلتستعمل اسرائيل هذا المنطق وهذا الواقع ، ولتأخذ بهذا التعقل مرة واحدة .

يوسف احمد المحمود

---

(٢) قصة الحضارة ،ج ٢م١ ،ول ديورانت ، ص ٣٢٤ .

(٣) المجلة الجغرافية ، رسالة الى رئيس التحرير ردا على((العودة الى ارض الميعاد)) المنشور فيعدد كانون الثاني ١٩٦٩ ، آذار ١٩٦٩ ، لندن . (٤) قصة الحضارة ،ول ديورانت،ج٢م١، ص ٣٤٨ .(٥) اسرائيل والعرب ، مكسيم رودنسون ، بنجوين بووكس ، ص ١٠ .

ثم تعود الموجة

مجموعة قصص بقلم ديزي الامير

دار الاداب ـ بيروت ـ ١٩٦٩ ـ ١٥٠ صفحة

***

ببراءة الاطفال وبساطتهم ، باخلاص الاصدقاء الطيبين وصراحتهم، تنشر ديزي الامير حبات قلبها الكبير على صفحات مجموعتها القصصية الثانية (ثم تعود الموجة) . تتحدث اليك وكأنها تفتح مكنون صدرها لصديق حميم تلتقي واياه على ربوة صغيرة نائية ، في ذرى جبال لبنان تظلها شجرة ارز مترامية الاغصان تؤرجها انسام كانون ، وتأسر اعينهـا شمس يغرق قرصها الملتهب في أمواج البحر الوادع المنبسط امامها في روعة وجلال . تتحدث اليك وهي شاردة اللب ، مأخوذة الحواس ،حزينة النظرات ، موزعة العواطف بين ماض مثقل بالذكريات ، وحاضر يزخر بالآهات ، ومستقبل مجهول المتاهات . وعندما تهوي الشمس في اعماق البحر ، وتزحف غيوم داكنة لتحجب ماتبقى من جراح الشمس في افق السماء الرحب ، تضطرب ديزي في حديثها ، وكأنها تخشى هبـوط الظلام او تخاف مايخبئه لها الليل من أحلام .

تتحدث ديزي فتنساب عباراتها كموجة عطر ، وتتبرعم كلماتهـا كباقة زهر ، غير ان كل حكاية من مجموعتها تترك في القلب لوعة ، وتخلف في الحلق غصة ، وكأنك تقرأ احدى قصائد (عاشقة الليل ١)، فتشعر بفداحة ماتعانية المرأة في عالمنا العربي : فهي مازالت تخبىء في حنايا صدرها فؤادا جريحا ، وتدفن في مآقي عينيها طموحـا لم يبلغ بعد مداه ، وليست غلالة الحزن التي تتشح بها قصص الكاتبة من اختيارها ، بل هي نتيجة نفسية حتمية لطبيعة حياتها الخاصة وللواقع الذي تعيشه بنات جنسها . فقد تاثرت ـ وهي الاديبة المرهفة الحس ـ لفقد امها ، واضطرتها ظروف الدراسة والعمل الدبلوماسي الى ان تنأى عن (البلد البعيد الذي تحب) ٢ ، حتى كاد يذبحها الحنين اليه ، فاخذت تبكي بصمت ، وراحت تشكـو بكبرياء . فتسرب شيء من هذا الحنين وتلك الشكوى الى نتاجها الادبي .

ومع ان غالبية قصص ديزي الامير تنسجم مع الخط العام الذي تنتهجه القصة العراقية من حيث كونها أدبا ملتزما هادفا تعنى بالاغراض الاجتماعية والسياسية وتكرس نفسها للقيام بالمهمة التي حدد معالمهـا ورسخ قواعدها روادها الاوائل وفي مقدمتهم محمود احمد السيـد في تمهيده لمجموعته القصصية (في ساع من الزمن) ٣ فان قصص اديبتنا تختلف في نقطتين رئيسيتين هما :

اولا : بينما يهتم معظم القصص العراقي بتصوير حياة الطبقـة الفقيرة تصويرا يهز المشاعر ، ويثير العطف والرثاء ، ويشحذ الهمم للاصلاح ، وبينما يزخر هذا القصص بالشخصيات البائسة كالفلاح الذي يرزح تحت اغلال من الفقر والجهل والمرض ، وكالعامل العاطـل عن العمل واطفاله يتضورون جوعا ، وامراته على وشك ان تـرزق ب (مولود اخر) ٤ ، نجد ان معظم قصص ديزي الامير تتحدث عن فتاة من الطبقة الوسطى المترفة هي الكاتبة نفسها . فلا تكاد تخلو قصة من القصص الخمس عشرة التي تضمها المجموعة موضوع البحث من القصر والخادمة والهاتف والمخازن الكبيرة والفنادق الغالية والمطاعم الفاخرة والسيارة والسائق الخاص وغيرها من مظاهر الترف والنعمة، وحتى عندما تحدثنا عن ذلك الرجل « العاطل عن العمل منذ حوالـي سنة » في قصة (سنة سعيدة) نجد بانه يمتلك هاتفا فـي بيته ، ويذهب « الى سهرة السنة الجديدة يلهو ويعبث ويمرح » !!ان اشخاص ديزي ليسوا من (هؤلاء الناس) ٥ ، الذين تغص بهم الاحياء الشعبية الفقيرة ، ولا من اولئك القرويين الذين هجروا قراهم ليبطش بهـم (غضب المدينة) ٦ وتنزل عليهم لعنتها .

ثانيا : في معالجتها للقضايا السياسية والمسائل الوطنية تتميز عن اكثرية القصاصين العراقيين بالاسلوب المباشر الصريح وكأنها تكتب مقالا افتتاحيا في صحيفة يومية سياسة ، ولا يبرزها في ذلك الا القاص الدكتور شاكر خصباك ٧ . فأولى القصص في (ثم تعود الموجة) هـي (كبش الفداء)التي هي محاولة لتفسير العدوان الصهيوني على الامة العربية في حزيران ١٩٦٧ م ، وتحديد مراميه . ونجاح القصـة وتأثيرها العميق في القارىء العربي لايدع مجالا للشك في ان ديزي قد كتبتها في احدى ليالي حزيران وقد غرقت المدينة الغاضبة في التعتيم وهزتها صفارات الانذار تبعث الحقد والحماس في القلوب .. وكذلك نجد النقد الاجتماعي والسياسي الصريح الجريء في القصة الاخيرة الموسومة ب (سنة طويلة كاملة) .

تقرأ ماكتبته ديزي فتحس بان اليراع قد تحول بين اناملها الرقيقة الى ازميل فنان ، وانها انما تنحت بناء قصصها نحتا بديعا ، وتصقل عباراتها صقلا دقيقا كما لو كانت تضع اللمسات الاخيرة على أحـد تماثيلها المدهشة ٨ ، وتشعر بانها تختار كلماتها كما تختار مادة تماثيلها من الطين الطري الطواع الذي يتصلب ويتحجر بعد حين ، في محاولة منها لتحقيق « السهل الممتنع » حلم الكثير من الادباء. وقصة (عزيزة) تثير الاعجاب لما تتميز به من تكوين مبتكر وبناء قصصي فريد ، فالاديبة تسرد لنا ـ من خلال استراقها السمع في فترات متقطعة لفتاة تتحدث بالهاتف في مخزن كبير ـ مأساة تلك الفتاة التي هجرها حبيبها مخلفا دمعة في عينيها ، وحسرة في قلبها ، وذلا في كيانها ..

وفي (قصة اندلسية) تتجلى اصالة الكاتبة وقدرتها على الخلق الادبي . فقد نجحت بشكل يدعـو الى الفخر في مزج العزة القوميـة بالعاطفة الرومانسية كما تمتزج زقزقة العصافير الفرحة بخريـر الجداول الجذلة ، وكأنها تعزف لحنا عربيا على الات موسيقية غربيـة تردد صدى انغامه خمائل وارفة الظلال ، واشجار مورقة الاغصان ، وتطرب له طبيعة مونقة ، وربيع مشرق . لقد قام معهد الدراسـات العربية في مدريد بترجمة هذه القصة ـ مع عدد اخر مـن قصص ديزي ـ الى الاسبانية ، وحسنا فعل . وليست الاسبانية هي اللغـة العالمية ـ الوحيدة التي ترجمت لها قصص ديزي فقد ترجم المستشرق الفرنسي ميشيل باربو بعض قصصها الى الفرنسية ، كما اقـوم انا بالاشتراك مع المستشرق الاميركي وليم فريزير بترجمة بعض قصصها الى الانجليزية ستنشر ضمن مجموعة من القصص العراقي في الولايات المتحدة الامريكية .

وتمتاز ديزي الامير بقابلية ملحوظة في نقل انتباه القارىء مـن حدث لآخر ، وتوجيه تعاطفه من شخص لثان في القصة الواحدة بـل

* ١ ـ (عاشقة الليل) ديوان شعر لنازك الملائكة نشر لاول مـرة عـام ١٩٤٨ م .

٢ ـ (البلد البعيد الذي تحب) المجموعة القصصية الاولـى لديزي الامير .

٣ ـ للوقوف على مميزات القصة العراقية يراجع كتاب (محمود احمد السيد) للدكتور علي جواد الطاهر (دار الاداب ـ بيروت،١٩٦٩ .)

٤ ـ (مولود اخر) مجموعة قصصية للكاتب غائب طعمه فرمـان المعني بحياة الطبقة الفقيرة وتسجيل آلامها ..

٥ ـ (هؤلاء الناس) مجموعة قصصية لجعفر الخليلي ، احد رواد القصة العراقية وممن سجلوا الكثير من الحكايات الشعبية .

٦ ـ (غضب المدينة) مجموعة قصصية لمهدي عيسى الصقر .

٧ ـ من قصصه السياسي (حكايات من بلدتنا) مجموعة قصصية و (الحقد الاسود) قصة طويلة ..

٨ ـ ديزي الامير تحمل دبلوما في فن النحت والرسم ولها تماثيل ناجحـة .

في الصفحة الواحدة دون ان تخسر القصة وحدة البناء او عنصر التشويق والامتاع ، مثلها في ذلك مثل مدير الانارة المسرحية الذي يوجه الضوء ذا اللون المناسب على الشخص المناسب في المكان المناسب محققا بذلك نجاح العمل الدرامي وزيادة اندماج المشاهد فيه .

وخير مثل على ذلك قصة (الغابة) حيث يحاول كلب صغير هزيل مداعبة طفلة صغيرة فيرعبها وتأخذ بالصراخ والاستغاثة ، فيهرع والداها لنجدتها وهما يتذمران من وجود الكلب في حديقة المطعم ، فيتقدم النادل لاخراج الكلب دفعا بقدمه ولكنه يتلقى بسبب ذلك صفعة من فتاة اجنبية مسترجلة يحمر لها وجهه وتجحظ عيناه ولكنه يواصل سيره المتعثر تحت اكوام الصواني واصناف المأكولات . فعطفنا توزع في هذه القصة بين الكلب الصغير ، والطفلة البريئة ، والنادل المسكين .

* * *

عندما صدرت مجموعة ديزي الامير الاولى (البلد البعيد الذي تحب) لمسنا بعض الجودة فيما قرأنا ، وتوسمنا كل الخير فيما ستكتب ، ودعونا لها بالمواظبة على الانتاج الادبي . وعندما خرجت مجموعتها الثانية تأكدنا من قدرتها وايقنا بانها قاصة ولدت لتعيش بل لتوضع - اذا ماواصلت الكتابة الخلاقة وازدادت تفاؤلا - في مصاف الاديبات الاريبات اللواتي لايتجاوز عددهن اصابع اليدين في شرقنا العربي .

جامعة الرياض علي القاسمي



نخلـــة اللــــه

ديوان لحسب الشيخ جعفر

* * *

بداءة كان حسب الشيخ جعفر في ذهني سؤالا ظل غامضا ومحيرا ومثيرا فترة تطاولت بزمنها او هكذا خيل لي . فقد بزغ في عالم قراءاتي المتشابكة كنجم مضيء . وما شاني معه الا كشأن واجد (لقية) في طريق مترب . أو كشأن حافر انبجس بين يديه الماء في أرض جلمد . فكانت (نخلة الله) (1) بظلها الممتد تنغرس في أكباد الصخر والذرى والنهر شامخة متطاولة بكبريائها وعرافتها وآصالتها . كان عالما متشابكا بالكروم والازهار والانوار والشموس والنجوم والجذوع ، عالما هو عالمنا وليس عالمنا لكنه على أية حال عالم الشاعر حسب الشيخ جعفر .

ان هذا الشاعر حصيلة جيدة ومتطورة في شعرنا العراقي الحديث لكنه مشكلة المشاكل بالنسبة لدارس يريد ان يلم بموضوعه ؟ فهو يقول (لا) و (نعم) لذات الشيء وفي ذات الزمن . انه القانع اللاقانع ، الضاحك المتجهم ، المنطلق الكئيب . انه كذلك الطائر الذي (حط على الغصن وانحدر أقل من لمحة البصر) . وبلمحة بصر يرضى ولا يرضى . انه صورة لواقع التناقض الحياتي بشكل لم يسبق له مثيل في الشعر العربي وان وجد الكثيرون على شاكلته من الشعراء الفرنسيين في العصور الرومانسية . ازاء حسب تكون كأنك ازاء قصيدة مطلعها سؤال ونهايتها سؤال وبين السؤالين بحار من الهم والمرح والآمال والنجوم الغارقة في سماوات لا حد لافاقها . انك امام ظاهرة متجسدة في آهاب مشاكس أصيل . مع هذا الشاعر ستكون رحلتنا في ظلال (نخلة الله) ولعلنا نرسو على الشواطىء التي خاطبها يوما :

أعيدي ، ياشواطىء ، طعم تمر بات يشرب طل اسحار .
أعيدي كل ما أطلقت من سفن
وينهب ماتبقى في عيون الشط من وسن .

(1) قصيدته التي اسمى الديوان بأسمها .

أعيدي كل ما أطلقت من سفن
محملة بما وسع الخيال الفض من شمس ومن قمر
ولم يرجعن من سفر .

تبدأ القصيدة عند حسب من لفظة .. من آنة ما .. من نقطة زيت تشتعل في أطراف حقول الذكريات ومخادع الصور والاخيلة والملاحظات التلقائية فتشتعل الذكرى وتشب النار في حقل اثر حقل من الصورة (أ) الى الصورة (ي) في الطرف الآخر من جدار الواقع . ان الشاعر يلقي بنفسه في أثره الفني بأدراك فذ يصل الى درجة فكرية واضحة المعالم . فحين تشدك الصورة الاولى في القصيدة الى جوها المتفرد يجرك حسب بروعة لا اثر فيها للافتعال او التقريرية الى صورة جديدة لا تماثل سابقتها من حيث الابعاد التي تشرئب اليها ولا حتى من حيث وضعية الالفاظ وتزاوجها وتلاحمها في آهاب صورة متفردة تربطها خيوط شمس بالتي قبلها وبعدها . وتنتهي القصيدة ذات الصور المستقلة ذات الذاتية المستقرة في آهاب الفاظها بعناق الاوائل بالاواخر . والفكر طير يمر على حشد شموس ملونة بأضوائها الثرة غائصا في ريش العواطف الزاهي . ان حسب يقدم الفكرة المرة للقارىء بكأس من العسل . وحينما تتحول الفكرة الى عاطفة وتتجسد العاطفة في لفظة يبدأ حسب بكتابة القصيدة . انه يهدم الالفاظ الجدارية التي شابت طويلا في بطون الملاحم وقصائد التراث .. الالفاظ التي شابت فعقدت القرفصاء ازاء مواقد ليس فيها سوى رماد الاجواء المكرورة . حسب يمسك بتلابيب اللفظة العجوز ويجبرها بقدرة شاعر على تناول كأس الشباب (لاحظ قصيدة الظل) . ان الفاظها هي ذات الالفاظ المعروفة المكرورة . ولكنها عند حسب تقترن ببعضها لتبعث صورة لم نحلم بها من قبل . ان هذا الحشد المهاجر من الالفاظ الاعتيادية التي يبادر من الصور الجديدة التي تستحم أجنحتها في بخيرات الابداع المترامية في ذهن الشاعر وأحاسيسه . ان اهتمام حسب الفني يتوزع في القصيدة على صعيدين : احدهما يتعلق بالصورة وتناميها حتى تبدو الصورة التي تليها وكأنها مخاض الاولى . وثانيهما يرتبط بالفكرة الاساسية للقصيدة محاولا ان يكبح جماح الحصان النافر النازع الى الهجرة مع ريح الصور المتراكمة على آفاق الحدث الذي حرك أوتار الزمن في ذهنه . أما مرتكز الصورة لدى حسب فهو الكلمة وليس الفكرة . ان الفكرة من معطيات الكلمة تماما كما تكون الحرارة من معطيات الشمس . والدفء من توهج النار . ان الكلمة التي تهاجر بأجنحة الابداع من أوطانها القديمة .. من اعشاشها البالية .. من رصفها الممل تهاجر لتولد في أراض جديدة واعشاش جديدة ووجوها وأجنحة جديدة . القمر .. ليلة مقمرة .. أقمر الظلام .. هلت ليالي القمر . ان قمر هذه مقيدة في سجون التكرار في المعاني ، في ترابطها مع كلمات اخرى كصفة محدودة مرتبطة بكلمة الليل . ان قمر واقمروليالي القمر تعود شابة ذات أجنحة : أقمرت البحيرة وأقمر القلب ، وأقمرت الريح (لاحظ المقطع الثامن من قصيدة الراقصة والدرويش المنشودة في مجلة الآداب في عددها السادس ١٩٦٦) . ان الالفاظ العربية بما تملك من ثراء وخصب تتحول في أحيان كثيرة الى مجرد الفاظ جامدة يموت فيها الجس . والقدرة التي يمتلكها الشاعر المجيد كفيلة بان تفجر كوامن الحياة في تلك القواقع . ولا أشك في ان لدى شاعرنا حسب هذه القدرة التي تبرزها مجموعة شعره (نخلة الله) .

نستطيع وبقليل من الملاحظة ان نوزع شعر حسب على ثلاث فترات زمنية او قل ثلاث مراحل : الاولى : مرحلة الطفولة والقرية التي ولد فيها وقد ابتعثها من غفوة الصميم ضجيج الحضارة في البلد الذي درس فيه . وهذا القسم يتمثل في قصائد :نخلة الله واللقالق العائدة والنهر والظل واختتمت بالعودة من جزيرة الملح . وفي هذه القصائد تبرز صورة الريف العراقي دامعة العيون وكأنها تدعوه الى طفولة الاشياء وبساطة الحياة . ان استعارات الحنين والشوق وانطواء بساطة الاشياء على كنوز المرح وتوهج الحياة .. الصور المتشعبة المتشابكة .

الخبز المغمس بالحليب والكرب والحندقوق واللقائق وبيوت البردي والسعف واليقطين هي الغالبة على أجواء هذه القصائد . وشعر هذه المرحلة ليس له أبعاد ولا تأويل غير الحنين الى الماضي ازاء غربــة الحاضر . والمرحلة الثانية : مرحلة التهيؤ للعودة الى الوطن . ولعل قصيدة (العودة من جزيرة الملح) فيها تلميح للتهيؤ ، وفيها تشعــر بأسف ممض على ماض جديد تكون في عواصف الغربة (آه على أيامنا الخضراء مرت في البحار) . وقد كان لهذه المرحلة اثر سنوضحــه بايجــاز .

والمرحلة الثالثة هي : مرحلة العودة وفيها تمثل قصائده جانبين: جانب الالتهاب في القضية الفلسطينية والتهاب في قضية الصراع ، الذي لف (العودة من جزيرة الملح) صراع مجهول المباغت يلــف القصيدة ويتسرب خلالها الحنين الى الوطن .. الى الاحبة .. النوارس التي تنعي البحار الفريق . ان هذا البحار الفريق في بحار الحنين ماعاد يحلم بما كان يحلم . وصور الريف تبدو منهكة في هذه القصيدة تشك في أصالتها .. هادئة الخطوات خافتة الرنين . انه الحنين اليتيم لذلك الجوالة البحار . ذلك الدرويش المتربع على حصير البساطــة والقناعة الغارق في عروش الدلال لم يعد يبكي براءة لياليه الخالية بقدر ما يبكي الحياة ككل بعد ان اصطدم بأرضية غربة لا حدود لها .

الغربة في شعره :

الغربة هذا الامر الجياش من الزمن والذي تثور فيه دقائــق الوجدان والاحاسيس وتفيض فيه ينابيع الذات . هذا الامد عاشــه شاعرنا حسب حينما شد قلوعه للدراسة في بلاد الاتحاد السوفيتي . فكان ان عاش مرحلة شوق ولهف أرفدت شعره بينبوع خالد من ينابيع الحياة ذلك هو الحنين . لقد بدا حسب في هذه الفترة شاعرا يملك الفكرة والشكل بمستوى فيه من التفرد والقابلية الخلاقة بوادر يلمسها القارىء لشعره بسهولة . ولقد كان الحنين يطغى على شعره بحيث يجور المضمون على الشكل فيجنح الى نثرية محببة كانت ظاهرة عامــة في الشعر العربي فــي فترة الخمسينات وبدايــة الستينات . انهــا نثرية البياتي وبلند وسعــدي وصلاح عبدالصبور لكــن نثريــة حسب محملة بأمطار الحنين الى الوطن . متدفقة بشكل يضفي عليهــا روحا لاتضارعها روح السياب الصارخة في (غريب على الخليج) .

والسياب يهتم باللفظة من خلال تمسكه بمضمون قصيدته . كما ان ثمة تخطيطا مسبقا لـ (غريب على الخليج) يحسه القارىء مــن العناية الفائقة بالكلمات والصور ونسج القصص القصيرة والولوج في متاهات الاسطورة . اما قصائد حسب فان مفتاحها البيت الاول الذي هو عنده تطويحة لروح ثائرة في فراغ لامتناه من الوحشة الصلدة يدلفه الشاعر فيشق جدرانه وينفذ بالسهولة التي ينفذ بها ماء الموج الطاغي على الضفاف الى الابعاد اليابسة (انظر قصيدة فؤاد ماتسليه ابنة العنــب) .

الحنين عند حسب تجسيد للاشياء الصغيرة واحياء لطراوةطفولة موغلة بأبعاد البراءة والمرح . انه يجلبك من الضجيج الى هدأة قرية تغفو على حافة ليل الهور والنخيل ومن خلال الاستشراق الاستبطاني لهذه الاشياء والذكريات يفتح حسب هوة الدموع والحسرات . ويبقى شيء يجب ان اوضحه ذلك هو ان الغربة التي عاشها الشاعر ليست هي فقط غربته عن وطنه فهو يعيش غربة روحية تتجسد عنده بصدق. وهذه الغربة لايمكن تبريرها سياسيا او اجتماعيا لانها ذات جــذور أصيلة في نفسه . ان الموقف عند حسب لايتكون من خلال مسار تأريخي او فلسفي مقفع . ان موقفه وليد لحظة شعورية مرتبطة بأمور قــد لايستطيع الشاعر نفسه تحديدها ولكنه يحسها تماما كالضوء الــذي لايتجسد في الاشياء بقدر مايتلألأ عبرها وخلالها . وهذا لايعني انــه ضرب من الوجد الصوفي يجتاح الشاعر في غمراته وانما هو واقــع مرتبط بجذور تربوية عصفت بها ويلات الاخرين وهمومهم متشابكــة في تفرد الشاعر وشعوره بالمواجهة اللامتكافئة ازاء ثقل الحياة . غربة حسب ليست وليدة الشعور بالابتعاد عن الوطن كما قلت فقد يحس بوطأة غربته في وطنه وفي قريته التي ولد فيها بالذات . انها غربــة المعاصرة التي تجعل الشاعر وجها لوجه وحيدا ازاء العالم الذي يحبه ويراه مغمورا بدخان المتاعب والموت (انظر قصيدة وقت للحب ووقت للتسول وقصيدة العودة من بحيرة الملح) . والى هذه الغربة ينتمي الدفء الذي تشعه قصائد الشاعر ومن امتداداتها ايضا هذا الالــق الخاص الذي يشدنا بألف خيط الى شعره .

الرمادي (العراق) **طلال سالم الحديثي**



الــزحــــام

مجموعة قصص ليوسف الشاروني

* * *

القصص في هذه المجموعة تسع بالمعنى الصحيح ، عدا ما قبــل الاخيرة التي بعنوان « قصص في دقائق » وتشمل احد عشر مقطعا كل مقطع هو عبارة عن خاطرة أو اقصوصة صغيرة بما يقارب العشرين سطرا او اقل كبعض اقاصيص تشيخوف وكافكا . اما الاخيرة « يوم فــي الحريق » فيقول فيها المؤلف « قد لاتكون قصة لكنها من المؤكد ليســت مقالة » ولذلك افسح لها المكان هنا بعد ان « ظلت تنزوي بين اوراقــه قرابة عشرين عاما » . والمجموعة بعنوان « الزحام » وهي للقاص المصري المعروف يوسف الشاروني ، صدرت عن دار الاداب في بيروت . وللمؤلف مجموعات قصصية اخرى منها « العشاق الخمسة » و « رسالة امرأة» ترجم بعضها كنماذج للقصة العربية المعاصرة ، الى لغات اجنبية . هذا بالاضافة الى دراسات له في الادب والحب والرواية وغيرها .

ومسرح هذه القصص ، في معظم الاحوال ، الاوتوبيس او القطــار كان من دأب كاتبها التنقل فيهما على الدوام ، الأمر الذي يتيح لــه التعرف الى شخصياته الشعبية عن كثب ، والتحدث اليها ، وسبر افكارها واسرارها ، فتصويرها بالتالي ذلك التصوير الدقيق البارع .

ففي القطار ، وفي الاوتوبيس بصورة خاصة يكون الزحام علــى اشده . ولا عجب ان يشخصه المؤلف فيجعله حينا « متخما بالركاب لايستطيع ان يزدرد اية زيادة ، وحينا يفرز الاذرع والاقدام ليمتص عددا اخر » . ومن هنا كان عنوان القصة الاولى « الزحام » الذي اطلــق على المجموعة . غير ان هذا الزحام لاينحصر وجوده في الاوتوبيس وحده حيث يتشبث الواقفون « بقضيب في اعلى السيارة كانهم ذبائح بشرية معلقة مكدسة تقطر مرارة « انما هو في كل مكان ينتقل اليه او



يحل فيه فتحي عبد الرسول ، المحصل في شركة النقل الداخلي . » وفي هذا المكان تتلاصق الغرف ، وفي الغرف تتلاصق اجساد الرجال واجساد النساء كلما جمعتهم عتمة الليل فيتوالدون كالارانب « فحتى ضوء القمر يختنق هنا تحت زحمة البيوت . طردوا القمر من المدينة . وفتحي عبد الرسول يخاف هذا الزحام ويتهيبه منذ اصطحبه والده معه ، وكان طفلا بعد ، الى مولد سيدي احمد النوتي فانضم الى حلقة من حلقات الذكر يتزعمها ونسيه هناك . وكاد يفقده لو لم ينقذه يومها واحد من قريتهم . ولا غرابة ان يظل كابوس الزحمة يلاحقه ، بعد هذا الحادث ، او يلاحق شخص الكاتب بشخصيات قصصه ، كل قصصه تقريبا فيزحم هذا الزحام ويقحمه في كل قصة وكل عبارة وصورة ، وربما مجاراة للعنوان ايضا . وحتى زمان احداث قصصه يجعله في الصيف والقيظ بصورة خاصة لكي يستروح الزحام ويكون فعله اجدى « كان الجو حارا ، يقول في قصة « اللحم والسكين » وتكاثف الانفاس قد ضاعف من حرارة الجو حتى سال العرق على كثير من الوجوه ورائحة الزحمة البشرية تملأ الانوف .

اما المواضيع التي يتطرق اليها في المجموعة فمستقاة كلها ، على تنوعها ، من بيئته وواقعه وهي تصوير لهما حي . فالقصة الاولى « الزحام » تروي سيرة فتى هجر الهواء والخلاء في القرية ليدخل الى زحمة المدينة حيث تتلاصق المنازل وتتلاحم الاجسام في غرفها الضيقة. فتقوده هذه الزحمة حتى الى مزاحمة والده ، طبعا بعد موته في فراش الزوجية ، ومن ثم تقوده الى بيت المجانين .

وفي قصة « لمحات من حياة موجود عبد الموجود » تنتحر زينب حين تكتشف عريسها موجود يعاشر امها مديحة في السر . فتنتاب العريس مايشبه حساب النفس العسير والعقاب اللذين انتابا راسكولنكوف في رواية « الجريمة والعقاب » لدوستويفسكي ، وهما من الجريمة افظع وارهب . ومثل ذلك ينزوي موجود وينطوي ويخشى الليل ويهم بتسليم نفسه لمحققه القديم . الا انه بعكس راسكولنكوف، وازاحة لوقر الجريمة عن كاهله ، يفلسف خوفه ، يمحو نفسه بالخوف، يقضي على وجوده بعدم الوجود « انا خائف اذن انا غير موجود » .

وقصة « اللحم والسكين » ماساة اخرى لعائلة مسيحية . فهنا يكاد اخوان متحابان يقتتلان حول الارث الى ان يضع موت امهما الناجم عن خصومتهما الدائمة حداً لعدائهما في الليلة نفسها التي توارى فيه التراب . وفي قصة « نظرية في الجلدة الفاسدة » يتناول المؤلف بالنقد الساخر مدرسة القرية وعيادتها واطباءها والماء والكهرباء فيها وغيرها من الامور . والجلدة هنا « جلدة صغيرة في صنبور بيتك تعكر عليك طمانينتك وتجعل من تلك المياه المرشحة المعقمة تهديداً لك » . هذا اذا فسدت الجلدة طبعا ، وحتى اذا لم تفسد فزوجة المتحدث تؤثر الشرب من ماء النيل « الماء النقي للغسيل والاستحمام ، تقول ، اما ماء النيل فللشرب لانها بخيرها » وقصة « الحذاء » الذي رقع للمرة التاسعة يذكر بمعطف غوغول اكثر منه بحذاء الطنبوري ، ولكنها مكتوبة باسلوب الشاروني الشيق مما يبعد عنها لطرافتها طابع التقليد .

هذه هي القصص الست اقوى ما في المجموعة والمؤلف يسردها وغيرها باسلوب ساخر فكه . حتى قصصه المأساوية المفجعة يهيمن على جوها روح النكتة وتعج تضاعيفها بالدعابة والمرح . دعابة ومرح يتزاحمان في العناوين والتشابيه ، في التعابير والجمل ، في المفردات والاسماء وحتى في انتقاء المواضيع وطريقة السرد .

ان قصص يوسف الشاروني تقراها بلذة ، تقراها من اولها الى آخرها وانت تبتسم او تضحك . وهي الى الكلاسيكية اميل منها الى اي نوع اخر . ويبدو لي ان صاحبها من الذين تثقفوا على كبار كتاب القصة العالميين . غير ان الذي ينقصها في نظري هو التركيز ، ولملمة الحبكة ولز الاحداث لزا محكما يتناسب وقصر نفس القصة القصيرة .

توما الخوري

الفالس الكبير

قصة للكاتبة السوفياتية ايفاجوف
ترجمة عن الروسية رضوان ابراهيم

تعريف

من الكتب الواسعة الانتشار بين القراء للكاتبة السوفييتية اينا جوف : « انا الغابة » ، و « خفقات قلب » ، و « نقطة الغليان » ، و « بهذا لا يمكنك ان تكون » ، « التليفون يدق في الليل » ، و « أحلام الشمال » ، وآخر كتاب لها صدر عام ١٩٦٥ بعنوان « لاتصدق المرآة » ، ويضم قصة طويلة بهذا العنوان ، وبضع قصص قصيرة من بينها : « حجر الياقوت العجيب » ، و « طابور الكيروسين » ، و « العربة » ، و « الملازم ليلكين » ، و « الفالس الكبير » ، و « سكفورشكين الجريح » ، وكلها تدور حول الحرب وويلاتها .

وقصة « لا تصدق المرآة » قصة طويلة تحكي حياة اسرة سوفييتية ، بها ثلاثة اجيال من النساء ، والشخصية الرئيسية فيها وهي اناميجونوك ، امرأة تعيش حياة شاقة وشريفة ، مات زوجها الاول برصاصة قاطع طريق ، والثاني في أبان الحرب الوطنية ، ولكن هذين المفقودين لم يحطما في نفسها التفاؤل والطموح الى السعادة ، وتاريخ انا وابنتها فيرا وحفيدتها تانيا ، يشكل موضوع هذه القصة الجميلة .

وقصة « حجر الياقوت العجيب » مخصصة للشهر الاول من الحرب العالمية ، ومعروضة من خلال احاسيس شابة في الرابعة عشرة مودعة من مواطني المدينة ، وعن المشقات الاولى والخسائر الاولى للحرب ، وآلام الفراق ، وغيرها من مضامين هذه الاقاصيص .

واسلوب الابداع عند ايفاجوف يتميز بالسرد الشاعري السهل ، والقدرة على التغلغل في لب الظواهر ، والامزجة ، والثقة بالنفس ، والعلاقات الانسانية المتبادلة .

القصة

هذا هو اسم الفيلم الذي كان يعرض على شاشة السينما قبل الحرب بفترة وجيزة ، ويحكي عن حياة المؤلف الموسيقي العظيم يوجان شتراوس ، الذي كان أهله يدعونه شاني .

لقد تزوج المؤلف الكبير من بولدا المثيرة ، ابنة بائع الخبز ، حين لم يكن قد وصل بعد الى قمة المجد ، اما المغنية الجميلة المتألقة كارلا دونير فقد كان بينها وبينه حب مأسوي كبير .

في هذه السنوات لم تكن دور العرض تدللنا بهذه الافلام ، ففيلم « الفالس الكبير » قد ظفر بنجاح لم يسبق له مثيل ، وعرض خمساً .. وعشرا .. وخمس عشرة مرة ، وشاهده جدي الصيدلي الاوديسي القديم ، ذلك الانسان الذي يحيا حياة متحفظة قاسية ـ شاهد « الفالس الكبير » اثنتين وعشرين مرة ، ولهذا كان يقال عنه في البيت، وعلى سبيل المزاح ، انه عاشق كارلا دونير .

كان الجد في هذه الآونة في عامه الستين ، وفي الحقيقة انه كان يمكن ان يحب ، وهذا الحب الاخير قد منحه حرارة تشبه دفء شمس الغروب .

وكارولا دونير التي لعبت دورها الممثلة ميليتسا كوريوس ـ كانت متألقة فاتنة ، وكنا نحلم ، نحن الفتيات ، مجرد حلم فقط ، بأن نتشبه بها ، او نسلك سلوكها . او نفوز بقدر من هذا النبل والفخار .

هذا هو المؤلف الموسيقي الشاب المتطرف ، وقد احتار في دوامات الارضية المخرمة لثوبها المصنوع من الدانتيل . وتسأله هي :

ـ « اضيق هو ؟ »

كم في هذا السؤال من التهكم والسخرية الهادئة . ثم وهي تقول:

ـ « سوف اعاونك .. وساعمل هذا بمنتهى السهولة » .

وتمزق الدانتيل غير آسفة على الثوب .. هكذا مزقت الثوب بجرأة ، بعد ان ساعدت شاني على ان يقوم بعملية الاختيار بينها وبين بولدا ، ويرفض حبها . سوف يظل يوجان شتراوس يذكرها طوال حياته ، ويكرس لها كل الحانه ، لان الحزن على الآمال الضائعة يذكي جذوة الفن .

وأطل الشيخ العجوز من شرفته على الجماهير المحتشدة في يوم الذكرى لتحية المؤلف الموسيقي المحبوب ، فرأى من خلال الدموع الغائمة كيف تبرز شخصيتها الشابة الجميلة ، لا بين الجمهور ، ولكن فوق الجمهور .

لقد شاهدت فيلم « الفالس الكبير » ثلاث مرات .

كانت المرة الاولى في الجنوب ، في الهواء الطلق ، تحت السماء المفتوحة ، وتحت نجوم القوقاز ، بين الاشجار الخضراء الداكنة التي ترسل حفيفها في الظلام من وراء سياج دار السينما الصيفية ، وبين الصوت البلبلي النسائي على الشاشة ، والشعور بالحب ، وهداة القلوب الرقيقة السعيدة .

كنت يومها في الثالثة عشرة من العمر ، كنت أصغر من في الصالة جميعا ، ولكنهم سمحوا لي بالدخول ، لانني ابنة معاونة المسرح .

وانصرف الجمهور ، والناس يتنهدون ، ويجففون دموعهم ، والنساء في ثيابهن الحريرية الزاهية ، والرجال في حللهم المفصلة قبل الحرب ، وهم نزلاؤنا في دار الاستجمام .

كانت لي ضفائر سوداء صغيرة ، ومرفقان نحيفان خشنان ، وكانت لدي رغبة شديدة في ان اكون هكذا مثلما كانت كارولا دونير ، ولقد عرفت انه كان لهذا الحب مفخرتان : مفخرة تقبل ، ومفخرة ترفض ، لا .. لا ، ان مفاخر بولدا لا تليق بي ...

من الجائز ان اكون قد عرفت هذا فيما بعد ، ففي هذا المساء ، حينما نام الجميع ، لبست ملابسي من جديد ، ومن مدخل النافذة الضيقة قفزت الى الحديقة .

كان الليل مقمرا ، وكان ناصع الضياء بالنسبة للجنوب ، وباندفاع ولذة تضوعت ازهار الجنوب ، وفي المبنى الرئيسي للمصح انطفأت جميع النوافذ ، اما الابواب الداخلية للشرفات الدائرية الطويلة فكانت مفتوحة . كان الليل دافئا ، الا انه كان خانقا . واردت ان يحبني أي انسان، في اي وقت ، على ان يكون حبنا هكذا جميلا وعنيفا ، كحب

شاني وكارولا دونير . واعتصر قلبي هكذا ، كما لو كنت في هذه الساعة أفارق الى الابد حبيبا أحببته طوال حياتي .

والمرة الثانية التي شاهدت فيها « الفالس الكبير » كانت ابان الحرب في احدى مدن سيبيريا ، وفي دار من دور السينما القديمة الباردة ، حيث كان المشاهدون يقرضون حبات الفول السوداني ، ويطلقون الدعابات اثناء عرض الفيلم .

كان ذلك في عرض نهاري ، وكان كثير من الصبية والاطفال والراشدين قد وصلوا قبل الموعد ، وهم أولئك الحكماء الذين وصلوا الى الحكمة لا عن طريق السن .

وحينما تبادل البطلان القبلات على الشاشة انطلق صفيرهم في غضب ، وفجأة حدث شيء ما في الصالة ، لقد خفتت الضحكات ، وتوقفت اصوات قرض الفول السوداني ، فقد اقلعت الصالة مع السفينة التي تحمل يوجان شتراوس الى اعالي الدانوب .

كنا نجلس في الصف الاخير ، وكنت في الخامسة عشرة من العمر ، ولم نكن قد تبادلنا القبل مرة واحدة ، ولكن ايدينا كانت تتشابك فحسب . كم كان ذلك مخيفا في بادىء الامر . انني اتذكر يده وهي تقترب مني ، ونظرته المتجهة الى الشاشة ، وتقارب أيدينا ببطء ، وحينما مستني يده جذبت يدي ، ولسبب ما اخذت اسوي خصلة من شعري الذي تهدل من تحت القبعة ، ومن جديد ارحت يدي على ركبتي . لم يعد ينتظر طويلا لكي يتناول يدي . اننا نجلس الآن دون ان نحول انظارنا عن الشاشة ، خشية ان يفتضح امرنا . كيف ينبغي ان نحب ؟ هل يمكن ان يكون هذا هو الحب الذي كان بين شاني وكارولا ؟ هل يمكن والحرب قائمة ، والعدو على نهر الفولجا ، والمستشفيات غاصة بالجرحى ؟

أن آباءنا في الجبهة ، وابناء مدينتنا في الاسر ، ومن المحتمل ان يشتتنا القدر غدا في مختلف الجهات ، والا نلتقي بعد ذلك ابدا ، او نلتقي اخيرا وبعد فوات الاوان ، بعد ان يكون لكل منا حياته الخاصة وطريقه الخاص ، وقد يتوقف بنا الى الابد شتاء الحرب ، ودار السينما الدافئة ، والصف الخلفي ، ومسار الاشعة الشاحبة المنبعثة من غرفة السينما ، وايدينا المتشابكة ، والاصوات النسائية التي تشبه اصوات البلابل على الشاشة .

منذ وقت غير بعيد تسلمت منه رسالة : « لقد عرض في مدينتنا من جديد ، وبعد مرور بضع سنوات ، فيلم « الفالس الكبير » ، وقد ذهبت بالطبع لمشاهدته ، ومرة اخرى اقتنعت بالا اكرر ما سبق ، فعبثا نحاول ان نحتمل مرة اخرى . انني لاسال نفسي عن شيء واحد : اذا كان « الفالس الكبير » سيعرض في مدينتنا .. أفلا تذهبين .. »

لقد تاخرت هذه الرسالة ، وكانت لدي الفرصة لان اشاهد للمرة الثالثة فيلم « الفالس الكبير » ، لقد جدد هذا الفيلم القديم ، ولاول مرة ترجم نطقه ، وكان قبل الحرب مصحوبا بترجمة مكتوبة على الشاشة .

كان هذا الفيلم ضمن سلسلة من الافلام التي تصور حياة عظماء الفنانين .

جلست في الصالة المظلمة ، في الصف الاخير ، وكانت هذه احدى دور السينما الجديدة المكيفة الهواء ، ذات الشاشة العريضة ، والواجهة النظيفة المزينة بالاضواء الباهرة .

وحينما انتهى عرض الفيلم ، وتحركت ببطء بين الجموع نحو باب الخروج ، كنت اشاهد وجهه هذا ، كان بين الناس كثيرون ممن تقدموا في السن ، وربما كان هنا بين هؤلاء الناس شخص ما ، شخص شاهده معي لاول مرة في ليلة من ليالي الجنوب الدافئة ، تحت النجوم ، في الصيف الاخير قبل الحرب .

ثم تذكرت من بعد ذلك جدي ، لقد مات منذ امد طويل ، فلم يتيسر له ان يشاهد « الفالس الكبير » للمرة الثالثة والعشرين ..

ترجمة رضوان ابراهيم



عن (كتاب الحب) وقصائد متوحشة

بقلم الدكتور صباح قباني

***

نزار

حمل الي بريد اليوم هديتين رائعتين منك : (كتاب الحب) و (قصائد متوحشة) فكانتا اجمل الهدايا .

انهما ولا شك مفاجأتان مذهلتان ، بالنسبة لي على الاقل . فلم اكن اتخيل ان يهبط علي - مرة واحدة - ديوانان لك لم يدخلا في حسابي ولا تصوراتي .

قد تدهش ان انا قلت لك ان (كتاب الحب) هو كتاب اللغة ،كتاب البلاغة ، كتاب الفصحى الفصيحة قبل كل شيء . ولا ادري لماذا يذكرني بكتاب لابن جني . فهذا اللغوي النحوي الطليعي ، الذي كان معاصرا وصديقا للمتنبي الف كتابه (الخصائص) منطلقا من ان ديوان المتنبي هو اللغة العربية ، وهو البلاغة ، وهو ذروة التعبير الادبي . وأتصور ان المتنبي لو وجد الان لكتب بمثل لغة (كتاب الحب) ولجاء ابن جني آخر وقال انه كتاب اللغة ، والبلاغة ، والفصحى الفصيحة قبل كل شيء .

اللغة التي كتبت بها ليست بنت الشهور التي أمضيتها في تأليف كتابك ؟ بل هي بنت ثلاثين عاما من المعالجة الشعرية ، منذ اواخر الثلاثينات . وها انت في مطلع السبعينات نصل الى نتيجة هذا الجهد الطويل ، جهد لا أوافق على تشبيهه بالقص والتفصيل كما ذكرت في مقدمة الكتاب ، بل هو بالاحرى عملية تطريق صعبة ومضنية تماما كما يطرق المعدن الصلب الى ان تزول مقاومته وعناده ، ويلين بين اصابع المطرق ويستسلم للاشكال التي يريدها له .

اللغة العربية غنية ورحبة وكريمة . ولكنها تتطلب من يعرف كيف يتعامل معها ويكتشف أسرارها .

حين طلب مرة من أبي الاسود الدؤلي - وهو الذي أبدع عملية تنقيط الحروف العربية - ان يجد حلا لمشكلة لغوية اخرى قال : « سينهض لها الجهابذة » . ولا اشك أبدا ان امثالك كانوا في ذهنه وليس موميات المجامع اللغوية .

ثم ان مقدرتك الفائقة تجلت في استعمال تعابير يوميةوفولكلورية شائعة استعمالا شعريا وفي أماكن يستحيل ان يحل محلها غيرها : (باب كثير الريح ما فتحته ، سبحان المعبود ..) وقد لفت نظري منذ فترة انك تستعمل من حيث لاتدري تعابير كانت تتردد بالذات على لسان أبيك (لاتبقي ولا تذري ، بأي شكل كان ، باي سعر كان ..) اما تعبير (على دين المحبوب) فهو من مفردات جدنا الرائد ابي خليل القباني ..

لقد حطمت والى الابد أسطورة التفريق بين كلامين : كلام للشعر، وكلام لغيره ، وأثبت ان الكلمة ، أية كلمة - انما بعد ان تخرج من بين اصابعك - تصبح شعرا . فلا احكام مسبقة عندك . مايهم هو النتيجة .

وهذا بالطبع يوصل الى أسطورة اخرى : أسطورةالشكل والمضمون التي لايزال الكثير يجترونها في حين أنها غير موجودة اصلا . فالعمل الفني شيء لايمكن تمزيقه وتجزئته . وفي اللحظة التي تبدأ فيها تساور التأمل للعمل الفني حكاية الشكل والمضمون فهذا يعني ان العمل المذكور غير ناجح من اساسه . فلغتك هي لغة العصر قولا ومعنى .

وللشاعر الكبير (ييتس) ابيات يرفض فيها عملية التجزئة في العمل الفني اذ يقول :

OH CHESTNUT TREE
ROOTED BLOSSOMER
ARE YOU THE LEAF ?
THE BLOSSOM ?
OR THE BOUGH ?

OH BODY SWAYED
TO THE MUSIC !
OH BRIGHTENING GLANCE
HOW CAN WE KNOW
THE DANCER FROM THE DANCE ?

اما الصفاء العاطفي فقد بلغ منتهاه في الكتاب ولم تجاوز الحقيقة حين قلت انه (نشيد انشادك) . اما اهداء الكتاب الى بلقيس فكان المفتاح الذي اعطاه لحنه المميز ، تماما مثل السمفونيات والسوناتات .

ملاحظة واحدة اكره ان اقولها ، ولكن عدم ذكرها سيتعبني . كنت أتمنى لو عملت مقصك أيضا في المقدمة العظيمة واستغنيت عن بعض اجزائها التي تتصف بخفة الدم . قد تستغرب ان أطالبك بهذا في الوقت الذي أعترف فيه بخفة الدم هذه ، ولكنني اعتقد ان عبارات مثل (.. اسكر على طريقك .. وككثرة الكلام على طاولة القمار ..) ما شابهها من تعابير مارونية عبودية أن كانت تصلح لمقالة صحفية سريعة فان مكانها ليس في مقدمة كتاب سيكون حتما علامة بارزة في حياتنا الادبية المعاصرة .

لهذا فاني أطالبك ياعزيزي نزار ان تقصر خفة دمك ونكاتك الموهوبة علينا ، على المشافهة ، وان لاتنصر على ادراجها في نثرك العظيم .

و « قصائد متوحشة » ايضا ذات نكهة خاصة وجديدة في كل شيء ، في المعالجة ، والمواضيع والاخراج . ولقد عبرت عن تأثرك بالجو اللبناني بشكل مذهل ، ولا أظن ان بمقدور اي شاعر لبناني او عربي ان يبرز بيروت ولبنان مثلما أبرزتهما .

كنت وأنا أقرؤك أرى الخلجان الزرقاء المخضوضرة ، وأشم رائحة الزعتر ، وأسمع صخب المقاهي في (الروشة) و (الحمراء) ..

ان كان من تهنئة يجب ان تزجى ، فلأدبنا المعاصر ، لانك اعطيته فرحتين جديدتين .. وما أكثر الفرح الذي وهبته له خلال اجيال ثلاثة . وليسلم فمك دائما

جاكارتا ٩ - ٢ - ١٩٧٠

صباح قباني

حول خطأ مطبعي

علق الدكتور عبد المنعم تليمة في العدد السابق من المجلة على ندوة « قيم جديدة في الشعر العربي » التي نشرت في العدد الاسبق ، فأورد عبارة للدكتور خليل حاوي يقول فيها « .. اما من حيث البناء ، اي ان يبني احد هؤلاء الشعراء بناء شعريا ضخما يعادل ضخامة الحجر ... الخ » فقال الناقد « انني لم افهم كيف يكون البناء الشعري ضخما معادلا ضخامة الحجر ... »

والواقع ان في هذه العبارة خطأ مطبعيا فات التحرير والمصحح في المجلة ، لان العبارة الصحيحة هي « ضخامة الحدث » لا ضخامة الحجر .. ونحن نعتذر للشاعر الدكتور الحاوي عن هذا الخطأ الذي جر الى ذلك الالتباس .

((كوميديا القلب المعتم))

بقلم نصار محمد عبـد الله

***

نشرت الآداب في عدد كانون الاول ((ديسمبر)) سنة ١٩٦٩ دراسة للاستاذ بدر توفيق بعنوان ((كوميديا القلب المعتم)) وحول هذه الدراسة أبدى الملاحظات التالية :

اولا ـ من حيث النهج آخذ على صاحب الدراسة انه ليس دقيقا ولا محددا فان المتامل لدراسته لا يستطيع ان يتبين عما اذا كان الهدف منها هو دراسة نص محدد بذاته هو ديوان ((البكاء بيـن يدي زرقـاء اليمامة)) أم ان الهدف منها هو دراسة الحياة النفسية للشاعر امـل دنقل وعلاقتها بشعره .. كذلك فقد لجا الاستاذ بدر الى حشد عـدد كبير من التفاصيل .. وسواء منها ما اتصل بحياة الشاعر او ما لـم يتصل فانها في مجموعها ـ وفيما يبدو لي ـ لا تخدم الدراسة كثيرا .

ثانيا ـ حاول الاستاذ بدر ان يصور أمل دنقل على انه شاعر اهم ميزاته الابداعية هو تصويره الجيد للموقف الكوميدي .. وهـذا تصوير متعسف في رأيي .. ، لعل الاستاذ بدر يخلط بين النشوة التي يثيرها في نفوسنا تتبعنا للموقف الكوميدي وبين تلك التي يثيرها تاملنا للموقف الشعري الجيد .. هذا الموقف الذي قد يكون كوميديا او تراجيديا .. ولكن صفته الاساسية هي انه موقف يحطم منطق الحياة اليومية المالوفة .. منطق النثر .. منطق الضحك العادي .. والبكاء العادي .. هـي انه اكتشاف مكثف .. حاد .. قادر على انتزاع المتلقى من البلادة التي تولدها في النفس رتابة الحياة اليومية واطرادها .

ولنتامل النموذج التالي الذي قدمه الاستاذ بدر في بداية دراسته

.. لا تحلموا بعالم سعيد .

فخلف كل قصير يموت قيصر جديد ..

ولا اريد ان اضع هذا النموذج في مكان ما بقائمة التصنيفات قائلا انه يعبر عن اكتشاف تراجيدي خالص .. او كوميـدي خالص .. او كوميتراجيك الى آخر هذه التصنيفات التي تروق للاستاذ بدر .. اريد فحسب ان اقول اننا ازاء نموذج شعري جيد .. نموذج يرغم انفعالاتنا على ان تستثار ، واثارته للانفعال ترجع الى كونه شعرا جيدا اولا وقبل كـل شيء .

من ناحية اخرى فانا اتساءل مـا هـو تصور الاستاذ بدر توفيق للكوميديا .. انه يحيلنا في اكثر من موضع الى ارسطو .. فهلا رجـع الى ارسطو مرة اخرى ليرى كيف انه في كتاب الشعر يـرى ان الصفة الاساسية للكوميديا التي يعتقد اذن ان امـل دنقل كوميدي بهـذا المعنى ؟.. لسوء حظنا ولسوء حظ الاستاذ بدر ان ارسطو فـي كتاب الشعر وعد بان يتحدث بالتفصيل عن الكوميديا في مقالة اخرى تالية.. ولكنها فقدت في الغالب .!

ثالثا ـ اتفق مع الاستاذ بدر في انه من الخطا القول بان امل دنقل احسن شاعر في جيله .. لا لاني اعرف في جيله شاعرا افضل منـه ولكن لاني اكره هذه الطريقة في تعميم الاحكام .. والتي مـن قبيلهـا ايضا (انه ليس احسن شاعر في جيله !)

رابعا ـ اشار الاستاذ بدر الى جيوب القصيدة الدنقلية والتي من اهمها في رأيه تفكك القصيدة وانفصام اجزائها عن بعضها البعض ، وقد يكون في هذا شيء من الصحة ولكنه ليس صحيحا تمامـا فالقصيدة الحديثة لا يربطها التسلسل الزمني ولا تسلسل الصورة ولا الروابط اللغوية من حروف العطف وادوات الاضافة .. الخ بل يربطها اساسا ايقاعها الداخلي وتسلسلها النفسي .. انني اذكر الاستاذ بدر (وبصفته طالبا مبتدئا في دراسة اللغة الانجليزية وآدابها بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس) بالمثال المشهور الذي يعرفه كل المبتدئين في دراسة الادب الانجليزي والذي لا بد قد اطلع عليه مـن قبـل الا وهو قصيـدة The Waste land ليرى كيف انهـا تبـدو للوهلة الاولى مفككة شديدة التفكك ـ ولم يمنع هذا من اعتبارها واحدة من اعظم القصائد التي جادت بها قرائح الشعراء على مر الزمان ـ .

ان القصيدة المعاصرة في تفككها وتناثرها انمـا تعبر عـن فوضى الواقع .. عن تفككه وتناثره .. هذا التفكك الذي يحاول الشاعـر ان يوحي لنا من خلاله بانه بحكمه نظام ما ...

القاهرة **نصار محمد عبد الله**

***

حول قصص العدد الماضي

بقلم : مصطفى الاسمر

القصة القصيرة ـ العربية ـ تمر الآن بمرحلة معاناة حقيقية بحثا عن شكل جديد وآفاق جديدة لها .. هذه الظاهرة موجودة وقائمـة في حياتنا الادبية ـ نتيجة لاسباب محددة ـ أقررنا بهذا او لم نقر ..

وفي ظني ان هذه المعاناة لم تتضح معالمها تماما ، ولم تتبلور بعد، فهي ماتزال ارهاصات تبشر بميلاد جديد .. من هنا كانت القلة الصادقة التي تعمل في هذا المجال تكاد تختنق وسط كثرة تخط على الـورق الابيض أي كلام مدعية انها تنتج تجارب جديدة .. ولئن كانت هـذه ظاهرة بارزة يمكن ملاحظتها حتى لغير الدارس المتخصص ، فهناك ظاهرة اخرى عمرها اقصر نسبيـا هي الانتاج الادبي المرتبط بما بعد ((الاثنين ٥ يونيه)) .. فقد كتبت عن المعركة وفيها ولها من الاعمال الادبية الشيء الكثير مما لا يمكن بحال حصره ، ولكن القليل من هذا الكثير هو الذي استطاع ان يرتفع الى مستوى الصدق المطلوب في العمل الفني .. ليس المهم ان يكتب الاديب عن المعركة ويستقي افكاره من نبعها ولكن المهم ان ينتج لنا عنها ادبا يجعلنا نتعاطف معها ومعه وذلك عندما يجند قلمه لخدمتهـا ..

فكم من الاعمال الادبية اساءت الى المعركة اكثر مما افادتهـا اما باظهارها كشيء ضبابي لا صلـة له بعالمنا وواقعنا المعاش ، واما عن طريق معالجة فجة نتيجة مجاراة الكاتب لموضة الكتابة عن المعركة ، فهي كحدث بارز ومؤثر موجود في حياتنا لايرضى لنفسه الا ان يشـارك فيه ويدلي بدلوه خشية ان يتهم بالتقصير او لخوفه ان تفوته الفرصة دون ان ينتهزها .. وهذه الاعمال اراها محسوبة على المعركة محملـة عليهـا .

وقد تكـون قصتا (نفق الى النور ، الحلبة والمرآة) خير شاهد على مقدمتنا تلك .. فالقصتان من ادب المعركة ـ ان صح التعبير ـ وهما ايضا لا تترسمان الشكل التقليدي للقصة دربا للتعبير عن فكرتيهما وبقدر ما في (نفق الى النور لطارق عون الله) من اصالة فنية لاتقـف بنا كقراء عند نقطة التعاطف مع العمل فحسب بل وتتعداها الى نقطـة التأثير الحقيقي الذي ينقلنا الى درجة المعايشة للعمل وتمثله واقعـا يحياه القارىء نفسه بقدر ما في (الحلبة والمرآة لمحمد الحسناوي) من عجلة وافتعال افقد العمل ذلك المذاق الخاص المميز لاي نص جيد .. قد تكون الجمل الاجارية لقصة محمد الحسناوي سمة مميزة وظاهـرة ملموسة نراها في كل المقاطع تمتد بطول القصة وبنفس المستوى الفني تقريبا دون اهتزاز .. وصحيح ايضا انها جمل كتبت بعناية شديدة بقصد خدمة فكرة محددة (ـ الآن دور الثور الاسمر عصام . انظروه يتقدم بكل ثقة وجرأة . هتاف الجمهور يعلو ويعلو . خطواته تزداد رسوخا . الفارس المشوق يبادره ، يتقدم ينقدم ، ينشر الراية الزاهية. الثور يتحفز ، يهجم . انطوت الراية . يتراجع الثور . الفارس يدور يدور . الثور يتراجع) فمع ما في هذا المقطع من جمال لا ننكره ومـع استغناء الحسناوي عن حروف العطف مما اكسب الفقرة مذاقا خاصا اشبه بالاسلوب البرقي الخاطف ولكنه مستحب .. الا انه ـ اقصـد المقطع ـ يبقى في النهاية ـ وداخل العمل نفسه ـ مجرد جمل اخبارية قد تكون بالغة العذوبة وقد ترتفع الى مستوى الصياغة الشعرية بـل لقد انتهت اليها بالفعل في نهاية النص ولكنها لا تتجاوز ذلك بحال .. تختلف الصورة تماما عند طارق عون الله عندما يقول (... الماء فـي الابريق ، على الطاولة ، والطاولة في الغرفة ، وأنا في الغرفة ايضا !!

ولا يفصلني عن الطاولة ، الابريق ، الماء ،غير خطوات ثلاث بعدد الساعات التي فضيتها هنا (الماء .. الابريق .. الماء ...) هنا نستطيع ان نستشف بوضوح الفارق ، المقطع السابق ككل اخبار مساقة ولكنها قبل أي شيء تركيبة فيها من الفن قدر ما فيها من الحياة ، لدرجة انني لا أتصور ان يصاغ المقطع على غير هذه الصورة ، التكثيف هنا ليس بالشيء المفتعل بل هو الوسيلة الوحيدة والقادر على الكشف عن اعماق زهير ومدى معاناته ..

وقد نجد في « الحلبة والمرآة » ان جهد الحسناوي وقف به عند حد تقسيم العمل الى مقاطع وحدات ، كل مقطع وحدة قائمة بذاتها ، بأحداثها ، بأفكارها .. صحيح قد تكون مرتبطة بما قبلها وما بعدها من اجل اثراء الفكرة العامة ولكنها مجرد احداث لااكثر بينما في « نفق الى النور » لعون الله نجد ان ارتباط المقطع بما قبله وبعده لايقف عند هذا الحد البسيط اذ انه ليس مجرد قنطرة ومعبر بل هو امتزاج للاحداث نفسها وان كنت آخذ على عون انه اختار لنفسه الجانب الاسهل والايسر ايثارا للسلامة على مايبدو ، فلو انه بوسيلة ما استطاع ان يجد طريقة لمزج الاحداث ببعضها داخل المقطع نفسه لضمن لنفسه عملا اكثر توفيقا خاصة ان طبيعة النص قادرة على اسعافه بهذا الامتزاج المطلوب، عكس نص الحسناوي ، فقد كانت فرصة الامتزاج داخل المقطع الواحد بين الاحداث العامة في العمل ككل عسيرة دون شك لطبيعة العمل نفسه .. وكذلك كنت افضل لو تخلص طارق من تركيبات لفظية اراها محملة على النص لا يبقى لنا منها غير جانبها السيىء وهو الاستعراضات اللفظية التي تعوق ما يتميز به اسلوب طارق من عذوبة وسلاسة كثيرا ما كانت تضيع وسط هذه التركيبات (ولكن كلمة يائسة وقعت سهوا في مطبعة اللسان .. هل هو الفرق بين الموت والحياة ؟ ام هو الفرق بين العبودية والحرية ؟.. ترن في اذنيه كناقوس خطر الخ ..)

وان كان عون قد اصابه التوفيق في اختيار اسم قصته فانه لم يوفق كل التوفيق في خاتمتها اذ كان من الافضل للعمل ان يقف ولا يضيف اي حرف جديد بنهاية (ضفة النهر الاخرى) وكما اختار طارق عنوان قصته بمهارة اختار محمد عنوان قصته باقتدار فقد استطاع ان يبلور فكرته من خلال هاتين الكلمتين (الحلبة والمرآة) فالمرآة تعكس على صفحتها كل مايدور فوق ارض الحلبة من احداث سواء كان الوجه المشرق « منظمة فتح » وجه مشرق من وجوه المقاومة العربية . اسمها « فتح ») او الوجه القاتم (امطرت السماء على هانوي حبات لوز « مليس » المرآة لن تعكس غير الواقع ، وهي معذورة اذ نقلته لنا كما هو ولا لوم عليها ، اللوم يقع علينا نحن أن اردنا ان نعكس على صفحة المرآة وجها مشرقا دائما فبيدنا نحن ان نصنع ذلك .. الحلبة وحدها هي القادرة على تغيير الواقع والصورة لا المرآة لانها ساحة الاحداث ومكونتها ، والفكرة جليلة دون شك ولو كان الحسناوي اجهد قلمه في صياغتها وكتبها بتأن وصبر أكثر لاستطاع ان يقدم لنا نموذجا طيبا لقصصنا العربي في شكله الجديد .. وزهير بطل « نفق الى النور » يمتاز بانه انسان موجود بيننا ، انسان فيه من صفات البشر الكثير ، فيه ما فيهم من محاسن ونقائص ، من هنا كان اقتناعنا به اكثر من اقتناعنا بعصام ، زهير سجن وعذب وكره واحب ومارس الجنس ولكنه يبقى في اعيننا دائما البطل حتى في لحظات سقوطه ، فلا عبرة بانحرافه ، فقد كانت هناك مؤثرات ضاغطة عليه من الخارج ومن جسده كانسان يعيش الحياة ولا شك ان تجربته مع ماري كانت شيئا ضروريا لتنقيته وصهره وخلقه خلقا آخر ، كانت معبرا له ومخرجا سيقوده في النهاية الى الطريق الصحيح حيث الرطوبة أقل والنور اكثر . هي لحظة التخبط والضياع التي تسبق لحظة التحديد والوعي ، بعكس عصام فارس « الحلبة والمرآة » فهو بطل بلا بطولة ، نبي بلا نبوة، مجرد اسم ، ولكن هل يكفي الاسم كي يخلق الانسان ؟ او على احسن الفروض هو الفكرة التي استعارت لنفسها اسم عصام دون ان تستطيع تجسيده لنا .

جمعية الرواد الادبية ـ دمياط ج.ع.م. **مصطفى الاسمر**

الاتحاد السوفياتي

رسالة من جليل كمال الدين

فضح الاستفزازيين

***

بالعنوان أعلاه نشرت البرافدا في ١٣ كانون الثاني ١٩٧٠ ، الرسائل التالية من اليهود السوفيات ، كجزء من الحملة السوفياتية المضادة للتهويشات الصهيونية الاسرائيلية المعادية ..

وقدمت لها البرافدا بالمقدمة التالية :

ابتدأت غولدا مبير التي تتراس الحكومة الحالية في تل ابيب حملة سياسية مكشوفة في عدائها للسوفيات ، وذلك من اجل التغطية على الجرائم المرتكبة ضد السكان العرب المسالمين ، واخماد موجة الاحتجاج ضد سياسة الضم والالحاق ، وهي الموجة التي تتعاظم في داخل اسرائيل ذاتها . فقد صرحت في الكنيسيت بأن تل ابيب تحاول استعادة (؟!) كافة مواطني الاتحاد السوفياتي من القومية اليهودية .. الى اسرائيل .

ان مثل هذه الخطوة الاستفزازية ، من جانب رئيسة الوزراء الاسرائيلية الجديدة ، انما هي تعبير عن مسعى حكام تل أبيب - باللجوء الى التخريب المعادي للسوفيت هذه المرة - للخروج من تلك العزلة السياسية التي وجدت نفسها فيها نتيجة استمرار العدوان ضد الاقطار العربية . جهود عقيمة !

وقد تلقت البرافدا مئات الرسائل من المواطنين السوفيت من القومية اليهودية ، يحتجون فيها على استفزازات الدوائر الاسرائيلية الحاكمة . اننا ننشر هنا مقتطفات من بعض الرسائل :

١ - « أشجب بسخط واستياء هذا التصريح الوقح لرئيسة وزراء اسرائيل ، السيئة الحظ . من الذي منحها الحق بالكلام عن عودتي (انا يهودي ، من حيث القومية) الى اسرائيل ؟ ان وطني هو الاتحاد السوفيتي ، وليس لدي وطن سواه ، لم يكن ولن يوجد سواه .

لقد ولدت قبل خمسين عاما ، في حزيران ١٩١٩ ، في البلاد السوفيتية . وهنا نشأت ، واكملت تحصيلي الثانوي . وكنت في الكومسومول ١١ عاما ، وها قد مر ٢٧ عاما علي ، وانا عضو في حزبي اللينيني . لقد اعطاني وطني الاتحاد السوفيتي الامكانية بانهاء معهدين . وقد دافعت عن وطني الحبيب - الاتحاد السوفيتي - امام الغزو الفاشي ، في اعوام الحرب الوطنية العظمى » .

(د. سيفالوف

مدينة سميلا - منطقة جيركاسك)

***

٢ - « لا تدسي انفك فيما لا يعنيك ! اعني بهذا غولدا مبير - رئيسة وزراء اسرائيل ، التي صرحت في الكنيسيت ، بان تل ابيب تحاول التوصل الى اعادة (؟؟؟) كافة مواطني القومية اليهودية في الاتحاد السوفيتي الى اسرائيل ، بل وحتى طالبت « بالضمانات » ... لتقرير مصير اليهود ، الذين يعيشون في الاتحاد السوفيتي . فمن الذي طلب منها ذلك ؟ انها بحاجة الى المزيد من طعام المدافع للاستفزازات التي تقوم بها ضد الشعوب العربية وبلدانها . ولكن عم يدور الحديث عموما ؟ ان اليهود - هم مواطنو الاتحاد السوفيتي ، لم يعيشوا قط ، ولا يتهيأون للعيش في تل أبيب » .

(تس. اسرائيلوفا - مدينة جيرنيغوف)

***

٣ - « انك ، يا غولدا مبير ، تتحدثين عن العداء للسامية في الاتحاد السوفيتي ، وتريدين انقاذنا . انك تكذبين وتفترين ! من الذي انقذ من البؤس والحرمان من الحقوق ملايين اليهود في الامبراطورية الروسية القديمة ؟ أهي الصهيونية ؟ كلا ... انها السلطة السوفيتية! من الذي اتاح لليهود الامكانية بالدراسة والحياة والعمل والابداع ؟ اهي الصهيونية ؟ كلا - انها السلطة السوفيتية !

اننا (ومئات من الاجيال اليهودية القديمة) لم نعش قط في اسرائيل . اننا نستشعر العار والالم لان دولة اسرائيل قد مضت في طريق البرابرة الفاشيين . ان هذا لا يبرر ولا يمكن ان يبرر .

ان وطننا هو الاتحاد السوفيتي ، واننا سوية مع كافة المواطنين السوفيت ، لم نبخل لا بقوانا ولا بارواحنا في الدفاع عن هذا الوطن في معارك الحرب الاهلية والحرب الوطنية العظمى . هنا نشانا ، هنا تعلمنا ، وهنا بنينا ونبني الحياة الجديدة المشرقة . وهنا سنعيش !

(م. يوليفيج - مدينة خاركوف)

***

٤ - « ان اليهود السوفيت لا يحتاجون حماية او عناية من جانب حكام اسرائيل ، الذين لطخوا ايديهم بدماء العرب ، وورطوا شعبهم في الحرب الدموية . لقد جلبت هذه المجزرة لاسرائيل العار وحربا لا نهاية لها ، وهي تجلب لشعب اسرائيل المزيد من العذابات ، وليس حروب « الستة ايام » الظافرة فقط . وباليهود السوفيت (كما بالشعوب الاخرى في وطننا) تهتم حكومتنا السوفيتية مدى ٥٢ عاما ، وما من حاجة للكلام عن كون اليهود السوفييت مواطنين متساوي الحقوق في وطننا . فان هذا معلوم للجميع .

ولذا فاني ورفاقي نعتز بوطننا الكبير ، وبالحزب الشيوعي ، وبحكومتنا » .

(يا . كرينين - اقتصادي ، ومشارك

في الحرب الوطنية العظمى - مدينة موسكو)

***

٥ - « ابلغوا غولدا مبير واخوتها الفاشيين : اننا ، نحن المواطنين السوفييت من القومية اليهودية لم ولا نشاطرهم ايديولوجيتهم الفاشية ، ولم ولا نؤيد خططهم الاغتصابية السوداء .

... انتم ، ايها المتاجرون بالدم البشري ، الذين بعتم انفسكم للفاشيين ، والذين تصنعون من الفظائع ما صنعه الفاشيون لدينا في الارض المحتلة ، انما تريدون توريطنا في هذا الامر القذر . لن تنجحوا ! »

(غ. بارنمر - متقاعد - مدينة بودوسك)

***

٦ - « انه ليصعب علي التعبير عن الاستياء الذي اجتاحني حين سمعت ان رئيسة وزراء اسرائيل غولدا مبير تدعو اليهود السوفييت لمغادرة وطنهم - اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، والهجرة الى اسرائيل .

لا ادري ، فربما يوجد اولئك الراغبون (فما من عائلة تخلو من مشوه) ، ولكن كيف يمكنك مغادرة الارض التي مات فيها الاب في

الدفاع عنها ، وكيف يمكنك مبارحة عائلة الشعوب السوفيتية ذات الملايين العديدة ، التي نشأت معها في كيان واحد ملتحم . لا ادري ما الذي بقي لديّ من اليهودية ، اللهم الا ما بقى مسجلا في جواز السفر، ولكني ما دمت اعتبر يهوديا ، فاني اقول : لن يكون هذا !

اني شيوعي منذ عام ١٩٦٣ ، ضابط احتياط ، اعلن : اذا ما تطلب الامر ، فاننا سوية مع الروس والاوكرانيين، والجورجيين، والاستونيين، سوية مع كافة شعوب وطننا الكبيرة والصغيرة ، سنسحق كل معتد .

فلتعرف السيدة مبير ، ان اليهود السوفييت لن يموتوا قط من اجل مصالح الصهاينة الاسرائيليين ، الذين يستحقون مزبلة التاريخ منذ امد طويل ، وانما سيناضلون ، مدافعين عن وطنهم الوحيد فقط ـ الاتحاد السوفييتي ، الوطن الذي يستحق ويمكن تقديم الحياة في سبيله ، ان دعانا داعي الوطن لذلك » .

(غ. تسيبنين ـ مدينة خاركوف)

***

٧ ـ « ان يهود الاتحاد السوفييتي يعرفون ان الحرية لكافة الشعوب تحملها اللينينية ، وليست القومية البرجوازية ، التي تتحكم في اسرائيل ، ولذلك فليس لدى اليهود السوفييت ولن يكون لديهم ما يجمعهم مع اسرائيل البرجوازية ، ولن يرتحلوا الى هناك البتة .

ولهذا فمن العبث الذي لا طائل وراءه ان تعلل غ. مبير نفسها بهذا الامل . ان من المزق الحديث عن العودة الى هناك ، حيث لم يكونوا قط ولن يكونوا البتة » .

(ي. اوليا نوفسكايا ـ مدينة موسكو)

***

٨ ـ « عن اي عودة يمكن ان يدور الحديث ، ان لم نكن قط ، نحن اليهود السوفييت ، هناك في اسرائيل ؟ ما الذي نفعله هناك ؟ النملا جيش العاطلين ، ولكن يسهل على الراسماليين الصهاينة استغلال العمال وكافة الكادحين الاسرائيليين ؟ أم لنكون « طعاما للمدافع » في الجيش الاسرائيلي ، الذي يواصل الحرب الاجرامية ضد الاقطار العربية ، وضد التقدم ؟ أم لنرفع هيبة « الجنة » الاسرائيلية ، التي يزعم ان كافة اليهود ينطلقون اليها ؟ لن يكون هذا قط ، يا مبير ! »

(اي. كراسيكوف ـ مدينة كويبيشيف)

***

٩ ـ « على اي شيء املت غولدا مبير ؟ اعلى الرواسب العشائرية أم على « التضامن » القومي ؟ هيهات ! ان السياسة المحنكة لم تستطع أن لا تعرف ان هذا الامر هو محاولة بوسائل خبيثة . فان من الواضح تماما ان هدف « الدعوة » ينحصر في محاولة بذر بذور ارتياب سكان الاتحاد السوفييتي بزملائهم في المواطنة السوفيتية من ابناء القومية اليهودية ، من اجل احياء معاداة السامية التي اختفت في بلادنا منذ زمن ، وبذلك ذاته ، ارغام اليهود ـ مواطني الاتحاد السوفييتي على الهجرة الى اسرائيل .

ان محاولاتك عقيمة ، ايها السيدة مبير ، انك لا تعرفين الشعب السوفييتي! انه وهو المربى على المبادىء اللينينية للاممية البروليتارية، والاحترام العميق لكادحي اية قومية اخرى ، بمن في ذلك كادحو دولتكم ، لن يذعن لمخططكم الاستفزازي » .

(اي. فيغودسكي ـ مدينة خاركوف)

***

١٠ ـ « بودّي » كمواطن سوفييتي ذي اصل يهودي ، أن اعرب عن الموافقة التامة على السياسة اللينينية لحزبنا في اسناد النضال العادل للشعوب العربية . أن اليهود هم مواطنون سوفييت ، شانهم شان كافة المواطنين السوفييت ، ينطلقون بحزم ضد السياسة العدوانية للمتطرفين الاسرائيليين وحماتهم المستعمرين ، ضد الصهيونية ـ هذه الايديولوجية الشوفينية الرجعية المعادية للشعوب ، ايديولوجية البرجوازية الامبريالية اليهودية ، التي تريد عزل الكادحين اليهود عن النضال الطبقي ، وعن اخوانهم الطبقيين ، كادحي كافة البلدان .

فليعرف المعتدون الاسرائيليون وحماتهم المستعمرون ، ان كافة المواطنين السوفييت ، دون فرق في القومية ، ملتحمون صفا واحدا ، حول الحزب الشيوعي السوفييتي والحكومة السوفيتية » .

(اي. شتيرن اقتصادي ـ مدينة فينفيتسا)

***

١١ ـ « ان يهود الاتحاد السوفييتي يعيشون في عائلة وطنهم الواحدة ، المتآخية ، المتعددة القوميات ، وهم يحبون وطنهم دونما حدود ، وهم مستعدون ، في ايما لحظة ، للدفاع عنه من ايما عدو . ان الامبريالية ، مهما كانت جنسيتها ـ هي العدو اللدود والقامع لحرية الشعوب .

ليس لدينا ، ولا يمكن ان يكون لدينا وطن سوى الاتحاد السوفييتي .

اننا ندمغ بالعار السياسة الاجرامية « لصقور » تل أبيب ، الذين يقومون بفظائعهم ، مدعومين من جانب الاستعمار الاميركي .

اجل ، اننا يهود ، من حيث القومية ، ولكننا مواطنو الاتحاد السوفييتي ، وابناء بررة لوطننا الام ، واننا لنفتخر بذلك ، ولن نخونه قط ! »

(س. ديمينت ـ امين مكتبة ،
مدينة ديمتروف ـ منطقة موسكو)

***

دراسة الادب العربي

كتب توفيق مالكوف ، الخبير الشاب المرشح في الآداب يتحدث عن ابحاث زملائه طلاب صفوف التخصص والباحثين العلميين في قسم الآداب العربية بمعهد الاستشراق لاكاديمية علوم الاتحاد السوفياتي . وهذا هو نص حديثه كما اوردته وكالة نوفوستي :

يعير معهد الاستشراق لاكاديمية علوم الاتحاد السوفياتي اهتماما كبيرا لدراسة التراث الادبي للشعوب العربية ولابداعها المعاصر . ويشتغل المستعربون ـ الخبراء في الادب بابحاث الاثار الادبية ويؤلفون كتبا عن الادب العربي الحديث ، ويترجمون خيرة مؤلفات كتاب الشرق

العربي . ويشغل مكانا كبيرا في ابحاث المستشرقين الشباب ابداع الكتاب والشعراء الكلاسيكيين والمعاصرين لمعظم البلدان العربية .

ان احد المستعربين المشهورين في المعهد ، المرشح في علوم التاريخ فيلشتينسكي ، مثلا يعمل على تاليف كتاب كبير مكرس للشاعر العربي ابي العلاء المعري الذي عاش في القرن الحادي عشر . ويحلل واضع هذا الكتاب « الشعر الوجداني الفلسفي عند ابي العلاء المعري » تحليلا جديا شعر استاذ الكلمة الكبير هذا .

وفي القريب العاجل سيقدم طالب صف التخصص في المعهد ، امام فردي حامدوف اطروحته في موضوع « ابن قتيبة وديوانه ، الشعر والشعراء » . وخصص العالم الشاب اطروحته الشيقة لابداع عالم الادب والشاعر المعروف في الشرق ، الذي عاش في القرن التاسع . والف ابن قتيبة الابحاث العلمية في موضوع الاغناء المتبادل لاداب شعوب الشرق المنضوية تحت راية الخلافة العربية واشتغل بالنقد الادبي . والمهم جدا افكاره عن المساواة في الحقوق بين الشعوب .

ويثير اهتماما كبيرا ايضا بحث لاريسا سلطانوفا عن الطريق الابداعي للكاتب الاجتماعي اللبناني جورج حنا الذي ترك اثرا كبيرا في تطوير الفكرة الاجتماعية اللبنانية والادب اللبناني في مرحلة الحرب العالمية الثانية وفي السنوات الاخيرة .

وقد درست لاريسا سلطانوفا بصورة عميقة ابداع ابن الشعب اللبناني البارز هذا وتبادلت الرسائل معه . وان بحثها المؤلف من قسمين سيهم القراء بعد اتمامه بدون شك . وقد وصفت لاريسا سلطانوفا في القسم الاول من بحثها نشاط جورج حنا الاجتماعي ـ الفلسفي ومؤلفاته الاجتماعية . اما القسم الثاني من بحثها فخصصته لدور جورج حنا واهميته في الادب اللبناني . وتمكن مؤلفات الدكتور جورج حنا من ادراك الاتجاه التقدمي ـ الديمقراطي في الادب اللبناني بشكل تام في المرحلة التي عقبت الحرب .

ويعمل طلاب الادب وطلاب صفوف التخصص من هذا القسم كثيرا على الابحاث المكرسة للادب الحديث في البلدان العربية . ويعمل العالم الشاب بوريس تشوكوف على اتمام بحثه الذي يسمى ب « استقرار اشكال القصص والروايات في النثر العراقي » . وبحث واضع هذا البحث احدى الظواهر الشيقة المعقدة في الادب العراقي المعاصر .

وفي السنة الجارية قدمت رينا باشايفا بنجاح اطروحتها في موضوع « الاتجاهات الاساسية في القصة اللبنانية المعاصرة » . وكتبت رينا باشايفا في مقدمة الاطروحة تقول : « ان دراسة الادب اللبناني تمكن من ادراك النزعات الاساسية التي تسود جميع الآداب العربية .. ومن جهة اخرى ، فواقع ان تطور لبنان كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بنضال الشعب ضد الاستعمار ، وفي المرحلة التي عقبت الحرب ، بالنضال من اجل التغيرات الديمقراطية قد حدد ميزات الادب اللبناني واتجاهه الاجتماعي ـ السياسي ووجود الاتجاهات الادبية الدقيقة » .

ودرست العالمة الشابة في اطروحتها الاتجاهين الرائعين في القصة اللبنانية ، وهما الاتجاه التقليدي القائم على القصة الواقعية ، في الثلاثينيات ، والاتجاه الجديد الواقع تحت التاثير الكبير للادب الوجودي الفرنسي .

والى جانب العلماء السوفياتيين الشباب يشتغل بالابحاث العلمية في معهد الاستشراق كذلك طلاب صفوف التخصص من البلدان العربية. ويعمل الان الطالب من الجمهورية العربية المتحدة شوقي العمري على كتابة رسالة ممتعة عن « شعر المقاومة الفلسطينية » ويبحث نتاج الشعراء : ابراهيم طوقان وعبد الرحمن محمود وابو سلمى ومعين بسيسو وغيرهم . كما يعمل طالب الدراسات العليا السوداني جيلي عبد الرحمن على دراسة القصة السودانية الحديثة .

ان العلماء الشباب في معهد الاستشراق لاكاديمية علوم الاتحاد السوفياتي يشتغلون بابحاث الادب العربي ويقدمون بذلك قسطا كبيرا في تطوير الاستعراب السوفياتي ويساعدون على نشر خيرة مؤلفات النثر والشعر العربيين الكلاسيكيين والمعاصرين .

النشاط الثقافي في الوطن العربي

من مراسلي «الآداب»

ج.ع.س

من مراسل «الآداب» محيي الدين صبحي

●●●

شيء لاطفالنا ...

من الافضل ان نضاعف الى ما لا نهاية وسائل العناية باطفالنا ، ما دام كل جيل يتخلى عن تبعاته ويلقيها على الاجيال التالية ، متأكدا بيقين لا يدعمه أي سند من بينات الوقائع القائمة ، بأن لا بد من ان تتحقق في المستقبل آمال الامة في الوحدة والحرية والاشتراكية ، حتى ولو لم يساهم أي جيل في التنازلات الحتمية لاية وحدة من أي نوع .

من الافضل ان نعد اطفالنا منذ الآن لاننا لم نجد من يعدنا ولا اجدنا — نحن العرب — العناية بأنفسنا لمجابهة الاخطار المحيقة بنا من كل جانب : ومن انفسنا بالدرجة الاولى ..

وهذا ما يدعوني الى الحديث عن «مسرح العرائس» ومجلة «اسامة» باعتبارهما الشيئين الوحيدين اللذين يستحقان الحديث في صدد البحث عما نقدمه لاطفالنا — ما دام التعليم المنظري ما زال يغلب على مؤسساتنا التربوية بحيث نضيع ، عن عمد ، مستقبل اطفالنا ونخلق منهم شبانا يحملون شهادات لا تصلح لشيء !

***

مضت عشرة اعوام على تأسيس مسرح العرائس . فقد تأسس عام ١٩٦٠ باشراف ثلاثة من الخبراء اليوغوسلاف . ويبدو ان يوغوسلافيا قد اخلصت النصح لسوريا ، اذ ان احد هؤلاء الثلاثة — المخرج بوجو كوكوليا ، وهو ايضا خبير في فن تحريك العرائس — كان احد اثنين من ابرز المخرجين في العالم في مهرجان مسرح العرائس الذي اقيم في زغرب عام ١٩٦٩ .

لم يعمل الخبراء اليوغوسلاف سوى عام واحد اخرجوا خلاله سبع مسرحيات مع اعداد الدمى والديكور والثياب والتحريك — بعد عام ١٩٦٠ حصل الانفصال ، وقرر المسؤولون آنذاك ان لا حاجة لهم بخبرة اليوغوسلاف فعاد هؤلاء من حيث أتوا ..

أنهي عمل الخبراء قبل ان يستطيع هؤلاء الاصدقاء ان يهيئوا الكادر الذي يستطيع ان يسير بالمسرح سيرا طبيعيا ، وقبل ان يرسل أي شخص للتخصص في الاخراج لمسرح العرائس او صناعة العرائس او تحريكها . كما ان الفنيين الستة الذين لازموا الخبراء وتعلموا قليلا منهم ، شتتوا في مجاهل وزارة الثقافة فحرم مسرح العرائس من الاستفادة من خبرانهم ما عدا واحد ارسل للتدريب في مسرح العرائس في القاهرة لمدة ستة اشهر . ولم يستطع المسرح ان يوظف خبرات هذا الموفد بسبب انشغاله بتبديل الديكورات اثناء العرض واصلاحها وقطع غيارها لعدم وجود من يقوم بهذا العمل ..

من هذه المقدمة السريعة نستطيع ان نأخذ فكرة عن حالة مسرح العرائس والمستوى الفني للقائمين بشؤونه ، اذا اضفنا ان المتدربين «القدماء» هم الذين يدربون المختصين «الجدد» ، مع النص بأن معظم القدماء تركوا عملهم ، وبانه لم يجر انتقاء القدماء ولا الجدد على أي اساس من موهبة او ثقافة او تدريب متخصص !

ظل هذا المسرح المسكين تسع سنوات بعد انشائه يتنقل على مسارح المدارس المختلفة دون ان يجد من يجد له مقرا يستطيع ان يباشر عمله فيه بشكل جدي ثابت ومتواصل .

في عام ١٩٦٩ استولت وزارة الثقافة على قبو فسيح في معهد الحرية وحولته من مستودع للمقاعد التالفة الى مسرح للعرائس — وتم ذلك بمنحة من السيد رئيس مجلس الوزراء قدم فيها عشرين الف ليرة لاعداد المسرح وتجهيزه على قدر الامكان ، كما ساهمت وزارة الثقافة بشراء الاوائل الفنية الضرورية — لكنه مع كل ذلك ما يزال يحتاج الى طبقة عازلة في ارضه وسقفه مع تجهيزات اضاءة وتهوية واطفاء ومولد كهربائي .

بعد اعداد المسرح هذا الاعداد المتواضع ، نجح نجاحا يكاد يكون اسطوريا . وسبب ذلك يعود الى بادرة طيبة وان كانت قليلة المثال . ذلك ان وزارة التربية تعاونت مع وزارة الثقافة : نظمت ادارة المسرح حفلتين صباحيتين للطلاب ، ورتبت لادارات المدارس الابتدائية ادوارا لكل مدرسة ، بحيث يظل المسرح مليئا على الدوام كما ان كل مدرسة تعرف الوقت المحدد لاطفالها . وجعل ثمن تذكرة الدخول (٢٥ ق. س) مع تنازل وزارة الثقافة عن ٢٠٪ من الكراسي مجانا للاطفال المعدمين الذين لا يستطيعون الدفع — مع العلم بأن المبلغ زهيد جدا اذا أخذنا في اعتبارنا ان الطفل يرى المسرح مرة واحدة في العام اذا اقتصر مجيئه على مرافقة مدرسته في دورها — وان كان تامين باصات لنقل الاطفال يقع حاليا على ادارات المدارس ، ويا حبذا لو اشترت وزارة الثقافة باصين كبيرين لهذه الغاية ، خاصة وان المدارس في ضواحي دمشق واطرافها المتعددة اكثر عددا من مدارس العاصمة نفسها . وهذا ما يجعل دمشق قادرة على ان تستوعب مسرحين بدلا من المسرح الواحد . فاذا علمنا ان الاقبال في المحافظات اكبر من الاقبال في العاصمة ادركنا شدة الحاجة الى تحقيق الشعار «مسرح للعرائس في كل محافظة وفي كل قضاء» . وقد نظم المسرح جولات سنوية مسح خلالها انحاء القطر بأكمله وعرض حفلات في الهواء الطلق حضرها الطلاب في الباحات والريفيون من على السطوح . وهذا ما يؤكد الظاهرة التي تكررها كل الكتب المكرسة للموضوع ، من ان مسرح العرائس بخفته وقدرته على التنقل وروح الدعابة فيه يمكن ان يتغلغل الى اعمق اعماق الريف ويعالج أخطر الموضوعات ، مما يجعله عاملا ممتازا من عوامل التوعية وخاصة في الدول المتخلفة ، لذلك تستخدمه الجمهورية العربية المتحدة على نطاق واسع ، وتعنى به الدول الاشتراكية اشد العناية . وهناك ملاحظة خاصة ، هي أن مسرحنا اخف من المسرح المصري لانه يعتمد على عرائس القفاز وليس على عرائس الخيطان ، لسهولة حركة الاولى فضلا عن قلة نفقات التجهيزات واكلاف السفر ، اذا قارناه بتجهيزات المسرح العادي وممثليه . كما ان التدريب على مسرح العرائس أسهل نسبيا من جميع انواع التسلية — التثقيف الاخرى ، مما يجعل تعميمه في الريف امرا واردا. وذلك بتدريب المعلمين الريفيين على بعض المسرحيات .

فاذا اضفنا الى ذلك كله ان مسرح العرائس ارخص مسرح فني في العالم تبين لنا شدة حاجتنا اليه . ويعود رخص أكلافه الى ان اية مسرحية من مسرحيات العرائس لا تستهلك استهلاكا كاملا ، بالمعنى الذي تستهلك فيه بقية السلع المعروضة على المتفرجين ، فالمسرحية تبقى محفوظة في المستودع وجاهزة للعرض ما دامت الدمى موجودة بملابسها وديكوراتها . وهذا لا يتيح فقط امكانية عرضها في محافظات اخرى ، وانما يمكن عرضها هي ذاتها على المسرح ذاته بعد خمس سنوات من عرضها الاول ، باعتبار ان الاطفال يكبرون ويأتي بدلا منهم «جمهور» جديد . كما ان بامكان أي لاعب ان يؤدي أي دور بشيء بسيط من التدريب والتلقين .

هذا هو مسرح العرائس في دمشق ، وهذه هي ازمته ، وهذه هي

امكانياته . اما كيف يمكن تطوير المسرح وحل ازمته واستغلال امكانياته ، فالطريق الى ذلك واضح من خلال عرض المشكلة . ان النقص في الفنيين يمكن ان يعالج بانتقاء عناصر موهوبة فنيا وايفادها للتخصص والاطلاع . ويمكن ان يرصد المبلغ اللازم لذلك بالتعاون مع وزارة التربية ومع هيئة الاذاعة والتلفزيون .

والحقيقة ان الاموال التي تنفقها الهيئة على برامج الاطفال في الاذاعة والتلفزيون بحاجة الى اعادة نظر من حيث التوزيع : فالتلفزيون يقدم يوميا نصف ساعة « كرتون » من اعداد محلي واجنبي . لكن مسرحيات العرائس التي يقدمها التلفزيون تتصف اجمالا بالركاكة ، على الرغم من ان مقدميها افراد يعملون في مسرح العرائس . ويكاد ضعف البرنامج ان يكون شاملا من حيث الموضوع والاخراج وتناسق الدمى - يتساوى الفيل والارنب في الحجم احيانا - وفي مستوى تحريك اللعبة بحسب الحوار . ولا ريب في ان سبب ذلك السرعة في الانتاج وسوء اعداد اللاعبين . فبينما يخفي المسرح عيوب اصواتهم خلال جوه والالوان والاضواء ، يبرز التلفزيون هذه العيوب ابرازا فاضحا . ويمكن للتلفزيون - الفني نسبيا - ان يساهم في تطوير مسرح العرائس بأن يستخدم على نفقته خبيرا او خبيرين في هذا الفن يقومان باعداد لاعبي وزارة الثقافة لمصلحة التلفزيون . كما ان على التلفزيون ان يفيد من مسرحيات العرائس في وزارة الثقافة . والخلاصة ان التنسيق الذي تم بين الثقافة والتربية فكان من عوامل انجاح المسرح ، يجب ان يكرر بصورة أشد بين الثقافة والتلفزيون .

نبقى اخيرا مشكلة النصوص وكتابها ، وهنا ، كالعادة ، تفتعل ازمة لا محل لها في الظروف الحرجة لمسرح العرائس : فبالرغم من اننا امة تفتقر الى ادب الاطفال والتخصص فيه وانشاء تقاليد له ، فان وزارة الثقافة تدفع لكاتب نصوص الاطفال اقل مما تدفعه لاسعار المسرح العادي ، اما هيئة التلفزيون فتدفع نصف سعر المسرحية العادية . بالطبع ، ان من يقومون بهذا الاجراء يحتجون له بصغر حجم العمل الفني بالمقارنة مع المسرحيات الكبيرة ، وقلة الوقت و .. الخ غير اننا اذا حكمنا أبسط قوانين العرض والطلب في موضوع مسرح لا يجد نصوصه، نجد ان من مصلحة الوزارة والتلفزيون رفع التسعيرة ، الى اعلى حد ممكن بحيث يمكن اجتذاب الكتاب والحصول منهم على النصوص الجيدة المطلوبة . فمن نافل القول ان نعيد بأن كل عمل المسرح يعتمد على النص المشوق الجيد التوجيه ، وبأن من يضع النص من حيث الاهمية في كفة والمسرح كله في كفة اخرى لا يخطىء الحساب كثيرا . ان سليم المحاسبين تقييم الاعمال الفنية اهمال من كل مسؤول لواجباته في تحكيم ثقافته ومعرفته بالحاجة الملحة في المسرح الى نصوص . ان الكتابة والفكر في هذا البلد بحاجة الى اعادة تقييم شامل من وجهة نظر حاجة المجتمع والمؤسسات الثقافية الى من يتابعون تغذيتها بابداعهم وفنهم . اما هذه النظرة المحاسبية فلا تؤدي الا الى انصراف الكتاب عن الانتاج وبالتالي تجميد المسرح وتتفيهه واقتصاره على النصوص المترجمة - ان وجد من يجيد الانتقاء .

ان ازمة الكتاب لا تقتصر على المسرح عامة او مسرح العرائس خاصة ، بل تنسحب بحدة على مجلة « اسامة » التي انهت عامها الاول بنجاح ليس له مثيل فعلا . فهي تطبع خمسين الف نسخة دون مرتجعات ! وتستلم يوميا اكثر من خمسين رسالة من قرائها الصغار ، مع العلم بأن كل نسخة مباعة تقرأ من اكثر من أربعة اطفال ، ولو تمكنت وزارة الثقافة من شراء مطبعة ملونة خاصة بها لتضاعف المبيع دون اية مبالغة . ومع ذلك فالمجلة تعاني فقرا حادا في ادب الاطفال بسبب عدم وجود هذا النوع من الادب قبل صدورها ، ولان عدد الكتاب في سوريا قليل اجمالا بالنسبة الى المؤسسات الثقافية الكثيرة التي تتناهبهم ، ولو انها لا تعاملهم المعاملة التي يريدونها . المهم ان البيئة الثقافية لا تمتلك تقاليد ولا اهتمامات بأدب الاطفال . وكل فكرة لنا عن الموضوع هي من احتكاك الكتاب بالسابقات المصرية ، وان كانت مصر بالذات تعاني من هبوط في مستواها الذي كانت عليه قبل عشر سنين او اكثر .

لكن الغريب في الامر ان جدة هذا الميدان لم يغر الادباء على اقتحامه. فما عدا القصاص زكريا تامر الذي أعطى في هذا الحقل انتاجا متفوقا، نكاد لانجد اسما ثانيا يثابر على المشي في هذا الطريق الجديد . غير ان المجلة اذا لم تستطع ان نجعل من الادباء كتاب أطفال فقد نجحت في تقديم رسامين مشهورين تقديما جديدا ، بحيث ان رسوم نذير نبعة او نعيم اسماعيل او ممتاز بحرة هي رسوم متخصصة بالاطفال على ارفع مستوى - فضلا عن ان المجلة كشفت موهبتين لا سابقة لهما في هذا الحقل ، وهما الفنانان غسان السباعي وطه الخالدي . بل ان تأثير المجلة في القطاع الثقافي بأكمله يفوق مايعترف به العاملون في هذا القطاع ، فهي - كما لاحظ رئيس تحريرها الكاتب المسرحي سعد الله ونوس - قد اضطرت الكتاب لمراجعة عاداتهم الفكرية والتعبيرية ، وكانت حافزا لان تكشف أهمية قطاع الطفولة في تكوين مجتمعنا . ذلك ان مئات الرسائل ترد اثر صدور كل عدد تستعرض بدقة متناهية كل هفوة لغوية أو فنية مع استفسارات من الذكاء بحيث تكشف مدى دقة الطفل المتلقي وحساسيته . بله انها تكشف لنا الى أي حد نجرم في حق اطفالنا حين نعرضهم للتأثيرات الضارة من الاذاعة والتلفزيون والصحافة . ان هذه النواقص المتعددة يجب ان تكون وسيلتنا لنعيد تشكيلنا الفكري ومسؤوليتنا تجاههم . لقد نجحت المجلة في خلق خط فكري متبلور يمكن تلخيصه بانه يهدف الى خلق جيل عربي تقدمي ذي نظرة علمية ومعرفة بالتاريخ دون تهويل . كما انها تحاول ان تخلق عند الطفل عادة المحاكمة النقدية من خلال ربط وعيه ببيئته وظروفها ومشكلاتها الاجتماعية والسياسية والتاريخية. ان هذه الخطوط الصعبة العريضة تضغط على العاملين فيها وتجعلهم يستشعرون بالتقصير حين يقارنون بين ما يمكنهم تحقيقه وبين مايصبون اليه .

ان مشكلة الطفل في سوريا هي انه محاط باطار متخلع سواء أفي البيت أم في المدرسة ، ففي شعب متخلف تسوده السلطة الابوية الجاهلة ، غالبا مانكون المدرسة ليست أفضل من البيت ، لانخفاض سوية المعلمين الابتدائيين وضعف تأهيلهم : فمعظمهم من حملة الشهادات الاعدادية أو الثانوية او حتى من خريجي معاهد اعداد المعلمين من الذين يتطلعون الى استثمار مبكر لمعارفهم البسيطة .

المطلوب من المجلة ان تساعد الطفل على تجاوز كل هذا بتنمية ملكات الفهم والحكم والنقد لديه ، تمهيدا لدفعه الى الثورة على آثار تربية متخلفة وتعليم قاصر يعتمد الكمية ويكاد ان يهمل النوعية . وانها لرسالة ينوء بعبئها جهاز المجلة - يقتصر على محررين فقط ! - كما يترنح تجاهها اخلاص الكتاب الذين يتعلمون كيف يكتبون للاطفال دون ان يصلوا حتى الان الى مرحلة انشاء حوار بينهم وبين الاطفال . انناقي كتاباتنا لهم مانزال كبارا يتحدثون الى كبار بشكل مبسط . ولردم هذه الهوة يجب ان تتسع مشاركة الكتاب وتزيد شيئا فشيئا حتى ينشأ الكاتب المتخصص للمجلة والكاتب المتخصص للمسرح .

دمشق **محيي الدين صبحي**

فلسطين

كتب الشاعر محمود درويش في مجلة « الجديد » التي تصدر باللغة العربية في حيفا يتحدث عن محاولات اللقاء التي تجري بين الادباء العرب والادباء العبريين في الارض المحتلة ، وكان مما قاله :

لقد شعرت « منظمة الكتاب العبريين » ، لعدة اسباب ، انها ماضية في ممارسة أثم ادبي . الرأي العام في الخارج يتساءل عن وضع المواطنين العرب في اسرائيل وعن وضع ادبائه . انهم يتجولون - بحرية - بين الاعتقال والاعتقال المنزلي واوامر الاقامة الجبرية! ويصرخون ويحتجون ، ومنظمة الكتاب الرسمية في البلاد لاتعرف او لا تريد ان تعرف شيئا . وقبل مدة ، بادر عدد من الكتاب العبريين

الاقامة الجبرية لمحمود درويش

* * *

نشرت الصحف العربية في اسرائيل ان الشاعر محمود درويش تلقى امـرا جديدا مـن قائد المنطقة الشمالية في اسرائيل الجنرال مردخاي غـور يفرض عليه الاقامة الجبرية في حيفـا نهارا والاعتقال المنزلي ليلا واثبات الوجود فـي مركز الشرطة في الساعة الرابعة من بعد ظهر كل يوم ، ويخوّل الشرطة حق « زيارته » في اية ساعة تشاء من ساعات الليل !

ومدة هذا الامر ستة شهور ونصف تبدأ من اول اذار ١٩٧٠ . والجدير بالذكر ان امـر الاعتقال المنزلي السابق ضد محمود درويش والذي كانت مدتـه تسعة أشهر قد انتهى في أول آذار الماضي ...

الانسانيين الى اجراء حوار في حيفا ، مع الادباء العرب المضطهدين. وكانت للحوار أصداء واسعة قد يكون احدها مبادرة منظمة الكتاب العبريين الى الاجتماع بالكتاب العرب حول مائدة مستديرة حافلـة بالشراب والسندويتشات في « بيت الاديب » في تل ابيب .

من المكاسب التي احرزتها مبادرة منظمة الكتاب هو انها استطاعت ان تصدر لنا تصاريح سفر الى تل ابيب . وكان ذلك فرصة لتندر احد الكتاب الساخرين فكتب ان الحكم العسكري قد الغي ليوم واحد. وجاء الكتاب العرب الى تل ابيب التي تبدو لهم كما تبدو باريـس للاسرائيليين . ولعل قدرة منظمة الكتاب على اتاحة هذه الفرصـة النادرة لنا من بين الاسباب التي دفعتها الى اتخاذ قرار بكتابة رسالة احتجاج الى رئيسة الحكومة تحتج فيها على اوامر الاقامة الجبريـة المفروضة على الكتاب العرب .

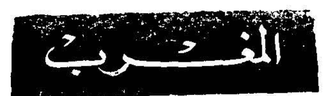
كان ذلك هو النتيجة العملية الوحيدة التي اسفر عنها حـوار شديد القسوة والصراحة استغرق خمس ساعات اتفقنا بعدها علـى الا نتحدث عن امكانيـة الاتفاق ، والا نحلم به مـا دامت امامنـا صفوف طويلة من الخلافات الفكرية والايديولوجية العميقة .

لمـاذا ؟

ان نوعية الجانب اليهودي من الاجتماع ، في غالبيتها ، صهيونية بلا مواربة . وتؤمن حتى النخاع بحتمية السيادة اليهودية المطلقـة على فلسطين . وبعد ذلك ، لامانع لديها في ان يتمتع السكان العرب في اسرائيل بالمساواة في الحقوق . وهي ترى ان المسؤولية عـن استمرار الصراع العربي الاسرائيلي الدامـي لا تقع علـى السياسـة الاسرائيلية ـ الصهيونية المتنكرة لحقوق الشعب العربي الفلسطيني والمتطلعة الى التوسع الاقليمي . المسؤولية كلها تقع على تنكر العـرب لحقوق الشعب اليهودي وعلى رفضهم الاعتراف بالسيادة اليهودية المطلقة على فلسطين . والكثيرون من هؤلاء الادباء يريدون اختبـار واقعية الاديب العربي بالتسليم للامر الواقع والكف عن التمسـك بحقوق شعبه الفلسطيني وبتنديده المتلاحق بكل يد ترتفع على اسرائيل وبعمليات المقاومة في المناطق المحتلة وبالاعتزاز باسرائيليته .

وكانت نوعيـة الكتاب العرب ، في غالبيتها ، تقدمية تؤمن بامكانية التعايش بين الشعبين اذا انطلق الجانبان من الاعتراف بحقوق بعضهما البعض ، ومن ان التمسك بسيادة قومية واحدة مطلقة على فلسطين ستبقى العلاقات العربية ـ الاسرائيلية في دائرة الدم . وان الارهاب العربي الذي تتحدثون عنه لا يجب ان يشغلنا بالظاهرة عن السبب . ان استمرار الاحتلال والتنكر لحقوق مليون انسان هو الذي يخلق المقاومة.

لقد كان هذا الاجتماع الاول بين ممثلي منظمة الكتاب العبريين وبين مجموعة من الكتاب العرب بمثابة مواجهة فكرية شديدة الصراحة والعنف ساعدت الجانبين على الاعتقاد بجدواها لان الاديب العبري ادرك حقيقة قضية الاديب العربي ، وان هذه القضية في جوهرها ، ليست المطالبة بتصريح سفر الى تل أبيب وبحرية شخصية . انهـا قضية شعـب . »



بوادر نشاط ثقافي

* * *

مناظرة اتحاد كتاب المغرب عن « الفكر في القرن العشرين » ، وزيارة الشاعر الكبير عبد الوهاب البياتي ، وصدور مجلة « ٢٠٠٠ »: تلك كانت أهم الاحداث التي حركت الحياة الثقافية في المغرب خـلال الاشهر الثلاثة الاولى من سنة ١٩٧٠ .

لقد تعود اتحاد الكتاب من قبل ، ان ينظم محاضرات ، وان يقيم أمسيات شعر ، لكنها كانت تدخل في نشاطاته العادية ، التي تقول فقط للذين ينسون : « ان هنا اتحاد كتاب » . لكن مناظرة الفكـر في القرن العشرين التي استمرت من اخر يناير حتى النصف الاخيـر من مارس ، كانت شيئا آخر ، الى حد ان « دار الفكر » مركز الاتحـاد التي كانت تشكو الفراغ دائما . قد اصبحت هذه المرة تضيق بالعـدد الكبير من المثقفين . ذلك ان المناظرة اعدت جيدا ، واستهدفت طـرح كثير من القضايا الحساسة للنقاش ، بمشاركة كوادر حزبية ، وأساتذة الجامعة ، ومثقفين واضحي الرؤية .

وقد كانت المناظرة تتعلق بنوع من المسح لكل التيارات المعاصرة في الادب والفلسفة والاقتصاد .. والايديولوجيات . وهكذا شهـد المغرب عشر جلسات وخمسة عشر متحدثا وجمهورا كبيرا ضاقـت بدرجات كلية الاداب ، وكلية العلوم ، ودار الفكر ، وايضا مناقشات خصبة . وخلال هذه الجلسات كانت الموضوعات المطروحة متنوعـة، فهي الايديولوجية العربية (علال الفاسي ـ عبد الله ابراهيم) الـى الاسلام والتيارات الايديولوجية (دكتور المهدي بن عبود ـ محمـد الراضي) الى (القومية والاممية) و (الماركسية والرجعية) الخ .

ثم وصل الشاعر العربي عبدالوهاب البياتي الى المغـرب بدعـوة من اتحاد الكتاب المغاربة . وبينما كانت فروع الاتحاد في طنجـة ومراكش وفاس والدار البيضاء تسمع فقط خبر المناظرة صامتة ، اذا هي الان تتحرك وتجري اتصالات حتى لايقع « احتكار » الشاعر البياتي لمدينة الرباط وحدها . وفعلا فقد تحرك الاستاذ البياتي يمينا الـى فاس ومكناس وطنجة ، ثم يسارا الى الدار البيضاء ومراكش . وشهدت هذه المدن مايمكن تسميته بالمهرجان ، اذ ان حضور البياتي كان يبدو لهم أحيانا تحديا كبيرا ، فالسلطات المحلية في بعض الجهات كانـت تنظر بغير قليل من الاستياء الى هذه المظاهرات الفكرية ، بل ان سلطات مدينة مراكش وضعت كثيرا من العراقيل ضد اجتماع البياتي بمثقفي المدينة ، لكن النتيجة كانت افضل ، لان الاجتماع تم ، واعطته صفـة « السرية » هالة خاصة .

ومـع هذين الحدثيـن جاءت مجلة ٢٠٠٠ (الفين) ، تستقطب العدد الكبير من الكتاب الشباب الذين ضاقوا بوصاية الفكر الرجعية، وهي مجلة أحدث مجرد خبر صدورها ، وكذا بيانها العام الذي وزع في كل أنحاء المغرب ، ردود فعل مختلفة ، مقنعة أحيانا وسافرة احيانا اخرى . وقد أوضحت المجلة في عددها الاول خطها العام ، فهي تأتي «لترفض التزييف الذي ملأ حياتنا ، ولترفض الفكر الرجعي وأوصياءه»

وهي تأتي « من أجل ايجاد أرضية صميمة » وهي تأتي لتؤكد ان« الارض التي يقف فوقها الانسان البسيط متحررة ومستقبلية وذات أفــق متسع فاهم مفتوح لكل الابداعات الانسانية » ، ثم انها اخيرا اذ تقــرد الوقوف من التراث ككل موقفا نقديا تقرر « ان المبدع يتخطى التــراث ولا يفرط فيــه » .

وبذلك يطل عام ١٩٧٠ علىالمغرب ، ليشهد انعطافا جديا فــي حياته الثقافية والفكرية ، بعيداً عن « الانغلاق » و « الجمود » اللذين طبعا كل ماضيه .

(م)

من اسرة مجلة ٢٠٠٠ (الفين)

اذاعت اسرة مجلة ٢٠٠٠ البيان التالي :

نحس اليوم ، اكثر من كل الايام الاخرى القديمة ، اننا غربــاء. تأتي مجلة (٢٠٠٠)من اجل ان يلتقي كل الغرباء في بيت واحد يضعون له ديكوره بانفسهم يختارون له لونه بانفسهم . لا احــد يفرض عليهــم من الخارج ذوقه .

لكن هذه الغربة لاتعني الانفصال بقدر ما تعني الرفض . ان غربتنا ايجابية . انها ترفض :

ـ التزييف الذي ملأ حياتنا كناس يعيشون في المغرب ، يعيشون في الوطن العربي ، يعيشون في الدنيا الثالثــة ، كناس يعيشــون فــي العالــم .

انها ترفض : المجاملات المتبادلة ، التي تصنع كل هذا الوجود المزيف المتحكــم .

ـ الثقافة الرجعية ، والفكر الرجعي المنغلق وتكتلاتهما ،والحاكمين باسمهما ، الذين يحاولون ان يصبغوا كل حياتنا بلون واحد ، هو لون جامد تقليدي متخلف وضد الحياة .

ولان عالمنا اليوم ، هنا ، هو واقع عمليا تحت سيطرة الفكــر الرجعي ، والزيف والتسلط ، فان كثيرا منا يحس الغربة ، يحس أن اخرين يخنقون صوته . لذلك نعلن عن اعتزامنــا اصدار مجلة(الفين) ليس كشكلنهائي من اشكال الرفض، بل كمنطلق وكبدايــة لبحث جادعن شكل عملي للرفض .

ولان غربتنا ايجابية ، فهي لاتكتفي بالرفض السلبي العدمي ، انها تعلن ميلاد جيل اخر بمفهوم مغاير للحياة ، وللثقافة وللفكر . تعلن ميلاد (اطفال) اكبر من ان يظلوا تحت وصاية الفكر الرجعي . وتعلن هذه (الغربة) انها تعرف طريقها بدءاً ، فهي تريد ايجاد ارضيــة صميمة . هي تؤمن ان اعماق هذا الانسان هنا ، متحررة في اصالتها متحررة في ايمانها ، ولذلك هي تبحث داخل صدق الانسان المغربــي وصفائه وأصالته ، بعيدا عن كل وصاية .

وتعلن هذه الغربة اخيرا . ان الارض التي يقف فوقها الانسان البسيط متحررة ومستقبلية وذات افق متسع فاهم مفتوح لكلالابداعات الانسانية .

وليس ضروريا ان تكون مجلة (٢٠٠٠) معبرة عن وجهة نظــر معينة ، عن تيار ، لكن اسرتها تتجمع اساسا من خلال نقط ارتكــاز جوهريــة هي رفض الزيف ، والبحث عن الاصالة وعن الصدق والتفاعل مع كل التجارب الانسانية التقدمية الخلاقة .

عن اسرة المجلة **السحيمي الخوري بوخزار**

العراق

نهضة في المسرح العراقي

بقلم الدكتور علي جواد الطاهر

(١)

سار المسرح العراقي بطيئا بطيئا ، وهو اذ يسير لايدل على شيء ذي بال . وقد يكون عنصر التهريج هو المطلوب الاول لدى المؤلف والممثل والمشاهد ، دون ان تعدم لمحات من الجد بين الحين والحين .

ويكــون حقي الشبلــي ظاهرة في التاريخ ... لها ايجابهــا ولها سلبهــا .

واستمرت المحاولات التي لم تخرج يوما عن دائرة المحاولات ... ولكن لابد للمسرح من ان يتطور لان البلد يتطور ويتقدم ويكثر فيــه المثقفونويزداد اتصالهمباشرة وغير مباشرة بالحضارة المسرحية العالمية.

وتولد فرق تتبعها فرق . واستطاعت فرقة المسرح الفني الحديث ان تكــون مرحلة حاسمة ، فيكون لها اعضاء ناضجون مخلصون مجيدون، ويكون لها جمهور يتذوقها ويتذوق المسرح خلالها ـ وليس هذا بالامــر الهين .

ودخلت الميدان فرق أخرى ...

(٢)

ويتحدث الناس باعجاب عن مسرحية « المفتاح » ليوسف العانــي و « تموز يقرع الناقوس » لعادل كاظم ... ويتحدثون عن اشيــاء أخرى ... وعن « البيت الجديد » .

ويتصل النتاج ، ويتمنى المرء لو اتسعت له الفرصة ليرى كــل ماعرض خلال العامين المنصرمين ـ في الاقل ـ فلابد من ان يكون بين ذلك الكثير مما يستحق الذكر ويستثير الاعجاب .

(٣)

وتهيأ لي ان اشهد ـ فيما شهدت ـ فرقة المسرح الفني الحديــث وهي تقدم ثلاث مسرحيات ذات فصل واحد احداها غربية صرف هــي « قصة الرجل الذي صار كلبا » وثانيتها ايطالية عن بيراندلو بمهارة نادرة وسميت « البستوكة » ، وثالثتها عراقية عراقيــة : « ســت دراهــم » .

واذا كان الفرح بالنجاح كبيرا ، كان باقبال الجمهور عليها اكبر .

(٤)

ثم شهدت للفرقة نفسها « النخلة والجيران » قصة غائب طعمــة فرمان (مسرحها وأخرجها قاسم محمد) وقد نالت من الاقبال مافــاق المنتظر . وأكبر الظن ان الفرقة نفسها ـ وهي تعرف جيدا رصيدهــا لدى الجمهور ـ لم تقدر ذاك حق قدره ، فانها اذ أعلنت عنها خصصت لها خمسة عشر يوما (منذ ١٥\١١\٦٩) ، ولكنها لم تلبث أن مددت ومددت فبلغت الشهر وزادت يومــا عليه ـ وليس هذا بالامر الهين في التاريــخ .

ولو انها استمرت شهرين او اكثر لما تناقص جمهورها ولما خــلا كرسي في قاعتها او مكان كرسي في ممراتها . ولو انها تنقلت فــي المحافظات لرأت من النجاح عجبا .

قد نقول ان مجموع مسيرة « النخلة والجيران » لا يؤلف مسرحية متماسكة الفصول والمشاهد . وليكن ، ولكنك لاتستطيع ان تقول انهــا لم تنجح وان المشاهدين برموا بأمر والممثلين قصروا في أداء ...

واذا كانت المرأة العراقية قد خطت خطوات تذكر في التمثيل وانها مع ذلك بقيت احدى المشكلات الآنية في هذا الفن ، فانها في فرقــة المسرح الفني الحديث ليست مشكلة ، وان خطواتها واسعة .. وعجيبة أحيانا . ولو كتب لك ان ترى زينب والرماح والزبدي وسليمة خضير ... في« النخلة والجيران » لاستكثرت على نفسك ان تكون فــي العراق ، ولاستغربت ان تستطيع الممثلة العراقية ان تؤدي مثل هذه الادوار الصعبة اجتماعيا وعلى هذا المستوى من الدقة والجرأة ..

(٥)

ان فرقة المسرح الفني الحديث ـ او فرقة يوسف العاني كمــا يعرفها الناس ـ مرحلة حاسمة في تاريخ هذا الفن في كثير مــن الوجوه . وان يوسف العاني حدث مهم في بابه ، وقد يكون اهــم

ما فيه انصرافه الكلي وانسجامه التام مع مرونة وتواضع وسعة افق وتضحية ... وقدرة على التطور — وذكاء ودهاء — من يدري !

وتستعد فرقة المسرح الفني الحديث لاعمال جديدة ... كما تستعد الفرق الاخرى ...

(٦)

ثم شهدت ((قصر الشيخ)) من تأليف صباح الزيدي واخراج وجيه عبد الغني . وقد دلت المسرحية على تمكن المؤلف العراقي من ان يكون فنانا يطرق موضوعات اجتماعية اوسياسية ويهدف الى اصلاح او ثورة من دون وعظ او خطابة ومن دون تدخل غشيم .. كأن الامور جرت في الحياة كما تجري على المسرح ... والممثلون كأنهم الشيخ والسركال والفلاحون والكهوجي ... هم هم ظالمهم ومظلومهم ..

ولو نزه المؤلف لغة الحوار من عدد من الالفاظ البغدادية او الصحفية مما لم يكن من بيئة شخوصه في ((العمارة)) لحقق درجة اخرى من النجاح .

وقد تقول ان المسرحية ليست عميقة . وليكن ، ولكنها ادت المطلوب منها ، وليست الفلسفة شرطا في المسرح .

(٧)

واذا شئت ((الفلسفة)) دون ان تكون هذه الفلسفة معماة او ميتافيزيقية ، وشئتها من الحياة والواقع والواقعية دون جفاف ودون افتعال رأيتها عند نور الدين فارس الذي الف — أحدث ماألف — ((الغريب)) ومثلتها فرقة مسرح اليوم في ١٩٧٠/٣/٢ باخراج جعفر علي فكانت خطوة في التأليف المسرحي اذ بقيت محافظة على فنيتها ، وانها اذ ارتفعت عن الخطابة والرياضيات لم تقع في الغموض والابهام ولم تجر الفكرة فيها على الحركة والعاطفة .

وذهب المشاهدون في تفسير ((الغريب)) مذاهب متعددة حتى قال قائل : ليست الغربة في ((شدهان)) — بطل المسرحية — ولا في نفسه ولا في فكره ، انه رجل ثابت مقيم ، أليف طبيعي ، انساني ، ومثله — ومنه — صانع صاحب الفندق وصانع صاحب الفرن والالوف والملايين من الضائعين بسبب طهرهم .

ان الغربة خارج دائرة شدهان وخارج نطاقه ، انها في الاخرين ، في سارق قوت الاخرين ومستغل عرق العاملين ، انها في الظروف الخطأ وفي القوانين التي تحمي الظلم وتتستر عليه .

واذا ، فان التغيير يجب أن يقع على الخارج ، على الشيء الغريب الشاذ ،وان شدهان — وأمثالشدهان — هم الذين يبينون زيف الشذوذ، ويقوضون دعائمه حينا بالصبر ، وطورا بالتعاون ، وتارة بالتضحية — وبالنقاء في كل الاحوال .

وفسر آخر الغربة تفسيرا .. والمخرج تفسيرا .. وشدهان تفسيرا ... وللمؤلف نفسه تفسيره : ((ان شدهان دلالة مكثفة ،وتعبير مركز لظاهرة الغربة التي هي بمثابة النتيجة الطبيعية والحتمية للعلاقات السائدة في مجتمع الاستغلال والتباين .. الغربة هي الانفصام عن المجتمع بسبب العلاقات الباطلة التي تسود ذلك المجتمع .. الا انها ليست قدرا أزليا لايمكن الخلاص منه ...))

والاختلاف الجزئي في التفسير من طبيعة الاعمال ((الفلسفية)) ، وهو دليل على مايثيره المؤلف في نفوس المشاهدين من تفكير ونقاش ، وقد يكتشفون مالم يتنبه اليه المؤلف نفسه ... ولكنهم لايختلفون في الكلي ، وفي الدرس الذي تلقيه المسرحية في بيان الحق وفضح الزيف وفي الدعوة الى الثورة الى صف شدهان وجماعة شدهان من ابناء الشعب .

لايمكن ان يختلف المشاهدون في اكبار شدهان — هذا الغريب ان شئت — واكبار طيبته ووفائه ونفسيته ، واكبار أمثاله من العامة الذين يانفون الكسب الحرام ويابون الخضوع للمآرب الرخيصة فيؤلفون بذلك احتجاجا صارخا على الباطل وثورة على الاستغلال .

ان غربة ((شدهان)) ايجابية ، وهي أسس سليم يرتفع عليه البناء ، وهي حجة دامغة على من يحسبون انفسهم ((أشرافا)) بيدهم الامر والنهي ولهم البلاد يصولون ويجولون وبيدهم المقاليد يحللون ويحرمون .

وقد يختلف المشاهدون مع المؤلف في هذه الصغيرة او تلك ويلاحظون عليه هذا الامر الجانبي أو ذاك ، ولكنهم لايستطيعون ان يبعدوا في ملاحظاتهم ، ولا يمكن أن يختلفوا في سمو الهدف وسلامة ((الكل)) ولا في ان ((الغريب)) مثل عال للنجاح الفني في مذهب الواقعية الاشتراكية في الادب العربي .

(٨)

كتبت ((الغريب)) وأكثر المسرحيات الاخرى بالعامية العراقية ولا شك في أن هذا يقوي من وقعها لدى مشاهديها العراقيين ، وأن من هذه المسرحيات — مثل قصر الشيخ — ماتكون العامية فيه جزءا لايتجزأ من التأليف والتمثيل والاخراج . ولكن لايستحيل ان تعرض هذه المسرحيات لغير العراقيين اذا ما زود المشاهدون بمفاتيح الاحداث — اما يحدث انك تتابع مسرحية في لغة لاتفهمها ولا تعرف منها شيئا ؟

ومن المسرحيات مايمكن ان تنقل الى الفصحى لانها لاتتقيد بالطابع المحلي ولانها مسرحية — فكرة ، وربما كان في مقدمة تلك المسرحيات ((الغريب)) ، حتى قال قائل انها يمكن ان تنقل الى لغة اجنبية دونأن تفقد من قوتها ومن مشاهديها .

(٩)

ويسهم التلفزيون العراقي في نشر الوعي المسرحي بتصويره هذه المسرحيات وتقديمها للناس فيهيء رؤيتها لمن لم يستطع رؤيتها ، ويهيء الرؤية الثانية لمن بقي في نفسه شوق ولم تسمح له ظروفه.

وقد تشهد المسرحية على شاشة التلفزيون أكثر من مرة ومرتين فما يتضاءل اهتمامك ولا تفتر رغبتك ... فتدرك — بدليل جديد — ان الفن المسرحي في العراق قد حقق تقدما ملحوظا وانه ليبذ احيانا هذه المسرحيات المستوردة من اقطار اخرى . وقد يرتفع بك اقتراح الى المسؤولين بان يصدروا جياد المسرحيات المتلفزة على سبيل التبادل او الاهداء بعد تزويدها بمفاتيح التفهيم .

(١٠)

ان جيل البناء المسرحي في العراق جاد في عمله طامح الى كثير من الاشياء وهو لايكتفي بمعهد الفنون الجميلة واكاديمية الفنون ، ولا يكتفي بالعدد الطيب الذي حصل على ثقافته الوطيدة في الغرب والشرق وانما يجد للزيادة كمية وكيفية ، نظريا وعمليا ...

وهو يسعى الان — ضمن منهج ما يمكن تحقيقه — الى اصدار مجلة فصلية تعكس نشاطه وتنقد آثاره وتنهض بالواجب وتعرب عن الرسالة.

(١١)

هذا ، وما زالت الفرق تستعد لتقديم تمثيلات جديدة ، اثر تمثيليات جديدة منها الموضوع ومنها المترجم ، ومنها العراقي ومنها العربي ومنها الغربي .. ومنها المعرق — ولا ادري لم غفلنا عن تعريق مسرحية فرنسية مثل ((كنوك)) .

الامل كبير في ان يتقدم المسرح العراقي أكثر واكثر — انه الان شيء يحسب له الحساب ويجدر بان يدخل الحديث عنه ضمن الحديث عن المسرح العربي في كل مكان : القاهرة ، تونس ... الخ

(١٢)

وبعد

فهذه كلمة عابرة أملاها خاطر مبتهج بما يرى مغتبط بما يسمع ، ولعلها تثير كتابنا للتعريف بمسرحنا الناهض تأليفا وتمثيلا واخراجا ... واعدادا ونقدا ... فنا وتاريخا ... ماله وما عليه .. وكل شيء.

بغداد

علي جواد الطاهر

ج . ع . م .

من مراسل « الآداب » سامي خشبه

رودينسون في القاهرة ، أو :

تبادل المنافع بين الثنائيين !!

***

هذا هو الزائر الفيلسوف او المفكر الثاني الذي يزور القاهرة في غضون شهر واحد او شهرين بدعوة من مجلة « الطليعة القاهرية » تحت شعار اقامة الحوار المفتوح مع ممثلي اتجاهات فكرية مختلفة ومتنوعة والموضوع الاساسي الذي شغل رودينسون في محاضراته في القاهرة هو « الاسلام » : الحضارة الاسلامية ، ودور الاسلام بالذات باعتباره دينا واساسا ايديولوجيا لمؤسسات اجتماعية وسياسية واتجاهات فكرية وفلسفية في تكوين الحضارات والشخصيات القومية للشعوب التي آمنت به .

وفي رسالتنا في شهر فبراير (شباط) الماضي ، وضحنا فهمنا للمحاولة التي بذلها روجيه جارودي ـ الفيلسوف الماركسي . من خلال محاضراته التي القاها في القاهرة ، وقلنا انه كانت لموقفه دلالة ايديولوجية محددة ، أو لنقل هدفا ايديولوجيا :: وهو انه كمفكر يعتمد منهج النقد المادي للتاريخ والمجتمع يحاول ان يعمد فهمه الخاص للظواهر التاريخية والحضارية والسياسية العامة التي تشارك الآن في تشكيل صورة العالم السياسية والحضارية وفي تغيير الاوضاع التقليدية لتلك الصورة . جارودي يرى ان تحرر الشرق ادى الى تنشيط امم وقوميات جديدة طرحت حلولا فكرية وسياسية لمشكلاتها الحضارية والاجتماعية والسياسية ـ وهي حلول ذات منحى اشتراكي ولكنها لا تؤصل جذورها في الفلسفة الماركسية بمثل ما فعل الروس والصينيون والاحزاب الشيوعية في الغرب حتى الان . وجارودي يسأل: لماذا حدث ذلك ؟ وما مغزاه التاريخي والسياسي والفلسفي ؟ وما الاضافة الفكرية التي تتضمنها هذه الظاهرة ؟ وهي اضافة يرى جارودي ان لا بد للماركسية من احتوائها والاستفادة منها لكي تظل قادرة على ان تدعو نفسها علم تطور المجتمع الانساني الحقيقي والعلمي، واداة تطويره النظرية ايضا .

وجارودي يطالب الماركسية بذلك ـ ويبذل هو محاولة معروفة في هذا السبيل ـ من خلال موقفه الواضح كمفكر ماركسي يعلن انتماءه المحدد الى حزبه (رغم تطورات وضعه في هذا الحزب) ويعلن في الوقت نفسه وجهة نظره في ضرورة انفتاح الفكر الماركسي ـ باسسه الاصيلة نفسها ـ على فلسفات واتجاهات سياسية جذبها التطور الاجتماعي والتاريخي في اوروبا الغربية والعالم مرة اخرى الى مركز التأثير والتفاعل ؟ وهو ان فعل ذلك فهو بفعله دون شك ـ مساهمة منه في اثراء الفكر الذي ينتمي اليه اولا ، ثم قياما منه بواجبه كمفكر ومناضل ثوري ازاء الحركة الثورية في بلاده وفي العالم .

وقد كنت اوشك ان ابدأ هذا الحديث بسؤال عن مغزى الاهتمام بالاسلام وبالحضارة الاسلامية في الغرب ، وبين التيارات الفكرية التقدمية والمستنيرة بالذات . ولكن اذا كان هدف جارودي قد اتضح لنا ، فما هو هدف رودينسون الذي لا ينتمي الى حزب ويرفض ان يصنف ضمن تيار فكري ما ؟ في محاضرته الثانية « الماركسية والعالم الاسلامي » تحدث رودينسون عن نفسه ، وسنناقش هنا حديثه بحثا عن جواب لسؤالنا .

قال رودينسون عن نفسه انه ماركسي .ولكنه حاول ان يوضح كيف انه نوع خاص ومتفرد من الماركسيين . بل لقد اوضح بصراحة انه يمتلك لنفسه ماركسية خاصة لا يشاركه فيها أحد (اي انها ماركسية ملاكي كما نقول عن السيارات الخاصة في مصر) . قال مثلا ـ وهو في هذه النقطة محق من وجهة نظرنا او أننا نتفق معه . ان من الماركسيين من يعتقدون ان الماركسية اشبه بآلة حاسبة نضغط على احد ازرارها بحثا عن الحل الماركسي للاسرة ، فتخرج لنا من الناحية الاخرى الاجابة الصحيحة من وجهة نظر الماركسية . وكنا سنعتقد انه يعني ان الماركسية تقدم منهجا علميا للتفكير عن الباحث العلمي ان يستخدمه كأداة للبحث وليس كمصدر للنتائج ، كوسيلة لطرح الاسئلة وصياغة أجوبتها وليس كمورد دائم لاجابات جاهزة . ولكن رودينسون يعني شيئا آخر تماما . انه يعني انه ليست هناك ماركسية واحدة . كل واحد وله ماركسيته ـ وهو نفسه ـ رودينسون يعتقد ان كل هذه الماركسيات شرعية (ربما كان يقصد « صحيحة ») والمسؤولية على الترجمة ، والا فمن الذي استنزل القانون الالهي بشرعيتها ؟) ولكن رودينسون يقول « .. ولقد اطرح السؤال حول اي الماركسيات هو الصحيح . لانني لا أعتقد ان هناك ماركسية صحيحة » ونكتفي نحن اولا بالتساؤل : فما قول السيد رودينسون في ماركسيته هو ،صحيحة ام مخطئة ؟ . ثم نكتفي ثانيا بمقتطف نأخذه من مقال الاستاذ السيد يس في مجلة « الكاتب » في فبراير ١٩٧٠ القاهرية تعليقا على المحاضرة نفسها : « فقضية مثل قضية انقسام الماركسية من القضايا التي يمكن ان يثور بصددها كثير من التساؤلات النقاش ، لعل اهمها: هل هذا الانقسام يتعلق بالاسس الرئيسية للنظرية الماركسية التي تعد بمثابة الركائز التي تنهض عليها كل التحليلات الجزئية التي تتضمنها ، أم هو ـ مع التسليم بصحة هذه الاسس ـ يتعلق بالاختلافات ـ التي لا بد ان تحدث ـ في تفسير بعض الظواهر او المواقف او الحالات ؟ » .

الى هنا ونختلف مع الاستاذ السيد يس أيضا ، فهو يمعن في « احراجه » للبروفيسور رودينسون حين يمضي فيطالبه بالتعريف « بالمذاهب » الماركسية المتعددة على سبيل الحصر ، والتعريف باوجه الاختلافات بينها » . نختلف مع الاستاذ يس لان محاضرة رودينسون لم تكن تهدف الى معالجة هذا الموضوع اساسا فيما يبدو ، انما كانت تنوي ان تتحدث عن الدور الذي يمكن ان تساهم به الفلسفة الماركسية في دراسة العالم الاسلامي . حقا انه كان على الاستاذ المحاضر ان يحدد فهمه للماركسية ـ كما يراها وكما حدث فعلا ـ ومن الواضح ان المحاضر تطرق الى موضوع آخر عالجه بنزق وخفة شديدة غير جديرة بمفكر وعالم (وهو موضوع انقسام الماركسية ، وشرعية انقساماتها وعدم صحة اي من هذه الانقسامات في الوقت نفسه) كأنما يكتفي بأن يعلن موافقته على ان ينقسم الماركسيون كما يشاءون، وعلى ان يخطئوا .. انه بمنحهم غفرانه لاخطائهم .. يمنحهم فقط حرية الخطأ !.

والاستاذ رودينسون يوافق على ان يمنح صفة الماركسية لمركبات عديدة من الافكار ـ لم يقل لنا مواصفاتها ولا كيفية اكتسابها ذلك الانتماء الفلسفي ، لم يقل لنا مثلا : أن ما يسمى ماركسيا هو ما طبق منهج التفكير المادي الجدلي بنفس العمق والنفاذ والشمول الذي طبق به المادي الجدلي الاول . وانه ليس مهما ان يكون ماركس نفسه قد اورد نصا او خط حرفا في الموضوع محل البحث والدراسة اولم يفكر فيه أصلا ، وانما المهم هو ان يلتزم المفكر او الباحث ـ لكي يكون ماركسيا ـ بحركة الظاهرة التي يدرسها ومركباتها وقوانينها الداخلية الخاصة وارتباطاتها بالظواهر المحيطة بها وعلاقتها بالحركة الاكبر او الظاهرة الاشمل التي تتضمنها .. الخ .وان هذه « المواصفات » ،او هذه الشروط فقط هي ما تمنح للباحث او للمفكر الحق في ان يدعى باحثا علميا ، ماديا جدليا ، حتى ولو لم

يذكر اسم ماركس ، وحتى وان لم يستشهد بنص واحد من كتابات ماركس او انجلز ، او ... اي واحد من تلك السلالة !

ان ما يطلق عليه رودينسون صفة « ماركس » ،هو اي مركب فكري يداخله اي عنصر « ماركسي » . وبصرف النظر عن هذا التجريد البالغ الذي لا يضع اعتبارا لوحدة النظرة الفلسفية التي يعترف بنفسه بانها « شمولية » في حالة « المركب الماركسي » .. (ولا نفهم حقا كيف يكون المركب الفكري شموليا وغير موحد النظرة والاساسي النظري في آن واحد ؟) .. بصرف النظر عن اساسها النظري ، وبصرف النظر عن رؤيتها الى موضوعات اساسية في الفلسفة الماركسية (هكذا فنوشك ان نساق الى مناقشة تقوم على نفس الاساس الذي طرحه رودينسون)، اذ يريد المستشرق وعالم الاجتماع الفرنسي ان يسبغ صفة الماركسية على كل من اقتنع مثلا بفكرة العلاقة الجدلية بين البناء التحتي والبناء الفوقي للمجتمع ،حتى ولو كان يبشر بان اصلاح التعليم ، ووسائل الاعلام يمكن ان يؤديا الى قيام مجتمع اشتراكي . ويصل رودينسون الى ان ... « كل هذه الحركات الايديولوجية (اي المركبات الفكرية) لديها رصيد من الافكار الشمولية تحوي شعارات، وكذلك مواقف وقواعد للسلوك العملي .. الخ وكل ذلك يتحد ، او بالاحرى يقدم كوحدة او كمجموع له وحدة متماسكة » . فاذا عدنا الى التساؤل عن نوع هذه الوحدة التي يمكن ان تقوم بين جزئيات ملفقة (او منتقاة) تكون فيما بينها « مركبا » فكريا ، فوجئنا برودينسون يسحب ظلا من الشك العلمي على كل الذين « يعتقدون اننا لا نستطيع رفع اي جزء صغير منها ، ففي ذلك ضياع الكل ، والكل متحد بالضرورة » . وقد يكون للاستاذ رودينسون الحق في تشككه لو ان نظرته الى هؤلاء الذين يعتقدون ان تماسك النظرة الكلية ووحدة مركباتهم الفكرية كانت نظرة صائبة . اننا نرى المسألة على النحو التالي :

١ ـ رودينسون يرى ان لكل واحد ماركسيته الخاصة .

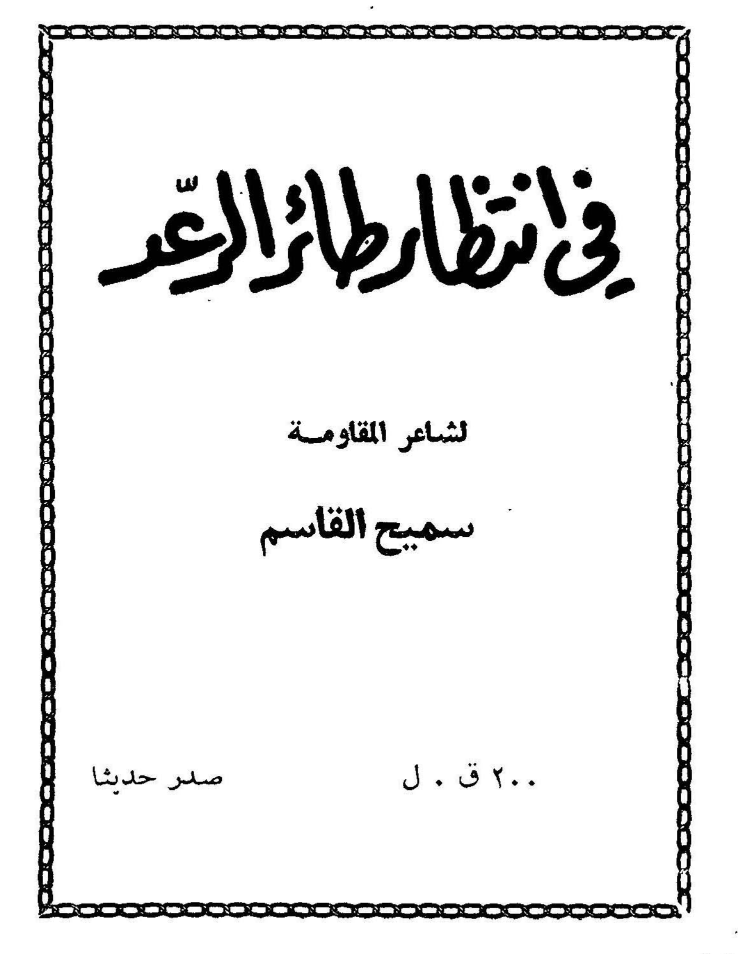
٢ ـ كل من هذه الماركسيات مركب فكري له وحدة متماسكة ويتصف بالشمولية .

٣ ـ ليس من حق هذا المركب الشمولي ان يظل ثابتا ولا ان يرفض رفع اي جزء منه او استبداله .

ونسأل : أين وجد رودينسون هذا النمط الغريب من الماركسيين ؟
ونسأل أيضا : أين يكمن الخطأ الماركسي عن وجهة نظره ؟ في تحليل « الظاهرة الواقعية » من وجهة نظر المادية الجدلية ، أم في الاصرار على تحليل بعينه والثبات عليه مهما طرأ على الظاهرة الواقعية من تغيرات ؟ في الحالة الثانية لن يكون التحليل ماركسيا ، لانه سيرفض النظر الى الواقع ودراسة تغيراته وحقيقته ، والحالة الاولى ليست سوى « شروع » في فهم الواقع والنفاذ بالوعي العلمي الى داخله لاضاءته واقامة امكانية السيطرة على « عملية » تغيره من خلال العمل الانساني وحده .

ورغم كل الخلط الغريب الذي وقع فيه رودينسون حين حاول ان يقدم الينا صورة نظرية ومجردة عن ماركسيته ، فانه حين تحدث عن مشكلة « الايديولوجية » اصبح حقا « ماركسيا تقليديا » وهذا حكم نراه ضده وليس فى صالحه ، فقد كان الاسلم له ان يكون متمسكا بدلا من ان يكون مجرد انتقائي او صاحب منهج مهجن ومخلوط .

فرغم العبارات الاولى ذات المعاني الزئبقية التي لا تكاد تمسك من مثل : « الايديولوجية تبني حول اختيار او اكثر ، اختيارات وجودية »، هذه العبارات التي تتضمن موقفا ينفي موقفه هو المعروف بصفته عالم اجتماع يؤمن بالاساس الاجتماعي للافكار وللمعرفة : يؤمن بقيام البناء الفوقي للمجتمع على اساس من بناء تحتي يفرزه ويعكسه وان لم يتماثل معه او يتطابق،وهي العبارات التي توحي بانه يخرج الايديولوجية عن اطار البناء الفوقي للمجتمع لكي يضعها في منطقة « انعدام » الوزن الاجتماعي » ، منطقة اللاتأثر بالواقع الاجتماعي وبالبناء التحتي السائد في المجتمع ، رغم كل هذا الا انه يصل الى القول بوجود « نواة ثابتة » او « جسم مقدس » وهذا هو التعبير الذي استخدمته ترجمة مجلة « الطليعة » : « هناك نصوص الاساس التي نرجع اليها » ، وهذه النصوص تبقى على حالها في رأيه رغم انه : « تبدأ عملية تطور كاملة تعدل وتفسر وتعيد التفسير وتحيي ايديولوجية المنطلق .. » . هاهنا يعود ردونبسون كما قلت منذ قليل ماركسيا تقليديا : يؤمن بوجود نواة ثابتة من النصوص (وانا أزعم انه ربما كان يقصد القوانين الستة المشهورة للمادية الجدلية)، الامر الذي يوحي بانه لا يرى الفارق بين « الجسم المقدس » في ايديولوجية مثالية ، متعالية عن الواقع ،منزلة، وبين ايديولوجية علمية نبعت بتأثير ومن خلال كشوف علمية رئيسية حاسمة ، وأصرت على ان تربط نفسها بتطور ونمو معرفة الانسان بالكون وبالمجتمع وبنفسه : إصرت على ان تربط نفسها بالعلم ذاته، ونفت من الاصل انفصال الايديولوجية عن المعرفة ، وبالتالي فقد رفضت ان يكون لها « جسم مقدس » او « نصوص اساس » ، واكتفت فقط بان تكون منهج تفكير قابل للتعديل لكي يصبح اكثر دقة وكفاءة كلما تنوعت خبرات الناس ومعارفهم كميا ، وكلما وقع تبدل كيفي في نظرتهم الى الكون او المجتمع بناء على كشف او مجموعة من الكشوف العلمية الرئيسية ،بل اننا نزعم ان رودينسون لم ير الفارق بين ايديولوجية مثالية ذات مشغولية سياسية وبين ايديولوجية مثالية اخرى لا تنشغل بالظاهرة السياسية الا اعتباطا او بصورة عارضة . او غير مباشرة . لم تكف « النواة الثابتة » في ايديولوجية الكنيسة الكاثوليكية مثلا عن التغير تبعا لنمو وتغير وضمور مصالح هذه الكنيسة السياسية وارتباطاتها وثقلها السياسيين . كان البابا هو خليفة الرب في الارض وهو الذي يمنح السلطة للملوك والاباطرة تنازلا منه واستخداما لهم . وكانت هذه صورة واقعية بلغت ذروتها من الحملات الصليبية الكبيرة الاولى . وحينما ابتعدت هذه الصورة عن



الواقع واستقلت الدول ـ او استقل الملوك ـ عن سيطرة السلطة الزمنية للبابا ، خفضت الكنيسة من سلطة رئيسها الروحية نفسها ، ولم يعد بوسع البابا ان يبيع السماء ولا الغفران حينما لم يعد من حقه ان يضع التاج على رأس الملك أو أن يحرمه من النفوذ السياسي .

ليس من الممكن لايديولوجية مثالية ان تتحول الى ايديولوجية مادية . ولكن رودينسون يرى انه من الممكن للمؤمن (وهو يستخدم كلمة « المؤمن » هنا كمعادل لمعنى الفكر الغيبي او المثالية الغيبية) ان يسلم بسيطرة القوانين العلمية على العالم الاجتماعي ، بمثل ما يسلم بسيطرتها على العالم الفيزيقي ، دون ان ينفي هذا عنه ايمانه، او التزامه بفكر مثالي غيبي . وكان رودينسون قد قفز هنا من موضوع الايديولوجية الى موضوع علم الاجتماع الماركسي في محاولة لتوضيح ان لهذا العلم معنى واحدا هو : استبعاد التصورات التي تعتبر الافكار غير مشروطة وان لها تاريخا مستقلا ، واستبعاد التصور الذي يعتقد ان « الناس يتشكلون بالافكار فقط او يتصرفون بناء على الايديولوجيات التي يعتنقونها دون ان تؤثر على هذه الافكار اوضاع حياتهم العملية » . ورغم ما يبدو على هذا الكلام من انه ينتمي الى علم اجتماع المعرفة ـ كما اوضح ذلك الاستاذ السيد يس في مقاله المشار اليه ، فاننا نعتقد ان لهذا الكلام وجهه الآخر ، الوجه المتعلق ايضا بقضية الايديولوجية .

ان المفكر المثالي الغيبي الذي يشرع في الاقتناع بخضوع الافكار للواقع الاجتماعي ولحياة الناس العملية فانما يشرع في الانفصال عن غيبيته المثالية لانه سرعان ما سيصل الى محاولة لتطبيق نفس التصور التاريخي والاجتماعي عن الافكار على افكار بعينها متعلقة بالعالم الغيبي وبما وراء الطبيعة . وهو في هذه اللحظة اما ان يكمل انفصاله عن غيبيته المثالية ، واما ان يحاول التوفيق بين النزعتين المثالية والعلمية ، واما ان ينكص مستديرا الى الخلف ليعود الى نقطة انطلاقه. ونحن نزعم ان رودينسون كان يحاول اغراءنا بالتوفيق بين النزعتين، كان يحاول اقناعنا بان نحصل على مباهج النزعتين : ان نحلل الواقع الاجتماعي علميا وان نرجع الافكار الى اصولها التاريخية والاجتماعية ، وان نظل في نفس الوقت مؤمنين بان القوانين العلمية لتطور المجتمع وارتباط تاريخ الافكار بتاريخ ذلك التطور ان هي الا نوع من « العلل الثانوية » التي تخضع ما تزال للعلة الاولى .

***

ما الذي كان يقصده رودينسون اذن ؟

ان يبرر لنا عدم تماسك نظرته الفلسفية وعدم وضوح انتمائه ؟ أم ان يعثر لنفسه على دعم شرقي لموقفه الفلسفي الثنائي الذي يصر على أن يسميه موقفا ماركسيا ؟ أم أن يساعدنا في العثور على ما يبرر ثنائيتنا التي نطمح جاهدين الى ان نفلسفها لكي نصوغ نظرية تسمح في نفس الوقت بامتزاج العلم والخرافة ؟.

القاهرة — سامي خشبة

وجهة نظر

ـ تتمة المنشور على الصفحة ـ ١٣ ـ

النموذجي تعقيدا عاميا لا يحققه الا الحلاق الذي يهينها باجلاسها تحت المجفف ساعتين ليصفف شعرها تصفيفا مصطنعا . وقد فرضوا عليها العناية ببشرتها نصف ساعة وربع ساعة للاهداب ، وكذا من الوقت للاظفار ، ووقتا للعناية بالكفين والقدمين وتمارين رياضية لتخفيف الخصر وأخرى لمنع تجعدات الوجه وتمارين استرخاء وحمامات بخار . وكل هذا يأكل وقت المراة وعقلها ولا يبقي منها جانبا للشعور الانساني وانما يحولها الى دمية انيقة لا روح لها حركاتها آلية وبسماتها مصطنعة . ان الوقت الثمين الذي يضيع عند الخياطة كان يمكن انينفق في اسباغ الحب على أب شيخ مريض ، او زوج مرهق ، او طفل يحتاج الى التوجيه . وبدلا من ان تذهب الفتاة الى الحلاق تستطيع ان تطالع كتابا ينير عقلها ويهدي روحها . بدلا من ان تذهب الى خبير التجميل تستطيع ان تنتمي الى جمعية تخيط الملابس للاجئين وتكسو طفلا عربيا عاريا . ان وقت الفتاة هو ثروة الامة وهي لا تدري . فكم ساعة من الوقت يكتسب المجتمع لو حذفنا الحلاق من حياة النساء ؟ والشعر المسترسل الطبيعي هو الجمال الحق فيه روحانية وجلال وبساطة ،ووراءه قيم اجتماعية عالية لانه لا يكلف وقتا ولا مالا ولا يذل روح الانسان .

وخلاصة الراي ان الاناقة مستوى من الجمال لا يوصل اليه الا باضاعة الوقت الكثير النافع الذي كان ينبغي انفاقه في جهات أخرى ولا يصح للمجتمع أن يرفع مستوى الكماليات بحيث تصبح قاتلة للحياة الانسانية نفسها . ان المقياس الاعلى هو الانسان وخصب روحه وقوة انطلاقه نحو المستقبل الاسعد ذلك مقياس كل شيء ومنه الجمال .

* * *

والاناقة بما فيها من تكلف وصناعة تفرض على ذهن المراة صنوفا شتى من العبوديات تعمل في خياتها وهي خانعة راضخة لا تحتج ولا تقوى على الاعتراض . ان دور الازياء تحمل سيفا بتارا وترفع سبابتها آمرة ناهية فتصيح بالمراة البسي هذا واخلعي ذاك فلا تزيد المراة على الرضوخ الخانع دون ان تفكر لحظة واحدة في رفض هذه الاوامر .وفي احيان كثيرة تأمر دور الازياء بما هو مضر أشد الضرر ، ومن عجب ان المراة تقبل وتسكت فكأنها منومة لا قدرة لها على انقاذ نفسها كتلك الطفلة التي كانوا ينومونها ويسقونها ماء الملح زاعمين لها انه مشروب حلو فتشربه خاضعة مصدقة مع انه ملح صاف . ومن ابرز هذه الاوامر المتعسفة التي قضت بها دور الازياء واشقت بها حياة الملايين من النساء في العالم ، لبس الكعوب العالية ، وهي بدعة ظالمة لم يعد الناس يلاحظون ما فيها من هوان وشر لطول ما ألفوها . والمألوف الشائع يسكت العجب ويميت الاحتجاج لانه يتحول الى عادة مقبولة . ولعمري كم أمراة في العالم قد سألت نفسها : لماذا البس حذاء ذا كعب عال يضايقني في المشي ويضر باستقامة ساقي ؟ وكم أمراة قد صنعت شيئا في مقاومةهذاالطغيان المذل ؟ اما الاضرار المادية والروحية التي يفرضها الكعب العالي على المراة فهي كثيرة سنحصيها وندرس صلتها بوضع المراة الفكري العام : ـ

وابسط وجوه الضرر التي ينزلها الكعب العالي هو الوجه الصحي . فان الله قد خلق القدم مسطحة لحكمة عظيمة تنسجم بها القدم مع الجسم فيساعده ذلك على الحركة والحياة والنمو . وما أظن أي انسان متعلم يقوى على مناقشة هذا فالصحة تتطلب ان نلبس الكعب الواطىء والمشية الطبيعية التي تساعد الجسم على الرشاقة والجمال هي مشية تنبسط فيها القدم ويرجع الصدر الى وراء . وكل أمراة سليمة لم تشوه الاباطيل ذهنها تعرف بان السير بهذه الكعوب عسير مزعج . وأعجب العجب ان هناك سيدات تبلغ بهن عبودية الذهن انهن يزعمن ان الكعب العالي اسهل في المشي عليهن من الكعب الواطىء . وهن يناقشن في ذلك متحمسات فما مدلول هذا ؟ مدلوله الواضح ان طول ما ألفن هذا القيد قد أمات أحساسهن الطبيعي وجعلهن يدافعن عنه كما تدافع المراة الصينية القديمة عن الاربطة الضيقة الجارحة التي يربطون بها قدمها لتبقى صغيرة فيصبح الاسر عادة . ولعل ذلك يشبه موقف ذلك العبد الذي تعلم ان يضربه سيده حتى اذا كف يوما عن ضربه أستاء وضاق وشعر انه ناقص . فالدفاع عن الكعب العالي من هذا الصنف . وابسط وسيلة لاثبات هذا ان نسأل رجلا ان يلبس الكعب العالي ويسير به نصف ساعة وسيرى معنى ما نقول،فان السير بالكعب العالي يكاديكون مستحيلا. وانا شخصيا لم استطع حتى اليوم ان احتمله . والمرات القليلة التي ارغمت فيها على لبسه كانت أتعس أوقات عمري وقد شعرت خلالها بازدراء فكري لنفسي وحنق غاضب على الذين وضعوا للمراة هذه العبودية المرهقة . وبقيت اتساءل عن السبب الذي يوجب على المراة هذا العذاب فلم اهتد مطلقا اللهم الا ان الانسان الشرير الذي ابتدع هذا الكعب قد ارتجله ارتجالا دون اية فائدة اجتماعية للمراة . وقد ارادوا بذلك ان يفرضوا علينا بطء الحركة وقلة الحياة .

ويتبع السبب الصحي في ضرر الكعب العالي سبب جمالي فني يتطلبه الذوق الانساني السليم . لان الكعب العالي يضفي التصنع والتكلف على مشية المراة فتموت الروح الانسانية الحرة التي خلقت لتكون كريمة منطلقة تفرض ذاتها على كل شيء . وانما سعادة العقل والروح

في ان يكون الجسم حراً مرتاحا غير ذليل . والكعب العالي يقتل الروح ويذلها لانه يفرض علينا ان ندوس طبيعة أجسامنا دون سبب وجيه . فلماذا ينبغي ان تتصنع المراة في مشيتها ؟ قالوا ان ذلك مقياس الجمال ولذلك جعلوه النمط . ولكن من وضع هذا المقياس للجمال ؟ اما الطبيعة فان مقياس الجمال عندها هو انسجام اوضاع الجسم وانما تنسجم مع بنائه هي الحركة الجميلة دائما. ان الجمال هو انسجام اجسامنا مع الحركات التي تؤديها. فاذا أردنا اطلاق أعلى قابلياتنا الفكرية والروحية فان علينا ان نقوم بالحركات الطبيعية التي تلائم اجسامنا فبذلك تنمو وتزدهر روحنا ونملك الحرية والجمال . والكعوب العالية تقتل الحركة الطبيعية قتلا وتذل الجسم لانها تفرض عليه حركات مصطنعة . واذا شعر الجسم بانه ذليل ذلت روح الانسان ونكست رأسها وخنعت . ولعله لا يخفى ان التصنع بالمعنى الفلسفي اذلال للجسم والعقل. وانما الكرامة الفكرية في ان نكون طبيعيين نؤدي اعمالنا ونحن أحرار في حركاتنا نغدو ونروح في خفة ورشاقة وحرارة .

وثالث وجوه الضرر الكامنة في الكعب العالي الوجه النفسي . فالكعوب العالية تعذب المراة وتحرمها السعادة بالشمس والحركة . ان جوهر الحياة هو قدرة الانسان على الحركة ، فمن التحرك تنبعث البهجة وينبثق الرضى النفسي العميم . والمراة لاتقدر على الحركة المنطلقة الطبيعية فاذا همت بالوقوف والسير خطوات شعرت بقدمها تقيدها وتفرض عليها الترنح في السير والتعب والتكلف . ولقد تعلمت المراة تدريجيا الا تكون حركاتها متحمسة مبتهجة وان كانت لا تلاحظ ذلك . انها قد فقدت القدرة على التعبير بالحركة والفت فقدان بهجة التحرك وفرحة الانطلاق . وكم من امراة ماتت حماستها وفرحتها بالشمس والحياة وهي تسعى في الطريق بقدمين ذليلتين مربوطتين . تريد ان تنطلق مع عقلها وروحها وتتحرك مع المتحركين وتدعو الى الحياة والضوء فتشدها رجل اسيرة وضعوا لها كعبا أحمق لا معنى له ولا فائدة ولا جمال . ان سعادة المراة مثل سعادة الرجل في ان تعبر عن نفسها بالحركة والحياة . اما الرجل فقد كان كريما عزيز النفس فلم يستطع احد ان يضع له مسمارا في اسفل قدمه ، واما نحن النساء فقد قبلنا الذل وسكتنا على ان نسلب الحرية والحياة . امرونا بالتصنع فلم نحتج، وسألونا ان نعذب سيقاننا وظهورنا فخنعنا . وأعطونا الهوان فقبلنا . وبذلك فقدنا بهجة العيش وقهرت روحنا واصبحنا كالدمى التي تحركها خيوط .

ثم نأتي الى الضرر الرابع للكعب العالي وهو ضرر منظور اليه من وجهة النظر القومية . فقد فرضت الثورة الاشتراكية العربية على المراة ان تكون فردا عاملا في المجتمع شأنها في ذلك شأن الرجل ، والفرد العامل يحتاج اول ما يحتاج الى الحركة في العمل والتوجيه . وهذه الكعوب العالية تمنع المراة من العمل النافع وتفرض عليها بطء الحركة والتعب الدائم مع التصنع المقيت في المشي مما يتعارض مع صفة الفرد النشيط العملي . ونحن اليوم في عصر البناء . عالمنا العربي متأخر يحتاج الى سواعدنا كلنا في مختلف الحقول بينما نصف المجتمع مربوط القدم يكاد يكون مشلولا . والواقع ان الكعب العالي لايتفق مع روح المراة الثورية العاملة اي اتفاق لانه يمنع من الحركة ويفرض على المراة البطء . ولا شك في ان الاذهان المريضة التي ابتكرت هذه البدعة اول مرة قد هدفت الى أن تمنع المراة من ان تسير نشيطة حية كما يسير الانسان السليم وانما تتهادى كالمتعب السئم . وهذا من مظاهر عهود العبودية التي عاش فيها المجتمع قديما حيث كانت مقاييس الجمال النسوي تؤدي جميعا الى ابقاء المراة مشلولة قاصرة اليد والعقل . وتلك هي العهود التي كان المثل الاعلى للمراة فيها أن تكون مدللة ناعمة تأكل وتنام الضحى واذا سارت سارت وئيدا تجر اذيالها الطويلة من البطر والدلال والفراغ. ولعل المجتمع الغربي يظن انه قد تخلص من هذه النظرة الى المراة . ولكن ذلك ظاهري وحسب ، والكعب العالي ابرز مثال . نعم خرجت المراة الغربية الى العمل ولكن روحها ما زالت ذليلة ومقاييس الجمال القديمة ما زالت نافذة في حياتها . وها هو الكعب العالي يصنع شرا مما كانت الذيول الطويلة تصنعه ، فالذيل الطويل يعرقل السير فقط . اما الكعب العالي فهو يعرقل السير ويذل الروح الانسانية في الوقت نفسه لانه كما قلنا يحول بين الجسم وغريزة الحركة والحياة والانطلاق.

وآخر صنوف الضرر التي ينزلها الكعب العالي بالنفس الانسانية هو الجانب الاخلاقي من الموضوع . والكعب العالي ، بالمعنى الفكري ، مضر بأخلاق المراة يسيء اليها ويلوث نفسها . ويرجع سبب هذا الى ان طائفة من النساء يلبسن الكعب العالي لانهن قصيرات القامة فيحاولن بالكعب ان يتطاولن لعلهن يساوين الطوال والطويلات . ومن سوء الحظ ان طول القامة اليوم يعد من مقومات الجمال . وذلك هو الذي يدفع بالقصيرات الى التطاول ، كما يدفع الطويلات الى ان يكن أطول مما هن عليه . وأول ما نلاحظه في هذا الباب ان كل محاولة من المراة لاسباغ طول غير حقيقي على قامتها انما هو كذبة على الطبيعة وخداع للعقل والنفس . ان على الفتاة القصيرة ان تشحذ ثقتها بنفسها وتعتز بطولها دون ان تلوث نفسها بالكذب والتطاول . فقد خلق الانسان كريما، ومن كرم الذات ان نعترف بأبعاد حقيقتنا ونتقبل واقعنا صادقين نزيهين فلا نكذب على الناس وعلى انفسنا ، ولا نلجأ الى أساليب مذلة نطيل بها قامتنا بالتزييف والتصنع. والواقع ان كون الكعب العالي وسيلة من الكذب والنفاق يجعل فيه ضررا اخلاقيا واضحا . فالخلق الانساني ليس شيئا نظريا وانما ينبغي ان يشمل الحياة كلها فنصدق في اعمالنا واحاديثنا وواجباتنا . والكعب العالي كذبة تريد

بها بعض النساء ان تخدع المقابل فتوهمه انها اطول قامة مما هي عليه في الواقع. وكل كذبة تلوث النفس الانسانية لانها تذلها . وسبب اذلال الكذب للانسان انه يهدم الثقة بالنفس وعندما تدرك المراة انها ترتفع على أطراف اصابعها وتحتمل الالم والتكلف لتتطاول تشعر بالهوان وازدراء النفس دون ان تدرك شعورها او تشخصه . ان احتقار الذات في هذه الحالة غير واع وهو ينزل بشخصية الفتاة الضرر دون ان تدري . وتلك بداية غلطة روحية عظيمة تفقد المراة ثقتها بنفسها ، والثقة بالنفس كنز الانسان الاعظم ، ينبع منها الذكاء والبطولة والعظمة . ولا اظن اية امراة يخطر لها ان الكعب العالي يسلبها شخصيتها الروحية والفكرية . ذلك انه يشعرها بانها لم تخلق طويلة بالقدر اللازم وان الخالق سبحانه وتعالى قد اساء اليها وحقّرها بالقصر غير المقبول فلا بد لها من اضافة يسبغها عليها حذاؤها انعليها ان تكون ذات بهتان وتصنع وباطل لكي تساوي الطوال . ومن هنا ينبع الاذلال والزيف في شخصيتها .

ولنسأل انفسنا حقا : هل ينبغي للمراة ان تكوناطول مما هي عليه ، وهل أخطأ الخالق سبحانه بجعلها اقصر قامة من الرجل ؟ في الواقع ان الخالق الكريم قد احسن صنعا عندما جعلنا اقصر من ازواجنا وآبائنا واخوتنا ، فان المراة تأوى الى ظل الرجل وتطلب حمايته وحنانه وهي لا تستطيع ان تحيا من دون ذلك . وقد جعلها الخالق اقصر قامة من الرجل لحكمة كريمة . ولو تأمل الرجل دخيلة نفسه لوجد انه يسعد حين يجد نفسه أطول من زوجته واخته وبنت عمه ، وكذلك تحس المراة بالرضى النفسي وهي تجد انها أقصر من الرجال . ومن ثم فان هذا الكعب العالي غليظ لا فهم له ولا ذوق . انه تمرد على الطبيعة النفسية للمراة والرجل . فكم من امراة تسير اليوم الى جانب زوجها او اخيها او ابيها وهي تبدو أطول منه بالكذب والتصنع ؟ ولو كان الخالق يعتبر طول المراة ضروريا لاستطاع في يسر وسهولة ان يضع لها عظما في أسفل كعبها بدلا من الكعب العالي . ولكن حكمة الله أوسع من ان ندركها كلها. والخطأ في الموضوع خطأ البشر، جل الخالق العظيم ان يكون عمله ناقصا أو مغلوطا .

ونختتم حديثنا الذي طال عن الكعب العالي بالقاء سؤال فني : هل الكعب العالي جميل ؟ وهو سؤال ينبغي لنا ان نتأمله ، لان هذا الكعب قد شاع شيوعا عظيما ، واقل ما يمكن ان يقال فيه ان الحذائين يرونه جميلا ويبرزون فنهم فيه ، وان نساء كثيرات يرين فيه سر الاناقة ، فما سر هذا الوهم الجمالي بعد ان شخصنا اضراره المختلفة الكثيرة ؟ ولسوف ندرك وشيكا ان الجمال الموهوم في الكعب العالي ناشيء عن شيوعه وحسب ، فهو لم يصبح جميلا الا لانهم عودوا العيون عليه . وكل شائع يصبح مقبولا وكأنه يخدر العقل عن الحكم الصحيح . وخير دليل على هذا ان اصحاب الازياء جعلوا ملابس النساء طويلة حتى توشك ان تلامس القدم عام ١٩٤٨ فأصبحنا كلنا نرى الجمال في تلك الملابس . حتى اذا عادوا وجعلوها قصيرة اصبح القصر يبدو مستساغا . فالشيوع يسبغ الرضى على الاشياء المجردة من الجمال في ذاتها . ومن هنا ينبغي ان نبدأ حكمنا على الاشياء الشائعة . ان علينا ان نحكم العقل في جمالية الاشياء دون ان نسمح لشيوعها ان يدمغ تفكيرنا ويعطل قابلية الحكم فينا . ولا ينبغي للسيدة المثقفة المستنيرة ان تحكم بان الكعب العالي جميل بعد ان بينا لها عيوبه جميعا لان عليها ان تتذكر ان الشيوع يشكل فكرها شللا كاملا فلا بد لها اذا أرادت انتحكم حكما سليما ان ترتفع فوق تخدير هذا الشيوع المضلل وتتجرد من ضعف العقل أمامه .

* * *

نعود الان الى مسألة الاناقة عامة بعد ان انشغلنا بمسألة الكعب العالي ، وهو قضية جزئية من قضايا الاناقة درسنا وجوه استعبادها لذهن المراة . ونريد الان ان نتناول الجانب القومي من مسألة التأنق ، وهو جانب خطير كل الخطر . واني لاتساءل في بدء وقوفي عند هذا الجانب كم من ملايين الدنانير تنفق نساء العالم العربي كل عام في شراء الثياب والاحذية والعطور والمساحيق ؟ احسبنا لو قدرنا ذلك باربعمائة مليون دينار لما بالغنا . فلو انزلت كل امراة نفقات اناقتها الى الربع لاستطعناشراء طائرات تكفي لدحر عدونا الاكبر اسرائيل. واني لاندهش أشد الدهشة كيف لا تفكر مجلات الازياء عندنا بهذا . اننا نستورد مستلزمات الاناقة جميعا من الغرب تقريبا فمن اقمشة الى جلود للاحذية الى عطور ومساحيق الى عقود وأشرطة وكل ذلك يكلف الدول العربية الملايين الكثيرة كل عام .

والذي يحدث لنا في هذا السبيل يلفت نظر أي ذهن متأمل لو أراد ان يتدبر . تقضي المراة أشهرا طويلة تعد ملابسها وملحقاتها حتى اذا اكملت استعدادها تغير النمط فجأة فاذا الملابس القصيرة تتحول الى طويلة في الموسم الجديد وبذلك تضطر النساء الى التخلص من ثيابهن جميعا . ولا يتغير الطول وحده عادة وانما يغيرون اسلوب الخياطة وشكل الخصر . أذكر من ذلك انهم خطوا لنا منذ سنوات ان تكون ملابسنا ملونة زاهية ذاتطبعات كبيرة كل الكبر فامتلات الاسواق بهذه الملابس وطبلت لها المجلات حتى اصبحت الفتاة التي تلبس ثوبا بطبعات صغيرة تحس انها سقيمة الذوق تخالف الشائع ، ولذلك اشترت النساء جميعا ملابس تجاري النمط العام . وفجأة في العام التالي غيروا الانماط كلها دفعة واحدة فجاءوا بملابس جديدة طبعاتها صغيرة كل الصغر رقيقة كل الرقة وخياطتها فضفاضة كاكياس الدقيق حتى اصبحت من تلبس ثوبا له خصر وفيه ورود كبيرة تشعر انها متخلفة لا ذوق لها . فكانت النتيجة ان الخزانات اللأى بالملابس

الانيقة اصبحت تبدو كالخاوية فما فيها شيء يمكن ان يلبس وعند هذا ذهبت العشرات والمئات من الدنانير الى المزابل وأضطرت كل فتاة الى انفاق عشرات جديدة لشراء ملابس جديدة . وهل نحتاج الى ان ندرس نتائج هذا؟ ان معامل الاقمشة في الغرب المستعمر تضحك منا وتستعملنا نحن النساء فيضرب الاقتصاد القومي في العالم العربي . ومعامل الاقمشة لا اخلاق لها ، وآلاتها الرهيبة بلا قيم ولا انسانية . انها تريد ان تبيع وتبيع وليس يهمها في سبيل ذلك ان تقتل روح الانسان وتذل كرامته . وهذه المعامل الشريرة الجشعة هي التي تغير الانماط كل عام . فتصنع دفاتر للنماذج جديدة وهو ما يسمى بالموديلات التي تغمر أسواقنا مثل مجلة (بوردة) اليهودية وسواها . وهذه المجلات تفتك بروح المرأة فتكا ذريعا وتؤدي بنا الى الخراب الاقتصادي الاكيد .

وقد دأبت المعامل على استعمال كل وسائل الاعلام في بث الدعاوة لما تنتج ، فهي تأتي بخبراء للملابس يخيطون الاقمشة الجديدة في انماط معينة ثم تقيم معارض للازياء فتأتي بفتيات جميلات تلبسهن هذه الملابس وتعرض اجسادهن على العيون كما كانت الجواري تعرض في سوق النخاسين . والمعامل تعطي جوائز على هذا العمل وتبذل آلاف الدنانير في الاعلان وحشد الجمهور واغرائه بشتى الطرق . وقد اصبحت اخيرا تغري الاذاعات المرئية بتصوير حفلات الازياء هذه ونقلها ليراها الملايين وينتقل الفساد الى داخل البيت العربي نفسه . والفرض من ذلك اقناع النساء في العالم بأن الازياء قد تغيرت وأنماط الموسم الماضي قد ماتت وحلت محلها أنماط جديدة فعلى المرأة الانيقة ان تسرع الى الاسواق تشتري لنفسها ملابس تتفق مع هذه الازياء . وكل هذا قد اصبح يقع بسرعة وكأنما أصابنا جنون فلا تفكير لنا ولا شخصية .

من كل هذا نرى كيف تعطل الازياء اقتصادنا القومي في العالم العربي ، فالقضاء على هذه البدعة مسؤولية الحكومات الاشتراكية الثورية التي قامت في ديارنا . واول واجب يقع على هذه الحكومات ان تحافظ على روح اللباس الشعبي العربي بدلا من ان نقلد في لباسنا الغرب بدعوى ان ازياءه عالمية . ولكم احترم الهند في انها حافظت على لباسها وصمدت في وجه الغرب صمودا رائعا . فالمرأة الهندية تلبس الساري الهندي الجميل الذي يلف كتفيها ويهبط حتى قدميها فيحفظ كرامتها القومية ويصون عزتها النسوية . ان ملابسها هندية وليست اوربية وهي تلبسها في وطنها وفي العالم كله ، وهي لاتقدس أزياء الغرب ، ومحلات الازياء عندها بلا أية قيمة . فما اروعه مثلا للمرأة العربية لو ارادت ان تنظر . ان علينا ان نحيي ملابس جداتنا الطويلة التي تصون العفة وتحفظ الجسم من الحر والبرد اجمل حفظ ، وفي وسعنا ان نطور هذه الملابس بما يلائم العصر على ان نضع الانماط في بلادنا دون ان نستوردها من الخارج . وهذا الاحياء لازيائنا الشعبية لا يمكن ان يتم ان لم تتعاون عليه الحكومات الاشتراكية العربية ، لان الزي الغربي قد تفشى في حياتنا شر تفش فالتغيير لا يمكن ان يقوم به الافراد وانما هو وظيفة الحكومات .

وفي مقابل هذا تمنع مجلات (بوردة) وأمثالها من دخول العالم العربي ، وتمنع المجلات والجرائد العربية من نشر انباء (الميني جوب) كما يسمونها وما اكثر ما تقوم جرائدنا بالدعوة لهذه الازياء وهي غافلة . ثم تعيد الحكومات العربية النظر في الاذاعات المرئية التي افسدت الحياة العربية ايما افساد ، فان مذيعاته التلفزيون قد اصبحن شر نموذج للاناقة المصطنعة تقلدهن تليمذات المدارس وربات البيوت في نمط شعرهن ولباسهن . وقد كان على الاذاعة المرئية ان تدرك ان المذيعة ينبغي ان تكون مثالا للحشمة والوقار وبساطة الشعر والملبس لتكون قدوة صالحة للمواطنة العربية العاملة التي يهمها عقلها وبيتها ووطنها وتنفق وقتها في التعلم والتوجيه والخدمة . فماذا نجد بدلا من ذلك ؟ نجد مذيعات لا هم لهن الا ان يجلسن تحت مجفف الحلاق يوميا فالمذيعة تبدو كل يوم بتسريحة شعر جديدة ، وما أقبح ما تبدو ! انها تخطىء في قواعد النحو خطأ شنيعا مخجلا غير ان شعرها مجعد ملفف منضد حتى تلوح أشبه بالقطة المنفوشة . وهذا مسلك لا يليق باذاعة حكومية المفروض فيها توجيه المواطنين الى الصلاح والسداد .

والواقع الذي لا مفر لنا من مواجهته ان الحكومات العربية الاشتراكية لا تدرج اصلاح وضع المرأة ضمن مخططاتها السياسية والثقافية ، فكأن العامل هو الرجل وحده ، أما المرأة فان وظيفتها ان تخيط الملابس وتجعد شعرها وتطيل أظفارها وتلبس الكعوب العالية . نعم ، نحن نعترف بأن الثورة لم تفرق نظريا بين الرجل والمرأة بل دعتهما كليهما الى العمل والبناء . ان قوانيننا تساوي المرأة بالرجل وتتحدث في اخلاص عن تكوين الفرد العربي رجلا كان أو أمرأة بحيث يعمل في بناء الامة العربية وانقاذها من الاستعمار والتخلف والتمزق . والاشتراكية في هذا الحديث تعتبر المرأة فردا عاملا في المجتمع عليها ما على الرجل وكل هذا مقبول . وانما نعترض على انه نظري وحسب . فان وضع المرأة الحالي لا يعطيها من الفرص اكثر من ان تذهب الى الحلاق وتتفنج وتحاول الاغراء على كل أسلوب . ثم غزتنا الملابس القصيرة وكنا نأمل ان تردعنا عنها تقاليدنا الكريمة وحرمة الشرف عندنا فاذا المرأة تنهار امام هذا الغزو الفاضح ولا لوم عليها اذا هي انهارت فلست أرى الصحافة والاذاعات الا مشجعة جميعا على هذا الانهيار . لا بل ان الحكومات العربية نفسها تشتري مجلات الازياء وتملأ بها أسواقنا . وهل المرأة ملك سماوي، لتقاوم كل هذا السيل من الاغراء والدعوة ؟ ان هناك تخطيطا عاما في مجتمعنا يرسم للمرأة ان تنهار امام الغزو المادي الغربي . ولو أرادت الحكومات

العربية ان تخطط تخطيطا آخر لاستطاعت ، وذلك بأن تمنع مجلات الازياء الغربية منعا صارما ، وتقيم معامل للاقمشة عربية وتحيي ازياءنا الشعبية وتستعمل وسائل الاعلام في تشجيع المواطنة العربية على تقليل نفقات زينتها والتبرع بها للمجهود الحربي وللآلاف المؤلفة من اللاجئين العراة . ان كل هذا حري ان يتم لو شاءت الحكومات العربية ان يتم ، ولا بد لذلك من تخطيط جديد يعطي للقضايا الاجتماعية قيمتها الكبرى في الخطط السياسية العامة .

واني لأحب ان الفت النظر في هذا الباب الى نقطة جوهرية في مسألة الازياء التي نستوردها وهي ان اغلب معامل الاقمشة ومصانع العطور والمساحيق انما يملكها اليهود في الغرب. واليهود كما ثبت في هذا العصر يسعون الى ان يسيطروا على العالم ويحكموه بعد القضاء على الحكومات العالمية جميعا . وأسلوبهم في السيطرة ذو شقين ، أولهما الاستيلاء على المال في كل بلد ينزلونه ، وهذا قد تحقق لهم حيثما وجدوا لانهم قوم يقيمون تعاملهم على ابتزاز الاموال بوسائل غير مستقيمة مثل الربا (١)، وثانيهما هدم الاخلاق والمثل والقيم والمعتقدات. واليهود يعلمون حق العلم انهم اذا هدموا الاخلاق تهدمت الشعوب وانهارت امامهم . قال الشاعر العربي :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت
فإن هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

ومن هنا نصل الى النقطة الجوهرية في بحثنا ،فقد عمل اليهود على السيطرة على معامل الملابس والمساحيق والعطور وسواها من مستلزمات « المودة » (٢) وهم بذلك يتوصلون الى تحقيق الغرضين فيسيطرون على المال ويفسدون الدين والاخلاق . انهم يعملون على بيع أكبر مقدار ممكن من الملابس ومنتجات الازياء الى نساء العالم، فكلما غيروا الانماط زادوا النساء شراء وانفاقا وتسربت الاموال الى جيوب اليهود . وهم يحققون ايضا قتل الاخلاق القومية للشعوب فيشيعون التفسخ وينشرون الشهوات . وانما الملابس القصيرة ابتكار يهودي ، فقد رفعوا أزياء النساء فوق الركبة ليزول الحياء وتنتشر الرذيلة ويشيع الاختلاط غير البريء بين الشبان والشابات وتضيع طهارة الفتاة وتتهدم الاسرة وتنتشر الامراض الجنسية ويبتلي الاطفال الابرياء وينشأ جيل ضائع موبوء مريض . كل هذا يصنعه اليهود ونحن غافلون . والمرأة العربية تسعى الى حتفها وحتف أمتها فهل آن لها ان تعرف هذا وتفيق من أحلامها ؟

وفي ختام هذه المحاضرة أود ان أتوجه بنداء الى المرأة العربية عامة : ان تدرك قيمتها ومكانها في الوجود والحياة وتضع لنفسها فلسفة جديدة ترفع شانها وتعطي القيمة الاولى لذهنها وروحها . ولتعلم المرأة ان اللباس عرض خارجي اصله الستر ودفع الحر والبرد ، وانما الانسان بعقله وحديثه وعمله وخلقه لا بملبسه وحذائه .
ومن الاجحاف بمكانة المرأة ومواهبها العظيمة ان تقيم حياتها على مجرد أرضاء الفريزة وتسلية الرجل ، فهي أرفع من ذلك ، وقد اعطاها الله من أصالة الذهن وقوة الروح وابداع المواهب ما جعل من النساء في الوجود مبدعات في العلم والاختراع والفلسفة والادب والفن جميعا ، وقد ساهمت النساء في فروع المعرفة جميعا فلا ينبغي للمرأة العربية ان تتخلف وتركن الى غريزتها وعواطفها بأضيق المعاني .

واني لأؤمن ايمانا كاملا بدور الرجل في توجيه المرأة ، فاذا كانت فتاتنا العربية متخلفة تعيش بغرائزها دون عقلها ، وتحيا للازياء لا للحقيقة فانما الرجل مسؤول عن ذلك كله . وانما تتزين المرأة للرجل فلو كانت كل فتاة تجد رجلا تعزه ويلومها على تبرجها ويعلن ازدراءه له لتركت المرأة التبرج تركا تاما . والواقع ان الرجل عندنا متخلف كالمرأة وهو ما زال يحب الفتاة الضعيفة الذهن المثقلة بالزينة المصطنعة التي تلبس له التحتية القصيرة وتجعد شعرها عند الحلاق . فكل ما ذكرنا في هذه المحاضرة من وجوه التأنق والتبرج ترجع أسبابه الى المرأة والرجل معا ، والمجتمع كله مسؤول . ومن ثم فان الاناقة المسرفة التي تتصف بها المرأة العربية اليوم ذات دلالة اجتماعية أكيدة على وضعنا كله . ولن يتغير هذا الوضع بمجرد محاضرة تلقى في جامعة البصرة . وانما سيتغير اذا سمعت الحكومات العربية ما نقول واتخذت تخطيطا عاما له فلسفة اخلاقية دينية ، وهدفه المحافظة على اصالة الامة العربية وحفظ كرامة المرأة ورفع الاقتصاد القومي ومن ثم بنتيجة هذا كله ضرب اسرائيل .

نازك الملائكة

(١) راجع كتاب « اليهودي العالمي » جمع هنري فورد .

(٢) يراجع في هذا كتاب عبدالله التل « خطر اليهودية العالمية على الاسلام والمسيحية » .

تتمة الابحاث

***

وتتكرر (علينا) اكثر من خمس مرات في عدة سطور !
أين هذه الوعظية من الرؤية السابقة في الاخلاق ؟!

ولما كان محتما ان يضطرب الكاتب باضطراب رؤيته فانه يعود من جديد ، وبعد نعرجات كثيرة ، لطرق موضوع (المجتمع المثالي) مما يدلل على فقدان العلمية في كتابته والانطلاق من مفهومات مثالية تتركز حول تحقيق هذا المجتمع المثالي بوسائل اخلاقية . اذ نحن بحاجة الى (أصول) مرعية واخلاقيين وبعد ذلك ينتهي كل شيء .

اما تبرير الثورة عند الكاتب فهو ان الثورة (الطريقة الوحيدة التي يجدها المفكرون ذوو الضمائر الحية والوعي اليقظ حين يهولهم سوء الاحوال ويرون بثاقب نظرتهم الكارثة) وهكذا نضيع بقدرة قادر شروط الثورة . التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج . دور الجماهير الاساسي . دور التنظيمات السياسية الطليعية .. الخ .

ويبرز الكاتب دور (ذوي الضمائر الحية) فكأن لدينا (مصالحة) او (دعوة خير قبلية) . وهو بذلك يشكل امتدادا ضعيفا للمثاليين ، الذاتيين الذي يعظمون دور الفرد في التاريخ ، ويغيرون المجتمع بالاخلاق ويتبنون دعوات اصلاحية . وانا اسأل الكاتب : هل غير (الكندي) او (ابن خلدون) او (طه حسين) او (قاسم امين) المجتمع بواسطة الثورة ؟!

لعل نقطة مهمة اثارها الكاتب وهي انتباهة واعية جدا نرى من الضروري ذكرها : (بل الظاهرة العجيبة المحزنة ان هذه الانظمة الثورية قد تكون اكثر حساسية تجاه التهم الدينية والخلقية والقومية من الانظمة الرجعية ، وكأنها تدفع ضريبة تحررها السياسي والعسكري والاقتصادي بتضييق زائد على مفكريها في شؤون الفكر الديني والاخلاقي والوطني) .

« نقد الفكر الديني » بقلم عبد الجليل حسن

ان كتاب « نقد الفكر الديني » الذي الفه الدكتور صادق جلال العظم اثار عدة جبهات ، لعل اهمها : جبهة انصار الدين الذين وجدوا فيه الحادا ومروقا عن الدين . وجبهة الثوريين الملتزمين الذين يعتقدون ان ما خلفه الكتاب من ضجة ليس في صالح اية قضية ثورية جماهيرية . وجبهة الابسورديين اللامنتمين الذين يطرحون آراءهم دونما اكتراث لطبيعة الظرف الذي تجتازه الامة العربية ، ولا لدرجة وعي الجماهير .

والكاتب عبد الجليل حسن يتحرك من الموقع الذي اراده لنفسه ، موقع الثوري الملتزم . وهو بذلك يتطرق الى مسائل مهمة . فما الذي قدمه الكتاب من اجل الثورة العربية ؟ ولكن الكاتب ينسى شيئا جوهريا وهو ان العظم وقع من حيث لا يدرك ، وهو المادي العلمي ، في التفسير الميثولوجي للتاريخ . فاذا كان الاسلام سبب فشل العرب فهل ان اليهودية هي سبب فشل لاسرائيل ؟ واذا كانت اسرائيل قد حققت انتصارها في هزيمة ٥ حزيران ، فهل ان الديانة اليهودية هي سبب الانتصار ؟

اما بالنسبة لدعوى الكاتب عبد الجليل حول (الطفولة اليسارية) عند العظم ، فهي دعوى غير صحيحة . لان الموقف ازاء الدين هو موقف مادي اختاره العظم ، وهو بذلك لم ينحرف ولا يمكن ادانة مسائله (الطفولية اليسارية) حسب دعوى عبدالجليل حسن ادانة مبدأية ، لان الادانة تكتيكية فقط . لان الثوري الملتزم يقدر وعي الجماهير ولا يفجأها او يتصادم معها بعنف تترتب عليه نتائج خطيرة . بل يجب ان يعمل على رفع درجة هذا الوعي بواسطة التعامل الثوري الصادق والمخلص معها .

ومع كل النقاط التي اثارها عبد الجليل وهي صحيحة غالبا – وليس كلا – فأن المقالة تظل نوعا من المطالعة السياسية لا علاقة لها بجوهر الاثارة حول الدين والتي يقدمها العظم .

تجديد في مفهوم العروبة بقلم اسماعيل الملحم

لعل اغرب مقالة يقرأها شخص هي مقالة (التجديد !) هذه . حيث ان التجديد لا يوصل الا الى نتيجة واحدة هي نفي الامية . وكأن الحديث عن الامية هو من معطيات الفكر الاوروبي . وحيث لا يقدر شخص على نفي الامية بقطيعة كاملة الا اذا كان عالما بالغيب فأن الكاتب الملحم يدخل العالم بآيات خاصة . وهو لذلك منذ البدء يهاجم المفهوم القومي للقومية ، والمفهوم الآخر ، الماركسي ، للقومية . متعاطفا مع ماركسية خاصة يفهمها هو ومعترضا على الماركسية عند الآخرين . ان المفهوم القومي للامة تطور تطورا عصريا اشتراكيا . كما ان المفهوم الماركسي عن الامة اخذ بعده ومدلوله الواقعي القومي . وهاتان الاطروحتان فاتتا الكاتب الى الحد الذي تصور فيه ان الدنيا جامدة وهو وحده المتحرك حتى تهيأ له الادعاء بالتجديد . ان مطالعة المقال لا نسعف القارىء بشيء لانها ليست بحثا علميا . كما ان الموضوعية تتحول الى اوصال لقفز الكاتب وتسرعه وعدم تفوره في عمق المسألة .

الاحزاب السياسية الإسرائيليه بقلم الدكتور اياد القزاز

انها دراسة جيدة تقدم للقارىء العربي معلومات لا غنى له عنها في معركة المصير . ولعل هذه الدراسة كان من الممكن لها ان تكون اكثر جدوى لو انها توسعت بعض الشيء وتخلت عن التحديد الذي فرضته على نفسها .

تولستوي وتصوير العالم الداخلي للانسان

قدمت الدكتورة حياة شرارة دراسة معمقة تدخل ضمن امكانية منتظرة لكتابة تفصيل حقيقي عن حياة وفكر تولستوي ، هذا العالم الكبير المحتوي على مشاعر كونية متداخلة .

والدكتورة حياة ، تحاول في هذه الدراسة تقديم الاستكشافات التولستوية للحياة الداخلية للانسان الفرد . والادوات المهيأة لهذا الفرض الاستكشافي عند تولستوي ليست مباشرة او سطحية أو مبتورة. انها ادوات مهمة قادرة على سبر اغوار الاعماق الانسانية ورصد الاحاسيس .

فالبطل يتعزى بواسطة الكاتب عن طريق (المونولوج) الداخلي الذي يعكس الماهية الداخلية ، أو عن طريق (الصورة) الفنية او الاحلام او الطبيعة كما اوضحت الكاتبة بحق . وتقدم بذلك نماذج تأييدية من روايات تولستوي ، لتدعم القدرة التحليلية الوجودية عند الروائي الكبير الذي امتاز بأهتمام سايكولوجي عجيب في كشف دخيلة الانسان الفرد .

بغداد　　　　**عزيز السيد جاسم**

تتمة القصائد

***

تقرب بيننا الاسباب ، اعصابي تباشير
وقلبي راية بيضاء ...

ان الشاعر حميد سعيد ، في افضل شعره ، يستلهم رؤيا النضال ليرسم صورة جديدة للثورة . وتتضافر عند حميد ، في شعره ، شتى المعطيات التاريخية والوجدانية في بؤرة ساطعة تدل على هذه الثورة .. هنا يكون الواقع ارهاصا بالمستقبل ، والوجدان تجسيدا له . لذلك تأتي قصائد حميد حادة ، غاضبة ، دون أن يتوقف الزمن عند مرحلة معينة ، بل يظل مستمرا حتى بعد انتهاء القصيدة ، من خلال التناقض بين الذكرى والتطلع . فقصيدة حميد ، اذن ، واعية لذاتها ، قابضة على زمام الموقف ، علما بأن قصيدته هذه لا تمثل افضل شعره ولا اروعه ..

والآن نرجع الى قصائد سميح القاسم ومحمود درويش ...

ان قصيدة سميح القاسم ادل من قصائد محمود درويش الاربع على روح المقاومة ، كما ان قصائد درويش ادل من قصيدة القاسم على القدرة الشاعرية . هذه الملاحظة المبدأية تضعنا امام سؤال مهم : هل نستطيع ان نعتبر هذه القصائد نماذج لشعر المقاومة في فلسطين المحتلة ؟..

ان قصيدة سميح القاسم « ما تيسر من سورة السلاسل » مكتوبة على لسان سجين . ـ وهو اسلوب طالما اتخذه شعراء الارض المحتلة ـ والقصيدة موزعة على مقاطع ، كل مقطع فيها ، كما يبدو ، مستقل عن الآخر ، لا يجمعها الا الجو العام والوزن . واكبر ظني ان سميح القاسم عندما كتب قصيدته هذه كانت في ذهنه قصيدة محمود درويش « رباعيات » التي اهداها الى فدوى طوقان ... لذلك ظهرت على هذه القصيدة تأثيرات محمود درويش ... في انسياب اللغة ، وطغيان العاطفة الصوفية المتفائلة ، ولدانة الصورة ، وتأثيرها المباشر ... وهي السمات التي يشترك بها جميع شعراء الارض المحتلة ...

ان الهدوء في قصيدة القاسم لا ينفي الغضب ، والغناء متجانس مع الثورة ، كما أن صور الطبيعة تأخذ مكانها في مقاطع القصيدة ـ وان كانت قليلة ـ متحدة في التجربة ... اما الجرأة في شعر سميح ، فهو عدم التحرج من اي استعمال ، حتى ولو كان عاديا ، اذا كان ذلك طريقا للوصول الى الهدف ، لذلك نحس احيانا ان التقريرية والمباشرة نجدان لهما مكانا في قصائده . وليست مقاطع هذه القصيدة استثناء ...

اما قصائد محمود درويش ، فهي محيرة نوعا ما ، لا في قدرتها على الايحاء ، بل في ما توحي به .. فأنت تحس نوعا من الظمأ يطبع القصائد الاربع ويشدها في تجربة تكاد تكون واحدة ، ورغم الانسيابية في شعر محمود درويش ، فان قصائده هذه اكثر تكثيفا من قصيدة سميح القاسم ، واعمق تأثيرا ، ذلك انها تطبع في ذهن القارىء ازمة نفسية خاصة تتحدد بهذا النوع من الضياع الذي ما يني يبحث عن نبع يستريح عنده ... ولا ادري ان كان هناك في شعر درويش مثل هذه التجربة التي ربما تضعه امام منعطف جديد . من هنا جاء تعبيره غائما رغم شفافيته ، يعتمد على التداعي والانتقالات الفجائية المعبرة ، والصور الخاطفة المكتنزة بشتى الايحاءات ...

ان القضية لدى درويش في هذه القصائد تتجسد بالذات المهمومة اكثر مما تظهر في الواقع باستثناء قصيدة « ويسدل الستار » والتي تقيم بين الذات والآخرين حوارا نستشف منه هذه الازمة النفسية أيضا ، ولكن بطريق اقرب ، في ميزاته ، الى قصائده السابقة .

ان هذا الارتداد الى الذات في قصائد درويش هذه تجعلنا نعتقد ان الشاعر اقرب الى الصدق في معاناته ذلك ان ما يكشفه محمود درويش هنا ـ يمثل خصوصية تظل سمة بارزة في شعره ـ ... من هنا كان الكثير من شعر المقاومة ظلا لشعر درويش والذي ، كما يبدو ، اصبح النموذج الذي يطمح اليه شعراؤنا في الارض المحتلة ...

ان المقاومة عند درويش ، هي في هذا الكشف المتواصل لنفسية الانسان العربي المعاصر ، بينما عند القاسم تجسيد للصراع ، من هنا تكون نغمة كل شاعر مكملة للاخرى ومنسجمة معها في ايقاع من السمو والمهابة والبساطة ....

اما شعراء العدد الماضي من الآداب فكانوا دون ذلك اشواطا .

بغداد **خالد علي مصطفى**

***

تتمة القصص

واذا كانت القصة الاولى تدفع بنا الى التساؤل عن كيفية كتابة قصة ثورية ، فأن هذه القصة تدفع بنا الى التساؤل عن كيفية كتابة قصة جديدة ؟

ان التجديد في الادب مسألة بديهية وصنو الديالكتيك الذي يسير الاشياء . ومن حق اي كاتب ان يقدم اجتهاده الخاص من اجل اغناء تجربة القصة العربية الجديدة بمحاولاته ، ولكن من المؤسف ان العديد من القصص التي كتبت على اساس انها جديدة نجد انها ليست جديدة في الواقع ، اذ ان الجدة ليست في تقطيع القصة وتقديم كلمات وحالات غريبة متناقضة ليس لبعضها مشروعية الانتماء الى الآخر وتكديسها في عمل أدبي نسميه قصة بعد ذلك . وقد شهدت السنوات الاخيرة او ما نسميها في العراق بمرحلة الستينات فوضى كاملة في الاشكال ليس فيها غير الغرابة دون ان تملك هذه الغرابة مبرراتها وهويتها ، ولهذا لم تنجب هذه المرحلة اصواتا خاصة وواضحة وادغم بعضها في البعض الآخر ، وليست هذه الظاهرة في القصة فقط بل وفي الشعر ايضا .

وتشكل قصة « الحلبة والمرآة » لمحمد الحسناوي نموذجا من اللعب الجديد باسم التجديد . اذ انه يقدم عدة مقاطع قصيرة ومتناقضة فيها حديث عن الثيران ، ومحمد علي كلاي ، وهوية رجل (ممتلكاته حفنة نجوم ونصف دورة شمس) و (وصيته : لا شيء) ، وعن جان بول سارتر ومنظمة فتح ، وموظفي البريد ... الخ . وبالتالي لا نخرج من القصة بشيء ، ولا ندري ماذا اراد المؤلف ان يقول ، انها خدعة للنفس اولا وللقارىء ثانيا ، ويبدو ان كاتبها قد استسهل الامر للدرجة التي تصور فيها انه يطيق ان يمازحنا بلعبة لفظية ويكتب عليها قصة ونصدق انها كذلك ، وان كانت المسألة هكذا برصف الوقائع المتناثرة الخالية من المسؤولية والمعاناة فان بأمكان أي واحد يعرف القراءة والكتابة ان يكون قاصا .

ان التجديد يأتي من كونه حاجة بالنسبة للمؤلف وليس تقليعة او موضة ـ كما يفعل العديد من الفنانين التشكيليين الذين لا يعرفون ابسط قواعد الفن الاكاديمي الرصين ـ .

ان التجديد يجب ان يكون مصحوبا بعملية ممارسة رقابة صارمة مع الكاتب وعمله ، حتى لا يصبح هذا العمل سائبا وغير مسؤول ومجرد فورة مؤقتة سرعان ما تهمد ولن يكتب لها البقاء .

وليس لهذا التجديد حدوده ، انه تابع لمدى ادراك الكاتب ووعيه، وقد رأينا كيف استطاع قاص شاب ان يقفز الى الصفوف الاولى بين كتاب القصة العربية دون ان يلجأ الى اية لعبة زائفة بل أفاد في ذلك من اللغة والاجواء العربية والاسلامية القديمة الا وهو الكاتب المصري جمال الغيطاني .

ولكن كاتبا اخر من سورياهو حيدر حيدر استطاع ان يقدم المسألة من جانب آخر اعتمد فيه المؤلف على احياء بعض مفردات اللغة واعطائها الديناميكية الجديدة التي تلائم هموم الانسان العربي الجديد المولود من وسط الهموم والنكبات . وهكذا .ان العديد من الاعمال الادبية العربية الجديدة تنقصها المسؤولية ، وقد وقع بعض كتابنا الشباب

تحت طائلة اللامسؤولية فداروا في دروب مغلقة ، ومن المؤسف انهم ما زالوا يركبون رؤوسهم مواصلين تأدية لعبة الحواة . طافين على امواج كذبة كبيرة لا يدركون الى اية مهاو ستقودهم . ولكن قسما آخر من كتابنا الشباب استطاع ادراك فداحة المسؤولية فعمل على تأصيل وجهه في محاولة منه لان يؤكد على عنصر المسؤولية المطلوبة لاي عمل ادبي يكتبه في هذه المرحلة الخطيرة من تاريخنا القومي .

« الرسل السبعه »

القصة الثالثة في عدد الاداب الماضي للكاتب الايطالي « دينو بوتساتي » وهو أحد الروائيين المهمين في ايطاليا ، وقد نقلها الى العربية الاستاذ نبيل مهايني الذي عرفنا بالعديد من جوانب الحركة الادبية في ايطاليا من خلال رسائله للاداب .

ولا اريد هنا ان اعطي رأيي بهذه القصة فهذا كبير جدا ، ولكن من الواضح ان الكاتب قد لجأ الى اجواء غير معاصرة من اجل تقديم معاناة معاصرة في قصته هذه ، ولست مطلعا على اعماله حتى أعرف خطه الفكري والفني ، ولكن من الملاحظ كذلك ان ازمة الانسان الفرد ورعبه امام الحضارة العارمة التي تحرك أعماله . وان ترجمة اي عمل ادبي الى اللغة العربية يجب أن تسبقه عملية اختيار ذكية فما زالت الترجمة بالنسبة للاجيال الادبية الصاعدة ، وهذه القصة بالذات التي اختارها الاستاذ مهايني تحمل معها مبررات العمل الجديد الذي يشع بعضويته وسهولته وبالتالي يقدم ذلك الدفق المعنوي الذي لا يتيه وسط قرقعة الالفاظ وايقاعات الجمل .

ان قصة بوتساتي هذه تتميز بذلك التركيز والحذق والتماسك وعدم الانجراف وراء انشاء اللغة .

وهذا التكثيف ناجم من طبيعة فهم الحدث واستيعابه ومحاولة تسخيره من أجل تقديم موقف فكري معين من خلاله . حيث نجد ان البطل منادى بتلك الصرخة القديمة التي لا تسمح له بالمكوث على كرسي واحد أو المراوحة امام عتبات مدينة معينة ، ولكن كل المغامرة تتبدد عندما يحس المرء بانه يدور حول نفسه وان الدروب موصدة والسنين تطارده من أجل غرس خنجرها الاخير في صدره . وبهذا يصبح كل شيء باطلا وقبض الريح ـ كما تقول الصرخة القديمة ـ وهذا الموقف اليائس هو وليد الواقع الرأسمالي الثقيل الذي يسحق القسم الكبير من الشعوب . وهو ترديد صادق لهذا الواقع من جانب القاص الذي ينوء برعبه ووحدته وموته . وهكذا لم يفلح البطل ان يجد الخلاص حتى في الرحيل ما دام يحمل معه صليب العذاب الذي سيبدد كل افراحه امام آهة واحدة يطلقها المرء وهو يتأمل وجهه في المرآة ويراه وقد سرقته السنون وتركته كقناع مفزع رهيب .

بغداد — عبدالرحمن مجيد الربيعي

عدد « الآداب » الممتاز

كانت « الآداب » قد اعلنت من قبل ان عددها الممتاز في موضوع « نحو ثورة ثقافة عربية » سيصدر في مطلع نيسان ١٩٧٠ . ولكن بسبب تأخير وصول بعض المواد المخصصة لهذا العدد ، اضطرت الادارة الى ارجاء صدور عدد الآداب هذا الى اول الشهر القادم . فالمعذرة من القراء .

« الآداب »